روح السياسة

تأليف

الدكتور غوستاف لوبون

نقله الى العربيــة الاستاذ

محمد عادل زعيتر
المحامى
خريج جامعـة باريس
واستاذ قانون المرافعات الجزائية وعلم السياسة
فى مدرسة الحقوق فى فلسطين

« العقل يخلق العلم »

« والمشاعر والمعتقـدات تقود التاريخ »

(المؤلف)

عنى بنشره
الياس انطون الياس
صاحب
المطبعة العصرية بمصر



الاستاذ

محمد عادل زعيتر

أستاذ قانون المرافعات الجزائية

وأستاذ علم السياسة في مدرسة الحقوق في فلسطين



روح السياسة

تأليف

الدكتور غوستاف لوبون

نقله الى العربيـــة الاستاذ

محمد عادل زعيتر المحامى

خريج جامعـة باريس
واستاذ قانون المرافعات الجزائية وعلم السياسة
فى مدرسة الحقوق فى فلسطين

« العقل يخلق العلم ، والمشاعر
والمعتقـــدات تقود التاريخ »
(المؤلف)

كتاب اجتماعى يبحث فى الاوهام الاشتراعية ، وفى شأن الخوف فى عالم السياسة ، وفى المذهب
الحكومى ، وفى العوامل الفكرية فى المعارك الحربية والمعارك الاقتصادية ، وفى صفوة
الرجال والجماعات ، وفى المزايدات الانتخابية ، وفى تفاقم الاستبداد ، وفى
الاوهام الاشتراكية والاوهام النقابيـة ، وفى المبادىء الاستعمارية ،
وفى نتائج تطبيق التربية الاوربية على الشعوب المتأخرة ، وفى
الفوضى الاجتماعية واستفحال الجرائم والقتل السياسى
والاضطهاد الدينى ، وفى تبـديد المقادير
والدفاع الاجتماعى

عنى بنشره
الياس انطون الياس
صاحب
المطبعة العصرية بمصر

PSYCHOLOGIE POLITIQUE

PAR

GUSTAVE LE BON

Published by
E. A. Elias
P. O. Box 954
Cairo, *(Egypt)*

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الأول

المقصد والطريقة

الفصل الاول

روح السياسة

من مظاهر تقدم العلم فى الوقت الحاضر عدول العلماء عن الشروح البسيطة التى كانوا يكتفون بها . وما لاح لهم أنهم أدركوا حقيقته فى الماضى أخذت صعوبته تبدو لهم فى هذه الايام . هذا أمر عام لم تشذ عنه المباحث فى تحول حياة الشعوب ، فقد أبصر المؤرخون الان أن الاوهام فى الغالب هى التى استحوذت عليهم فى مباحثهم وإن كانوا قد زعموا فيما مضى أنهم شرحوا الحوادث شرحاً صادقاً .

اليوم نرى الحادثات الاجتماعية كثيرة التعقيد وثيقة الارتباط بعيدة جداً من البساطة والسهولة مماثلة لحوادث الحياة الجثمانية . فيجب على العالم الذى يكدح فى البحث عن النواميس التى تتحول بها الانواع وتتكيف أن يبحث أيضاً عن سنن النشوء الاجتماعى التى لم يعلم منها سوى القليل .

و بمـا أن البحث فى عناصر المجتمع لم يتجاوز دائرة المزاعم الباطلة ظل الاطـلاع على حقيقة الامور ناقصاً ، ولا يعبأ أصحـاب العلوم النظرية بغـير ما يستوقف النظر فى مقادير حياة الامم . فترى غاية التاريخ عنــدهم البحث فى أعمـال الملوك وحروبهم فقط . وقد استمر تجاهلهم حياة الشعوب والاستخفاف بها حتى الزمن الاخير .

لا يكتفى العلم الحديث بأجوبة علمـاء الماضى المختصرة عن الاسئلة التى تمس حياة الشعوب السياسية ، ومنها : لماذا ظهرت شعوب كثيرة بغتة فملأت العالم ضوضاء وعظمة ؟ ولماذا أفل نجم هــذه الشعوب بعد تلك العظمة فانقطعت أخبارها عدة أحقاب ؟ وكيف تظهر الالهة والنظم واللغات وتتحول ثم تموت ؟ وهل تؤثر هـذه العوامل فى المجتمعات أم هى التى تؤثر فيها ؟ ولماذا انتشرت بعض الديانات كالاسلام فجأة مع أن أمر ديانات أخرى لم يتم إلا فى كثير من القرون ؟ ولماذا عاش الاسلام بعد ان توارى سلطانه السياسى مع أن أدياناً أخرى كالنصرانية والبوذية أوشكت أن تغيب ؟ لاتفوتنا الاجابة عن مثل هذه الاسئلة ، غير أن ما يكتفى به العلم فى دور حداثته من الشروح لا يرضى به فى دور كهولته .

***

مضى العصر الذى تقود فيه الالهة التاريخ وانقضى . وقد أفل كوكب القدرة الصمدانية اللطيفة التى كانت تسيرنا فصار الانسان وحبله على غاربه مكرهاً على الاهتمام بمصيره بين قوى مجهولة تحيط به : وما فتئت تلك القوى تهيمن عليه وإن أخذ يتدرج الى التسلط عليها . ونعبر عن هذا التسلط المتصل بكلمة التقدم .

ولا يكفى أن يسيطر الانسان على الطبيعـة . فلكى يعيش فى المجتمع يجب أن يعرف كيف يردع نفسه و يخضع للقوانين العامة . ومن واجبات قادة الشعوب أن يملوا على الناس هذه القوانين و يلزموهم طاعتها .

ان معرفة أساليب الحكم ، أى معرفة روح السياسة ، من أصعب المسائل فى جميع الازمنة ولا سيما فى الزمن الحاضر حيث ثقلت على الامة وطأة مقتضيات الاقتصاد الناشئة عن مبتكرات العلوم والصنائع وأصبح لا تأثير للحكومات فيها . والحوادث تلجئنا الى الاستعانة بفن السياسة ، مع ما فيه من قواعد غير محققة . وللتدابير الناشئة عن هذه الحوادث أهمية عظيمة فى الغالب فقد تعانى أجيال كثيرة نتائج الخطإ الواحد ، يؤيد ذلك وقائع القرن السابق الكثيرة .

والتأثير هو أهم قواعد ذلك الحكم . فمن تقدير وقت التأثير وكيفيته وحدوده يتألف فن السياسة .

***

و بانعام النظر فى الهفوات السياسية التى حدثت فى غضون التاريخ نرى أنها ناشئة عن جهل علم النفس ، وكما أن الفنون والعلوم تخضع لقواعد لا يجوز نقضها كذلك قيادة الناس لها قواعد لا تخرق حرمتها من غير أن يؤدى ذلك الى عواقب وخيمة ، و يصعب اكتشاف هذه القواعد بدليل أن عدد الذى صيغ منها حتى الان قليل جداً .

والكتاب الحقيقى الوحيد الذى بحث فى روح السياسة هو الكتاب الذى وضعه فلورنسى منذ أربعة قرون نخلد به اسمه ، وهذا المؤلف مدفون تحت قباب كنيسة الصليب المقدس (سنتا كروشيا) الشهيرة فى مدينة فلورنسا ، فهذه الكنيسة التى هى عنوان مفاخر ايطاليا تحتوى على قبور جميلة أقيمت ذكرى لعظماء ايطاليا مثل ميكل آنجلو وغاليله ودانتى الخ ، وقد نقشت مآثر هؤلاء بحروف من ذهب ، وليس بين قبورهم غير واحد رؤى الاطناب فى وصف صاحبه لايجدى نفعاً ، إذ لم ينقش عليه سوى هذه الكلمة وهى : « ما كيافيلى ١٥٢٧ ، لا يبلغ أعلى المجد شأو هذه الاسم . »

والاثر الذى من أجله استحق ما كيافيلى ذلك التاريخ المجيد الوجيز هو كتابه « الامير » فقد تضمن هذا الكتاب قواعد سديدة فى قيادة أبناء ذلك الوقت . ولو لم يختص هذا الكتاب النفيس بذلك الزمن لما ساء صيته بعد ان تطورت الافكار والعادات فأصبح لا يعبر عن مقتضيات هذه الايام و لما صار اسم (ما كيافيلى) مرادفاً للغدر والخداع .

اطلع هذا العالم الكبير بثاقب نظره على حقائق الامور فكان يبحث عن الممكنات لا عن الكمال ، ومن يود أن يقف على درجة عبقريته ودهائه فليرجع بصره الى ذلك العصر الزاهر الفاسد حين كانت حياة المرء لا قيمة لها عند الاخرين وكان الناس يرون من الامور الطبيعية أن يأخذ الرجل خمره معه عندما يذهب ليتناول طعام الغداء على مائدة أحد الكرادلة أو مائدة أحد أصدقائه ، خوفاً من سمه . فتفسير سياسة العصر المذ ور بأفكارنا الحاضرة هو من عدم الاصابة كشرح الحروب الصليبية والحروب الدينية وملحمة سان بارتلمى بمبادىء زماننا .

وما كان (ما كيافيلى) من أصحاب العلوم النظرية . فقد اختبر بما تقلده من المناصب

الـكثيرة سياسة بلاده العملية . وآلمته الفتن الدامية المستمرة التي استحوذت على جمهوريات ايطاليا ذات النظام النقابي ، وفي سنة ١٥٠٢ شاهد دخول فلورنسا في حوزة الحكم المطلق الدائم فاستنتج أن هذا النظام ينشأ عن الحكومات الشعبية في كل زمن . وما كان واهماً في ذلك . فلقد أصاب جميع جمهوريات ايطاليا وأثينا وروما مثلما أصاب فلورنسا .

ومع أنه لم يبق لتعاليم (ماكيافيلي) العظيم من فائدة في قيادة الناس فقد مضت أربعة قرون على وفاته دون أن يسعى أحـــد في تجديد أثره في روح السياسة وهي من الامور الحاجية التي لا غنية لاولي الامر عنها . حقاً ان روح السياسة — وان شئت فقل فن الحكم — ضرورية لهم ،غير أن قلة الدساتير الصريحة تلقي أزمة قيادتهم الى اندفاعات الوقت وعدد من القواعد التقليدية المختصرة اختصاراً مخلا ، وادلاء مثل هـذه تؤدي الى ضلال بعض القادة . فقد جهـل نابليون — وهو الخبير بأحوال الفرنسويين الروحيـة — مزاج الروس والاسبان الفكري فشهر عليهم حروباً لم تعصمه مزاياه الحربيـة الخارقة للعادة من الفشـل فيها ازاء وطنيتهم الصادقة التي لا تقهرها قوة . وقد اتى وارث اسمه الذي لم ينصح نصيحة حسنة بأغلاط فكرية في القريم والمكسيك وايطاليا وغيرها من البـلاد فأوجب بذلك غزو العدو لبلاد فرنسا في نهاية الامر .

ويكون قادة الناس من المطلعين على احوال الرجال الفكرية بحكم الضرورة . فلولا علم (بسمارك) بمزاج الافراد والشعوب النفسي لم تكـف الجيوش الجرمانية لاقامة صرح اتحاد المانيا .

***

لروح السياسة مقومات مختلفـــة اهمها : روح الافراد وروح الجماعات وروح الشعوب . وهذه المعارف في نظر اساتذة مدارسنا شيء لا فائدة فيه . يدلك على ذلك عدم ذكرها في برامجهم ، ولا علم لمدرسة العـلوم السياسية بوجودها . او ليس من العجيب ان ينال الطالب فيها لقب دكتور من غير ان يسمع بمعارف هي اسس عالم السياسة الحقيقية ؟

وتنحصر بضاعة رجال السياسة القصـيري الباع في علم النفس في بضعة مبادىء تقليدية لا تنفع لحل المشاكل الحديثة . وقد اصبحت اندفاعات الاحزاب المتقلبة دليلهم فكثرت زلاتهم الفكرية . ومن هذه الزلات الخطرة فصل الـكنيسة عن الدولة ومنح الاكليروس

استقلالا وسلطة لم يسمح بمثلهما اشد ملوكنا كثلكة . ومنها مبادئنا فى التربية المناقضة لمبادىء التربية الالمانية مع ان هذه المبادىء سر مبتكرات العلم والصناعة والاقتصاد فى المانيا . ومنها سياسة الادغام والتمثيل التى نطبقها على مستعمراتنا فأوجبنا بها انحطاط هذه المستعمرات وتأخرها . وقرار الحكومة بادخال الاشقياء فى سلك الجيش بعد ان كانوا لا يقبلون الا فى كتائب خاصة خوفاً من ان تسرى عدواهم الى غيرهم ، واذعان الحكومة لاول اعتصاب قام به موظفو البريد . وسن كثير من القوانين التى زعم انها مشبعة من حب الانسانية والاعتقاد الوهمى القائل ان المجتمعات تتجدد بفعل المراسيم وان الامة تتحرر من تأثير الماضى

ولا ريب فى ان العوامل المسيرة للامة كثيرة التعقيد ومنها العوامل الطبيعية والعوامل الاقتصادية والعوامل التاريخية والعوامل السياسية الخ فهذه العوامل تعين وجهة افكارنا واتجاه سيرنا فى نهاية الامر اى انها تتحول الى عوامل فكرية من حيث النتيجة

***

وفى بعض الاحيان تشتد المشاكل بين الشعوب فلا يحلها غير المدفع ، وحينئذ يكون الحق فى جانب الاقوى وعلى هذه الصورة حسم الخلاف بين بروسيا والنمسا وبين الترنسفال وانكلترة وبين اليابان وروسيا . غير انه يمكن فصل المشاكل الثانوية بأساليب نفسية بدلا من فصلها بالحديد والنار ولا يزدرى هذه الطريقة سوى الاقوياء الذين يفوقون اعداءهم قدرة فلا يرون — كنابليون وبسمارك — غير السيف حكما وما على الاعداء آنئذ الا ان يلتزموا جانب الصمت حتى تدق ساعة الانتقام فى وقتها المحتوم

ولا نرى احداً يقدر الان على اتخاذ تلك الوسائل القاطعة . فالمحالفات بين الشعوب تحول دون استخدامها . وما من ملك تحدثه نفسه بعد الان بأن يدعى انه السيد الوحيد وقد علمت حوادث مراكش الشعوب ماذا يكون مصيرها اذا لم تتحالف لتدافع عن نفسها

اذاً تقع المذاكرة فى امور الحياة اليومية بين قوى متكافئة على وجه التقريب . ولعلم النفس شأن كبير ولاقطاب السياسة تأثير عظيم فى حل هذه الامور . وهذا التأثير فى الوقت الحاضر اقل منه فى الماضى ، فالجمهور الذى يستقى معلوماته من البرقيات والتلفونات

والصحف يناقش فى ادق الحوادث السياسية بينما يتبادل رجال السياسة مذكراتهم الغامضة ببطء وهذا ما يضطرهم الى ان يجاروا الراى العام ويقتفوا اثره علناً لا ان يتقدموه كما فى الدور السابق

ولا يمنعنا ذلك من القول إن شأن السياسة الذى استخف به على غير حق لا يزال مهماً فلقد حل بفضل المداخلات السياسية معضلات كثيرة كمسئلة ضرب البارجات الروسية لمراكب الصيد الانكليزية فى اوائل الحرب الروسية اليابانية وكمشكلة الدار البيضاء وكالاختلاف بين روسيا والنمسا فى شأن الصرب الخ ولوكان عندنا قبيل حرب السبعين ساسة خبيرون بحقائق الامور ولو قليلا ما وقعت هذه الحرب فى زمن اختاره العدو وتأخر حدوثها الى يوم يكون لنا فيه حلفاء

والوقوف على روح السياسة يعلم اولى الامر كيف يحلون ما يعترضهم كل يوم من المشكلات فيميزون بين الاوقات التى يلبون فيها رغبات الشعب او يقاومونها. ومما يؤسف عليه ان هؤلاء الولاة يستصوبون تلك الرغبات او يرفضونها حسب مزاجهم مع ان الواجب يقضى عليهم بأن يقاوموها او يذعنوا لها حسب الاحوال. ولا شىء اصعب من معرفة ذلك فى عالم السياسة وقد يؤدى جهله الى اسوأ النتائج، فلربما حيل دون نشوب الثورة الفرنسوية — او اشتعالها بشدة على الاقل — لو لم يصر الاشراف سنة ١٧٨٨ على رفض مبدإ المساواة فى الضرائب اعنى ايام الازمة الزراعية المالية التى زادت بؤس طبقات العمال فقد نشأ عن حقد هذه الطبقات على الاشراف فتن لم تنته الا بتداعى اركان الماضى الطويل

* * *

استوقف نظرى فقدان الكتب فى روح السياسة، فكنت ارجو ان اشغل هذا الفراغ. وبعد عشر سنوات قضيتها فى القيام بتجارب فى الحكمة الطبيعية ووضعت فى أثنائها كتاب «نشوء المادة» اضطررت الى ترك تلك التجارب لغلائها فاستأنفت البحث فى علم الاجتماع فوددت ان اطبق المبادىء المشروحة فى كثير من كتبى السابقة على السياسة فطلبت الى صديقى الفاضل الاستاذ (ريبو) ان يدلنى على ما نشر حديثاً من الرسائل فى روح السياسة فقال لى انه لم يؤلف شىء فيها، فاعترانى الدهش كما اعترانى منذ خمس عشرة سنة عندما عولت على درس روح الجماعات فلم اقف على اثر للبحث عنها فى أحد الكتب

ولا تقل ان كتب السياسة قليلة فقد ألف منها منذ زمن اريسطوطاليس وافلاطون عدد غير يسير وانما كان واضعوها فى الغالب من ارباب العلوم النظرية الذين لم يعرفوا غير ما رأوه فى منامهم من اشخاص وهمية فمن العبث ان نطمع فى العثور على شىء من علم النفس وفن السياسة فى كتبهم.

فقدان الكتب المدرسية فى مثل هذا الموضوع وعدم تدريسه يثبتان لنا ان فائدته لاتزال خافية على المطالعين. ومن الضرورى ان نوضحها فى كتاب يبحث فى روح السياسة

قلت آنفاً ان مقومات روح السياسة هى روح الافراد وروح الجماعات وروح الشعوب ودروس التاريخ وكثير منها صار معروفاً. الا أنها لم تكن البناء نفسه. فالسياسة بحسب ما توصلنا اليه من المعرفة فى الوقت الحاضر هى التوفيق بين السير والحركة وبين مقتضيات الوقت معقولة كانت أم غير معقولة. وقد يقول العقل ان تقاليد الشعب الارثية ومعتقداته باطلة، ولكن السياسى الحقيقى لا يناهضها لعلمه أنه لاطائل تحت ذلك. وهو فى سيره على عكس ارباب العلوم النظرية الذين يعتقدون لجهلهم حقائق الامور أن العقل سيحكم العالم ويحول الرجال. نعم ان العقل يهىء بالتدريج العوامل التى تتحول بها نفوسنا، غير أن تأثيره المباشر ضعيف جداً والامور التى تتحول به بغتة قليلة الى الغاية.

ومع أن فن السياسة لا يزال فى دور الشك والتذبذب فان قواعده تزداد كل يوم وضوحاً ولا تثبت قيمة هذه القواعد بصوغها بل ببيان ما ينشأ عن جهلها من النتائج الوخيمة، وسيكون ايضاح ذلك من مقاصد هذا الكتاب.

والمبادىء التى اتخذناها دليلا لنا تقتضى تفصيلا لا يسعه صدر هذا السفر، فعلى القارىء أن يطالعها فى كتبى السابقة، وقد صرفت همى فى هذا الكتاب الى تطبيق قواعد روح السياسة على حوادث العصر الحاضر وحدها، ومع قصر هذا الدور يجعلنى اتساع الموضوع الذى طرقنا بابه اكتفى فى الغالب بملاحظات وجيزة فيه، فدرس شأن روح السياسة فى تاريخ الامم وفى تكوين معتقداتها وفى الحروب التى تتألف من مجموعها لحمة ماضيها يقتضى تخصيص مجلدات كثيرة، ولما فى مباحث روح السياسة من جفاف قد يهول القارىء فيستنفد وقته سعيت جهدى فى اجتناب الصيغ المدرسية وفى افراغ المبادىء فى قالب تستمرئه النفوس.

***

يثبت الفصل الذى خصصناه للبحث فى عوامل الاقناع ما للتكرار من الشأن العظيم ، فاعتقادى فائدته يدفعنى أحياناً الى تكرير الشىء الواحد بتعبيرات مختلفة ، وانى لاسف على كون ضيق المقام يمنعنى من الاكثار منه ، ولم يبالغ نابليون بقوله ان التكرار مظهر البلاغة الاساسى ، لانه من أشد عوامل الاقناع تأثيراً ، وقد اطلع جميع أقطاب السياسة على سلطانه القوى ، فبه استطاع امبراطور المانيا أن يقنع رعيته بضرورة الاتفاق على انشاء أسطول حربى عظيم .

واذا كان التكرار ضرورياً لنشر الحقائق المعروفة فلزومه لاذاعة الحقائق الحديثة أشد واكثر ، وقد جربت ذلك بنفسى عدة مرات . ولم يقدر الرسل فى غضون القرون الماضية على تحويل أفكار الناس ومعتقداتهم الا بتكريرهم الامور تكريراً متصلا . ثم ان طريقة الاقناع الحقيقية تختلف عما جاء فى الكتب اختلافاً تاماً ، فالعقل والبرهان اللذان يفيدان فى اثبات القضايا العلميـــة يؤثران قليلا فى تكوين معتقداتنا ، ولا يسلم الناس بالاراء لصحتها بل يسلمون بها عندما تستولى بفعل التكرار والعدوى الفكرية على دائرة اللاشعور التى هى علة السير فينا .



الفصل الثانى

مقتضيات الاقتصاد ونظريات السياسة

تأثير الصور والخيالات التى تحدثها الاخبار فى النفس ضئيل جداً . والانسان لا يستطيع أن يتصور الامور المجردة كما يجب الا اذا قاسها على ما أحسه بنفسه من الامور قبلا . فمن شاهد معركة أو غرقاً تؤثر فيه أخبار المعارك والغرقى كلما سمع بها .

والاستدلال على الماضى بالحال تجلى لى يوم ساقتنى مصادفات السياحة الى اجتيازى بالسيارة جسر النهر الذى يفصل مدينة (هوى) البلجيكية الى شطرين . فالضباب الكثيف الذى كان يغشى هذه المدينة اضطرنى الى الوقوف فنزلت من السيارة وتوكأت على حاجز الجسر . وفى أثناء ذلك كنت أبصر من خلال الضباب أثراً من المدينة ثم بدد شعاع الشمس هذا الضباب فبدا لى عالمان — وان شئت فقل مظهرين متقابلين من مظاهر العمران البشرى — شطرهما النهر ، وما كنت لاحتاج الى إعمال الفكر كى أرى أول وهلة أن أحدهما يتوعد الاخر وأنه لا يرجى التوفيق بينهما لشدة تباينهما ، فعلى الضفة اليسرى مبان قديمة يشرف عليها قصر فخم متين وكتدرائية جليلة زينتها الاجيال والقرون . وعلى الضفة اليمنى جدران مصنع واسع لصنع الاجر وتعلوه مداخن طويلة تقذف دخاناً أسود ذا لهيب . ويخرج فى أوقات معينة من أحد أبوابه رجال غلاظ ذوو عيون غائرة ووجوه متكرشة تنفصد عرقاً . فهولاء الناس — وهم أحفاد أجداد استعبدتهم الالهة والملوك — لم يغيروا سادتهم الا ليكونوا عباداً للحديد .

يخضع ذانك العالمان لعوامل متباينة تباين الامال التى تبذرها فى النفوس ، فالاول وهو عالم الماضى لا نزال نعانى عزائمه على رغم موته ، والثانى وهو عالم الحال حافل بالاسرار لما يحمل بين ثناياه من مستقبل مجهول . ولقد وجد الحال والماضى فى كل زمان ، وبينهما هوة يملأها ايمان مشترك ومشاعر متجانسة . وقد غابت المشاعر وزال الايمان فى هذه الايام فلم يبق غير البغضاء المتأصلة بين الغنى والفقير ، ولما ندرج العمال فى زماننا الى التحرر من ربقة المعتقدات وروابط

الماضى الاجتماعية أخذوا يصيرون اكثر تجبراً من ذى قبل مهددين الحضارة باستبدادهم الجامع الذى سوف يجعل الناس يأسفون على استبداد أقسى الجبابرة . وهم الان يملون أوامرهم على المشترعين كما يملى السيد أمره على أجيره ولا يقابلهم هؤلاء المشترعون إلا بتملقهم ومداراة أهوائهم . وهكذا نرى قوة العدد تحل الان محل الذكاء اكثر منها فيما سلف.

⁂

إن الحياة السياسية عبارة عن توفيق المرء بين مشاعره وبين البيئة التى تكتنفه ، وتحول طبيعة الانسان ببطء يجعل هذه المشاعر قليلة التحول مع أن البيئة الحديثة تتحول بسرعة تابعة تقدم العلم والصناعة المستمر . ولما أخذت البيئة تتحول مسرعة على هذا الوجه صعبت ملاءمتها فنشأ عن ذلك ما نشاهده اليوم من الارتباك والتذبذب .

يختلف الزمن الحديث عن الزمن القديم بأفكاره وطرق معايشه . فلا تشتق مقومات الحياة الجديدة التى تقودنا من البراهين العقلية المجردة ولا تتكيف حسب آمالنا ومبادئنا المنطقية بل هى نتيجة مقتضيات الزمن التى نعانيها دون أن يكون لنا شأن فى تكوينها ، ولا يختلف الزمن الحالى عن الماضى بما فيه من المزاحمة والتنازع . فالحرص الثابت الذى لا يتغير هو مصدر المزاحمة والتنازع . وانما يختلفان باختلاف عوامل تحول الشعوب ، واليك البيان :

يتصف هذا الوقت بحلول سلطان العوامل الاقتصادية فيه محل سلطان الملوك والقوانين . ثم بتبادل المنافع بين الشعوب التى كان بعضها منفصلا عن البعض الاخر .

لتبادل المنافع الحديث أهمية كبيرة . فالامم التى كانت لا تربطها فى الماضى روابط التجارة لا تقدر اليوم على العيش من غير أن تتعاون . فلو أحيطت انكلترة بسور عال وزال اتصالها بالعالم الخارجى حيث تقايض بمصنوعاتها ما تحتاج اليه من المواد الغذائية لضربت المجاعة بسرعة أطنابها فيها . ومن نتائج طرق المعايش فى الوقت الحاضر نستدل على أنه كلما حول تيار الصناعة والتجارة حياة الشعوب أصبح شأن الحكومات أقل منه فى الماضى وقد شعرت الحكومات بعجزها إزاء هذا التيار فأخذت تتبعه غير مؤثرة فيه .

كان الملك منذستين سنة ذا حول وطول فاستطاع تطبيق نظام حرية المبادلة فى مملكته . وأما اليوم فلا أحد يجرؤ على محاولة ذلك . لان نظام الحماية — وقد استنكره اكثر علماء

الاقتصاد — هو مما ترغب فيه شعوب هذا الوقت الذى أدت الضرورات فيه الى انهماك ولاة الامور بالحال دون المستقبل .

وفى الغالب نرى أن هؤلاء الولاة يأخذهم الوهم فى نتائج مداخلاتهم فقد صرح الموسيو (ميلين) فى جلسة مجلس الشيوخ المنعقدة فى ١١ مارس سنة ١٩١٠ أن نظام حرية المبادلة قضى على زراعة انكلترة ، فأوجب نقصاناً فى محاصيل قمحها بلغ خمسين فى المئة فى نصف قرن ، مع أن نظام الحماية فى فرنسا أدى الى زيادة محاصيلها فصارت تصدر القمح بعد ان كانت تستورد منه مقداراً لا يستهان به ، واننا على خلاف ما ذهب اليه هذا العالم الاقتصادى الشهير نقول ان تلك الزيادة نشأت عن تقدم الزراعة فى فرنسا تقدماً فنياً . واذا كان الانكليز لم يأتوا بمثل هذا التقدم فلانهم رأوا صنع السلع وبيعها ثم اشتراء ما يحتاجون اليه من القمح فى الخارج ببعض ثمنها أفيد من اهتمامهم بأمور الزراعة

وسواء أمفيداً كان نظام الحماية أم مضراً فبيانه خارج عن موضوعنا . وفى عالم السياسة الحاضر لا يبحث عن الاحسن بل عن السهل . ولم يكن أحد فى هذه الايام من القوة والسلطان بحيث يلزم أحد البلاد تطبيق النظام الذى لا يرغب فيه . واذا أخطأ شعب فى تقدير ذلك يقاسى نتائج خطاءه . والتجربة هى التى تدله عليه فى نهاية الامر

ومما تقدم نتبين درجة اختلاف العوامل الحاضرة عن عوامل الماضى ونطلع على قلة تأثير نظريات السياسة فى تحول الشعوب . فمن مبتكرات العلم والصناعة وعلائق الامم بعضها ببعض تظهر عوامل لا بد للشعوب والملوك من الخضوع لها .

***

قلنا ان مقومات الحياة الاقتصادية كناية عن ضرورات لا مناص للشعوب من ملاءمتها . والآن نضيف الى هذه الضرورات الطبيعية ضرورات مصنوعة يأتى بها أرباب العلوم النظرية فى السياسة والحكومات :

لم يستطع علماء الحياة — على رغم تذرعهم بجميع الوسائل التى فى مختبراتهم — أن يحولوا أى نوع من ذوات الحياة . والتغيير السطحى الخفيف الذى يؤدى اليه فن تربية الحيوان واه قصير الاجل ، فهل تحويل المجتمع أسهل من تحويل ذوات الحياة ؟ لقد سير الجواب الايجابى عن هذا السؤال سياستنا منذ اكثر من عصر ولا يزال يسيرها ،

فامكان تجديد المجتمعات بسن الانظمة الجديدة عد من البديهى عند رجال الفتن والثورات فى كل عصر ولا سيما عند زعماء الثورة الفرنسية والاشتراكين فى زماننا . وكل يطمع فى تجديد المجتمعات حسب خطط يمليها العقل النظرى .

غير أن العلم كلما تقدم ظهر فساد ذلك الاعتقاد ، فالعلم باستناده الى علم الحياة وعلم النفس والتاريخ يثبت أن تأثيرنا فى المجتمع ضئيل الى الغاية وأن الانقلابات الاساسية لا تتم الا بفعل الزمان وأن الانظمة ليست سوى ظرف خارجى لروح باطنية ، وأنها تشبه اللباس الذى يناسب جسما دون أن يقدر على تكوينه . وأن الذى يلائم شعباً قد لا يلائم شعباً آخر .

لا تنكر شأن النظم والرجال فى سير الحوادث فكل صفحة من صفحات التاريخ تدل على عظمه ، وانما يبالغ التاريخ فى تقدير أهمية ذلك الشأن غير ملاحظ أن النظم والرجال هى فى الغالب عبارة عن توسع ماض طويل وأنها اذا لم تظهر فى الوقت المناسب تكون ذا عمل مخرب كعمل الفاتحين

والقول بأن روح الشعب تتبدل بتبديل نظمه وقوانينه أصبح عقيدة . فسنحارب هذه العقيدة فى مواضع مختلفة من هذا الكتاب . وقد ظلت الامم اللاتينية مثابرة عليها فكان ذلك سبب ضعفها ، فأوهامها فى قدرة الانظمة دفعتنا الى ايقاد أعظم ثورة دامية عرفها التاريخ وأدت الى قتل ملايين كثيرة من الرجال والى انحطاط مستعمراتنا انحطاطاً محزناً والى انتشار الاشتراكية بيننا انتشاراً خطراً .

وما استطاع شيء أن يزعزع تلك العقيدة الهائلة ، فلا نزال نطبقها بدقة على سكان مستعمراتنا الذين ألقاهم طالعهم السيء بين أيدينا لنعاملهم بما يزيدهم بغضاً لنا وتمرداً علينا ، وقد نشرت الصحف مؤخراً مثالا على تلك السياسة العمياء بنقلها بضع عبارات من المنشور الذى نشره حاكم شاطىء العاج على موظفيه فأوجب به عصيان هذه المقاطعة وقتل كثير من الضباط وسوق جيش من فرنسا لاعادة النظام

يثبت المنشور المذكور عجزنا العضال عن العلم بأن روح الشعوب لا تتغير بقوة المراسيم وأن الانظمة التى تنفع أمة قد تضر أخرى ، فاليك بعض ماجاء فيه : « يجب أن يتقدم سكان مستعمراتنا على رغم أنوفهم . وماعجز عنه الاقناع والدليل من التأثير فيهم فالقوة تفعله . ألا فليغير الزنوج مزاجهم النفسى ليفقهونا . فلا تعاملوهم بمقتضى العاطفة

ولنضرب برغباتهم عرض الحائط ولنمض فى عملنا غير وجلين حتى نصل الى الغاية المنشودة ولا نخشى نتائج عملنا وان احتقرنا عاداتهم المنافية لـكل رقى . »

وعندى أنه يجب تغيير أفكار الحكام الاداريين الذين يجرؤون على اذاعة مثل ذلك المنشور قبل تغيير أفكار الزنوج . وقد نال حاكم تلك المقاطعة الذى « لم يخش نتائج عمله » درساً صارماً من الحوادث التى وقعت . ولـكن فائدة هـذا الدرس لم تعم . فمن خصائص المعتقد أنه لايتبدل بالبرهان والتجربة . ولافرق فى ذلك بين المعتقدات الدينية والمعتقدات السياسية ، وان كان أجل هذه أقصر من أجل تلك .

☆☆☆

تقدم علم النفس فى الوقت الحاضر يثبت لنا ما للعقل من الشأن الضعيف فى نظام المجتمعات ومعتقداتها وسيرها وان زعمت جميع الحكومات أنها تستند اليه فى أعمالها . وقد بينت فى كتاب « الاراء والمعتقدات » أن للمنطق — خلافاً لما جاء فى كتب الفلسفة المدرسية — أنواعاً تختلف عن المنطق العقلى اختلافاً تاماً . نذكر منها المنطق الدينى والمنطق العاطفى على الخصوص . ولا يعبر بأحد تلك الانواع عن الاخر مطلقاً ، فأما المنطق العقلى فهو ركن المعارف ولا سيما العلوم وأما المنطق العاطفى والمنطق الدينى فعليهما تقوم المعتقدات أى عوامل السير والحركة فى الافراد والشعوب . ويسيطر المنطق العقلى على دائرة الشعور حيث تفسر أعمالنا . وفى دائرة اللاشعور حيث يهيمن المنطق العاطفى والمنطق الدينى تنضج البواعث الحقيقية لهذه الاعمال .

سذاجة رجال الاصلاح التى لا حد لها تمنعهم من أن يدركوا أن الانظمة لا تقوم على أدلة عقلية . غير أن هـذه الحقيقة بدت فى هذه الايام لاقطاب السياسة الانكليزية . فقد صرح حديثاً أحد وزراء بريطانيا فى البرلمان بأن أعظم ما يمتاز به دستور انكلترة عدم قيامه على العقل والبرهان . هـذا هو سر قوة ذلك الدستور . والسبب فى ضعف دساتير فرنسا الـكثيرة الناشئة عن ثوراتنا التى أوقدناها منذ قرن هو قيامها على ما يقتضيه العقل النظرى .

وهذا البيان لا تستمرئه نفوس اللاتين فلا يجدى الاسهاب فيه نفعاً . وانى اكتفي بأن أذكر أن ما تألف منه لحمة حياة الامة من ديانات وحكومات لم يقم على الادلة والبراهين

وأن شأن أقطاب السياسة ينحصر فى معرفة مداراة المشاعر للتأثير فى الرأى العام . نعم تدل الظواهر على أنهم يؤثرون بما فى خطبهم من المعقول ولكن سوف نرى أن للاقناع منهلا آخر ، فالجماعات لا تتأثر من انسجام الخطب المنطقى أبداً بل مما تورثه بعض الكلمات فى نفوسهم من صور عاطفية . واذا سلمنا بأن الخطبة العقلية الخالصة قد تقنع النفس فان هذا الاقناع لا يدوم طويلا ولا يكون باعثاً على السير والحركة .

***

ولكن بأى شىء نوضح الانقلابات الاساسية التى نشأت عن المبادىء العقلية السائدة للثورة الفرنسوية اذا لم يكن المنطق العقلى هو الذى يقود الرجال ويؤدى الى تحول معتقداتهم ؟

قبل أن تثبت أن هذا التناقض ظاهرى نقول انه لم يكن للثورة الفرنسوية عالم نظرى من أرباب التأثير والنفوذ سوى (جان جاك روسو) . وأما تأثير (مونتسكيو) الذى الذى كان عظيما فى البداءة فلم يلبث أن صار ضئيلا الى الغاية . ثم كان هذا الاخير يسعى على الخصوص فى ايضاح النظم الاجتماعية الموجودة خلافاً لروسو الذى اقترح اقامة مجتمع جديد ، وقد اعتقد (روسو) ـ المتهوس الحالم ـ أن الانسان كان سعيداً أيام كان على الفطرة فأفسدته النظم وصار شقياً وان من الصواب تبديل تلك النظم . واعتقد أيضاً أن التفاوت مصدر كل عيب فى المجتمعات وأن البغضاء بين الغنى والفقير علة الشقاء فيها فقال بضرورة السيادة الشعبية لمعالجة ذلك . وهذا ما حاول أتباعه تحقيقه بوسائلهم المعهودة عندما أثارتهم مقاومة الملك والاشراف والاكليروس فقبضوا على زمام الامور .

ولم ينقض تأثير (روسو) بانقضاء الثورة الفرنسوية . فلقد أصاب الموسيو (لانسون) حيث قال : « ان التقدم الذى تيسر للديموقراطية والمساواة والانتخابات العامة واضطهاد الاقليات ورغبات الاحزاب المتطرفة ومناصبة الثروة والتملك منذ قرن يلائم ما جاء فى كتابه . » وسنرى أن (روسو) بالحقيقة حجة يحتج بها اكثر منه ملقناً موحياً .

والسرعة التى انتشرت بها مبادىء (روسو) أيام الثورة الفرنسوية تستوقف

النظر ، فقــــد طلب فى العرائض العامة التى عرضتها اكثرية الفرنسويين على الملك سنة ١٧٨٩ الغاء الامتيازات الاقطاعية وسن قوانين ثابتــة وعدالة متماثلة الخ . أى ما حققه نابليون فى قوانينه على وجه التقريب . واذا لم يطالب الناس فيها ابطال الملكية فلأن الملكية كانت محترمة عند الجميع ، على أن المبادىء المذكورة ـ ومنها الغاء الملكية ـ تم لها النصر بعد ثلاث سنوات عندما قضى دور الهول على جميع ما انكرته .

اذاً هنالك تناقض بين بياننا أن عمل المبادىء العقلية قليل فى سير الحوادث وبين تأثير هذه المبادىء السريع فى أثناء الثورة الفرنسوية . وانا نزيد هذا التناقض بأن نقول ان الناس فى كل جيل مسيرون بمبادىء قليلة تكونت ببطء وأن تلك المبادىء لم تبعث على السير والحركة الا بعد ان تحولت الى مشاعر .

والواقع أنه لا أساس لهـــذا التناقض على رغم ظاهر أمره . فاذا تأصلت مبادىء أرباب العلوم النظرية فى عهد الثورة الفرنسوية بسهولة فى روح الجموع فلانهـا قديمة العهد لا لانها حديثة . فالمبادىء الثورية لم تفعل غير دعمها بقوة القوانين ما كان موجوداً قبلا من مطامع ورغبات قد تكبحها مقتضيات الاجتماع أو تلطف جذوتها دون أن تطفئها .

سلم الشعب فى العهد السابق بسلطة الملوك وبالتفاوت فى المعايش وقتما اقتضى كيان المجتمع القديم ذلك وصار الناس يعدون هذين المبدأين أمراً طبيعياً . ولكنه حينما جاهر أولو الأمر الذين كانوا يستمدون نفوذهم من الملوك أن الشعب هو الحاكم الحقيقى وأن استبداده ينبغى أن يحل محل استبداد الملوك وأن التفاوت فى الثروة ظلم وأنه يجب توزيع أموال سادته السابقين على أفراده آمن الشعب بصحة هـذه المبادىء بحماسة وأضحى يعتبر كل من يحول دون تحقيقها عدواً يستحق القتل . ولو أن حكومة فى الوقت الحاضر سنت قوانين تبيح القتل والنهب مستندة الى أقوال بعض الفلاسفة لجمعت فى الحال عدداً لا يستهان به من الاشياع وهتفوا لها كما هتفوا للحكومة التى أمرت بالاستيلاء على أموال اليسوعيين كى تقسم بين العمال والاصدقاء . غير أن تطبيق مثل هذه المبادىء قصير المدى . فالناس لا يلبثون أن يدركوا ـ كما أدركوا بعد بضع سنين من نشوب الثورة الفرنسوية ـ أن الخراب لا الغنى هو الذى يعقب الفوضى . وحينئذ تبحث الامة مثلما بحثت فى تلك الثورة عن حاكم مطلق نشيط قادر على انقاذها من براثن الارتباك وقلة النظام .

☆
☆ ☆

كثيراً ما يأخذ الناس الوهم فى فائدة شأن الحكومات وحدود هذا الشأن غير عالمين أن الحكومات قلما تأتى بالخير وكثيراً ما تأتى بالشر . وليس علينا أن ندافع اليوم عن أنفسنا ازاء مقتضيات الاقتصاد الشديد وحدها بل ازاء افساد المشترعين الذين يضعون الانظمة والقوانين بتأثير اندفاعات الوقت كما سنبين ذلك . ومن أعمالهم القوانين الاجتماعية التى تعوق الصناعة من غير أن تؤدى الى اثراء أحد . ومنها القوانين التى تقيد تعلم الحرف فتوجب طرد صغار الصناع من المعامل وتحويل عدد غير يسير منهم الى لصوص وقتلة كما تدل على ذلك زيادة الجرائم التى يقترفها الاولاد . ومنها الاضطهادات الدينية المتوالية ونزع مال الاكليروس . ومنها القوانين الجمركية التى سوف تقضى على تجارتنا الخارجية لما توجبه من مقابلة الاجانب لها بمثلها . وهلم جراً . فهذه القوانين التى منشأها قصر النظر لم تكن سوى مصائب مصنوعة أضيفت الى آلامنا الطبيعية التى ترانا مكرهين على احتمال وطأتها .

ولا يخطرن ببالك أننا نود أن نخاصم العقل فى هذا المقام بل نريد أن نبين ضلال أولئك المشترعين الذين يستعينون به على تغيير مجرى الحوادث التى لا سلطان له عليها فالعقل قوام العلم والمعارف فقط ، وانما المشاعر والمعتقدات هى التى تقود الناس وتكون التاريخ .

الفصل الثالث

طرق البحث فى روح السياسة

تستنبط سنن روح السياسة كبقية العلوم من الاعمال والحوادث ثم من تفسيرها . ومشاهدة الحوادث واختبارها فى عالم السياسة أسهل من تفسيرها أى من تعيين عللها وكشف نتائجها قبل وقوعها . فلم يخف انكسار جيوشنا فى حرب سنة ١٨٧٠ على أحد . ولكن ماهى علة ذلك الانكسار ؟ وأى الاصلاحات أنسب لوقاية أنفسنا من مثل تلك الهزيمة ؟ هنا تختلف التفاسير والايضاحات وتبدو الصعوبة . ولكى يعتقد القارىء صحة ذلك ليبحث عن النظريات المتناقضة التى قيلت فى نظم الجيش فى عشرين سنة أو عما كتبه المتخصصون من التقارير على الاقل . ولو سهل تفسير الحوادث الاجتماعية لساد الاتفاق بيننا فى شأنه ولم يقع اختلاف فيه .

ومهما تكن ملاحظة الحوادث السياسية ، التى هى جزء من الحيـــاة اليومية ، سهلة يصعب تمييز أسبابها . وتشتد الصعوبة عندما تكون أجزاء الحادثة التى نشعر بها قسما يسيراً منها . ولا يكفى اتخاذ الالهام دليلا فى مثل هذا البحث . فالضرورة تقضى علينا باتخاذ أدق الطرق فيه كما فى العلوم الاخرى ولاسيما التاريخ الطبيعى . أى يجب على العالم النفسى أن يحذو حذو العالم الطبيعى الذى يجمع تحت فصيلة واحدة كثيراً من الامور المختلفة فى ظاهرها فيعد الحوت مثلا من ذوات الثديين بدلا من اعتباره من نوع السمك . ولو لم ينعم علماء الطبيعة النظر فى الامر لعدوا الحوت من فصيلة القرش لا من فصيلة السنجاب مع أن الحقيقة عكس ذلك .

تدل العبارات السابقة على أن أصعب شىء فى روح السياسة هو أن نكتشف العوامل البعيدة أو القريبة للحوادث وأن لا نعزو الى عامل واحد ما صدر عن عوامل كثيرة . وسوف لا أطيل الكلام فى بيان تلك الصعوبة ، فأكتفى لاثباتها بذكر عدد من العوامل التى تنتشر بها الاشتراكية .

*
* *

تقوم الاشتراكية قبل كل شيء على مبدإ الامل ، أى أمل تحسين القدر وتكوين مستقبل سعيد ، والامل مع أنه لا يحل مشكلة السعادة الا على وجه ناقص تراه من أهم بواعث الحركة التى عرفها البشر فى كل حين .

وما احتاج الناس الى تحسين معاشهم احتياجهم اليه فى هذا الزمن . فقد كانوا يأملون تحقق ذلك فى الحياة الاخرة التى كانوا لا يشكون فيها . وأما وقد أخذوا لا يعتقدونها الان فتراهم يسعون فى نيل السعادة فى الحياة الدنيا . وبهذا يتضح لنا أحد العوامل فى انتشار الاشتراكية .

ويتضح ذلك الانتشار أيضاً اذا علمنا أن الاشتراكية ديانة أخذت تحل محل الديانات التى أوشك نجمها أن يغيب . وقد دلنا علم النفس الحديث على أن الشعور الدينى أى احتياج المرء الى الخضوع لاحكام ايمان يكون دليل أفكاره وخواطره هو أحد مناحى الروح البشرية . فدعاة الاشتراكية هم قساوسة متدينون لم يغيروا سوى اسم آلهتهم . ومن مظاهر هذا التدين ما جاء فى جريدة (الاومانيته) الصادرة فى ٣٠ نوفمبر (تشرين الثانى) سنة ١٩٠٩ من أن الاستاذ الشاب فى كلية (الصوربون) قال فى حفلة افتتاح المدرسة الاشتراكية « موعظة حماسية استغاث فيها بالاهة العقل » ! . . .

ان تلك العوامل النفسية عامة فى جميع الامم ، غير أن للاشتراكية اشكالا تختلف باختلاف البلدان . ومن أسباب ذلك عامل العنصر أى صفات الشعوب الموروثة . ولما بين هذه الصفات من التباين بحسب الشعوب أصبحت الاشتراكية عنواناً واحداً لكثير من الرغائب المختلفة ، وكيف تكون هذه الصفات ذات طبيعة واحدة ونحن نرى غرائز سكان الولايات المتحدة الذين يعتمد كل منهم فى الحياة على نشاطه الشخصى وقوة استنباطه الفردية تناقض غرائز أبناء الامم اللاتينية الذين يحتاجون الى سيد يحميهم احتياجاً أبدياً ؟

وعدا صفات العنصر نذكر عاملا نفسياً آخر ، أى الماضى . فمن البديهى أن شعوباً سارت على نظام مركزى منذ قرون كثيرة وعلى رأسها حكومة مدبرة لادق شؤون

حياتها الاجتماعية والصناعية والتجارية حتى الدينية لا تكون برغائبها ومناحيها وميولها مثل شعوب فتية ذات ماض سياسى قصير غير شديد الوطأة .

لقد طبقت جميع حكوماتنا الملكية مذهب الاشتراكية الحكومية الذى يستحوذ علينا كل يوم . ولو نظرنا الى نظم (كولبر) الدقيقة لرأيناها فصلا من كتاب يبحث فى ذلك المذهب . و بما أننا نعد الحكومة فى الوقت الحاضر كالهة حامية مجيرة فجميع أحزابنا وطبقاتنا تطالبها بالمداخلة فى أمورها لتدافع عن منافعها . وأرباب المصانع هم أول من طلب اليها أن تحميهم ليغتنوا من زيادتها ضريبة الجمارك ومنحها إياهم جوائز واعانات الخ . ثم لما اعتز العمال بعددهم طالبوا الحكومة بحمايتها اياهم من أرباب الصناعة . وكلما أجابتهم الحكومة الى رغباتهم التى هى بنت نظام الحماية اقتربت البلاد من الاشتراكية

والحكومة لكى تنجز تلك المطاليب الزائدة سلكت سبيلا استبدادياً فى سلب أموال الناس فوضعت قوانين لحمل أرباب العمل على تأدية عمالهم رواتب تقاعد ولابتياع السكك الحديدية واحتكار صنع كثير من المنتجات . وستستمر على ذلك حتى يصبح العمال من موظفى الدولة .

ثم ان المشترعين أخذوا يتدرجون الى نزع الاموال من أيدى أصحابها بفرض ضرائب فادحة عليهم غير عالمين أن هذا يؤدى الى خراب الصناعات الكبرى ومساواة الناس فى البؤس والشقاء أى حدوث ما يحلم به كثير من ذوى النفوس المفعمة بالحقد على الافضليات

ولم تكن العوامل التى ذكرناها كل ما تتحول به الاشتراكية ، بل يجب أن نبحث أيضاً عن كيفية انتشارها بين الجموع وعن علة ما لبعض الالفاظ والصيغ من السلطان الكبير على النفوس . ثم ان الاشتراكية علاوة على انتشارها بين الجماعات الجاهلة ، تنتشر بين الاساتذة وأهل الثراء من أبناء الطبقات الوسطى الراضين بنصيبهم . وهنا نضم الى تلك العوامل عامل روح الجماعات وعامل العدوى النفسية الذى تفسر به ذيوع المعتقدات الكبيرة عند ظهورها .

*
* *

يلوح لنا بعد أن علمنا كثرة العوامل فى ظهور احدى الحادثات الاجتماعية أن ادراك تأثير هذه العوامل المتبادل عظيم الصعوبة ولبلوغ ذلك طريقتان احداهما بسيطة والثانية

معقدة ، فالطريقة البسيطة — وهى كثيرة الاستعمال لبساطتها — عبارة عن تقدير علة واحدة للحوادث وايجاد أدوية ظاهرة لمعالجتها جميعها . فاذا أبدى العمال استياء من سوء طالعهم تكون معالجة ذلك حسب هذه الطريقة بفرض ضريبة فى سبيلهم على دخل الاغنياء ، واذا تناقص سكان احدى الممالك تتم مداواة ذلك بارهاق العزب واثقال كاهل من ليس ذا ولد من أبنائها بالغرامات الخ

على هذا الوجه يتعقل أولو النفوس المحدودة النظر من الساسة ، وقد أوجبت سذاجتهم سن كثير من القوانين المضرة . فلننظر الان الى الطريقة التى يجب على الباحث فى روح السياسة أن يسلكها :

لما كانت الحادثة الاجتماعية تصدر فى الغالب عن عوامل كثيرة — قريبة كانت أم بعيدة — وجب على الباحث أن يعلم كيف يفرق بينها أولا ثم أن يقدر قيمتها المتقابلة ثانياً . هكذا يفعل العالم الطبيعى ازاء حادثة تشتق من علل كثيرة ، غير أن مسعاه أخف من مسعى العالم الاجتماعى ، لانه بتجاربه المكررة يقدر على تحقيق صحة استنتاجاته الاولى ، مع أن المشاهدة لا التجربة هى دليل العالم الاجتماعى فى الحوادث الاجتماعية . نعم ان التجارب الاجتماعية ليست قليلة الا أنها تقع دون أن يكون لنا شأن فى حدوثها ، ونحن لعجزنا عن تكريرها نرانا مضطرين الى ايضاح أمرها فقط . وكل يعلم ما توجبه هذه الايضاحات من اختلاف فى الرأى ونقص فى اعتبار علم الاجتماع

ولا يمكن تغيير قيمة عامل الا اذا شوهد أنه يؤثر تأثيراً متماثلا فى شعوب كثيرة خلال أزمنة مختلفة على أن تظل بقية العوامل ثابتة لا تتغير . وهذا النهج لكونه لا يطبق إلا على أحوال هى غاية فى البساطة لا يستنبط به سوى حقائق مبتذلة قليلة الفائدة كالقول إن الحكم المطلق يعقب الفوضى وإن الشعوب القوية تتغلب على الشعوب الضعيفة الخ .

فى الحالة هذه أرى أن تحليل العوامل الموجبة لاحدى الحادثات الاجتماعية يسهل اذا علمنا أن الحادثة الاجتماعية نتيجة عوامل مختلفة بعضها دائم والبعض الاخر موقت . فأما العوامل الدائمة فانها تؤثر فى جميع الحوادث تأثيراً ثابتاً مستمراً . ومن هذه العوامل عامل العنصر أى الصفات الموروثة وعامل الماضى أى المشاعر الدينية أو السياسية أو الاجتماعية التى ثبتت فى روح الامم فى ماض طويل . وأما العوامل الموقتة فانها بالعكس تتقلب على الدوام . وانما هى بتأثيرها فى عامل الوراثة القليل التغير تتسم بسمة ذلك العامل لا محالة .

وهذا ما يجعل الشعوب المنتسبة الى عناصر متباينة تسير على أشكال مختلفة عندما تخضع فى زمن واحد لعوامل موقتة واحدة . ثم ان التاريخ مع بيانه فى الغالب أن الامة الواحدة تستطيع أن تغير ولو فى الظاهر معتقداتها وأناظيمها وفنونها يبرز الماضى بالحقيقة من تحت تلك التغيرات و يحول فى الحال ما أوجبته الثورات العنيفة من صور وأشكال .

يقتضى إذاً درس عامل العنصر وعامل الماضى اللذين يُغفل أمرهما عادة لخفائهما ، فهما يؤثران فى نشوء الامم تأثيراً فعلياً . فلو نظرنا الى فرنسا مثلا لرأينا أنه ينطوى تحت الفتن السياسية التى اشتعلت فيها مبدآن ثابتان مشتركان بين الامم اللاتينية مسيران لاعمالها تسييراً متشابهاً وهما : اعتقاد قدرة الحكومة على اصلاح كل شىء واعتقاد سلطان القوانين المطلق . و بفعل هذين المبدأين اللذين سندرسهما فى فصول كثيرة توسع المذهب الحكومى ونمى المذهب الاشتراكى الذى هو كناية عن تفتح ذلك المذهب .

أوصاف عامل العنصر العامة قليلة ، ولذا لم يكن البحث فيه كثير الصعوبة ، فلقد علمنا كثيراً من أحوال سكان الولايات المتحدة ومستقبلهم عندما لاحظنا بعضاً من أخلاقهم الاساسية كالنشاط والاعتماد على المجهود الشخصى والتفاؤل والاحتياج الى الحرية الفردية وتعود الاستنباط الشخصى الذى يغنى عن تدخل الحكومة فادركنا وجوب درس الاميركى مستقلا عن حكومته لا درس هذه الحكومة أولا للاطلاع على حقيقته . فالاميركى لما ألقى حبله على غاربه تقدم فى معترك الحياة غير معول على أحد مقرراً مصير نفسه بنفسه ، وكذلك اذا بحثنا فى الجمهوريات الاميركية اللاتينية الكئيبة العاجزة عن الخروج من الفوضى الضاربة أطنابها فيها نرى عدداً قليلا من الاوصاف النفسية الاساسية مهيمناً على مجرى تاريخها .

يظهر من الايضاح السابق أن معرفة العوامل الكبيرة العامة التى تعين وجهة العوامل الاخرى تكشف القناع ولو قليلا عن روح السياسة . وما خفت الصعوبة بها كثيراً . فبجانب العوامل الدائمة عدة عوامل موقتة يتيه أمام تعقدها كل عقل ومنطق ، فكيف نعين تأثير هذه العوامل الموقتة ؟

يكون ذلك بملاحظتنا أن فى كل دور — عدا العوامل الكبيرة الثابتة التى أشرنا الى تأثيرها — عدداً يسيراً من المبادىء الناظمة التى توجه الافكار والاعمال نحو معنى واحد

على هذا الوجه عين مبدأ القوميات وجهة السياسة فى دور الامبراطورية الثانية و يعين مبدأ المساواة بين المراتب الاجتماعية وجهة الاشتراكية فى الوقت الحاضر الخ

☆
☆ ☆

فمن الملاحظات السابقة نرى أن تكوين كل حادثة يتم بفعل كثير من العوامل المتفاوتة فى أهميتها . فشأن روح السياسة عبارة عن تعيين أهمية هذه العوامل وتمييز الاساسى بينها وطرح الثانوى منها .

ان طرح العوامل الثانوية فى روح السياسة ضرورى كما فى العلوم ولا سيما فى الفلسفة الطبيعية وعلم الفلك ، وهو على نسبة هذه الضرورة كثير الصعوبة ، فما أوجبه تقدم العلوم فى الزمن الحديث اعتبار كل حادثة معقدة الى الغاية . ولم يعد الناس علل الاشياء بسيطة الا لنقص فى وسائل المشاهدة والاختبار عندهم .

وتتجلى فطنة العالم فى ابرازه العوامل الاساسية لاحدى الحادثات وتغاضيه عن الاخرى . فما استطاع (كبلر) أن يوضح نواميسه الا بطرحه الخلل الثانوى ذا التأثير الضعيف فى حركات الاجرام الفلكية . وكذلك السياسى الحقيقى يباشر الامور كالعالم الفلكى متذكراً أن العامل الواحد الذى لا أهمية له فى أحد الازمنة قد يكون مهماً فى زمن آخر .

☆
☆ ☆

أما رأى علماء القرن السابق القائل بوجود نواميس مطلقة فقد أخذ يتقلص بالتدريج ولن تكون مبادىء روح السياسة ثابتة اكثر من النواميس الجثمانية التى تتحول كما هو معلوم ، ثم ان المبادىء السياسية تتضعضع بفعل كثير من العوامل غير المنتظرة على الدوام . فعلى هذا الوجه نرى فى بعض الاوقات اختفاء تأثير بعض العوامل المألوفة ازاء جريان مفاجىء فى الاراء . والرجل السياسى الذى يعرف نظام هـــذا الجريان يقدر على توليده أو تعيين وجهته على الاقل كما استطاع بسمارك ذلك فى سنة ١٨٧٠ .

وجريان الاراء المفاجىء قوة أدبية لا تقدر أية قوة أخرى أن تقف أمامها فى بعض الاحيان . وقد أدرك نابليون ذلك فقال : « ان جريان الامور هو الذى يتكلم واتجاه الرأى

العام هو الذى يقوده وما كنت يوماً سيد نفسى . فالاحوال هى التى كانت تسوقنى فى كل وقت . »

ويبدو سلطان جريان الرأى وتقلبه فى كل صفحة من صفحات تاريخنا الحديث ، فما قصة الامبراطورية الاولى ثم اعادة النظام الملكى ثم الدور الروائى ثم الامبراطورية الثانية ثم حادثة (بولانجيـه) الخ سوى أمثلة على ذلك . و « الامير » الذى حكى عنه (ماكيافيلى) يسمى اليوم « الجماعة » . وتصبح قدرة الجماعة مخيفة عندما تتجه جميع العزائم نحو غرض واحد وإن كان هذا الاتجاه لا يدوم طويلا فعلى رجال السياسة أن يعلموا ذلك

وفى الغالب لا يفقه رجال أحد الادوار ما قد يحدث فى دورهم من جريان فى آراء الشعب . فلم يبصر أحد فى أوائل الثورة الفرنسوية ما قد تؤدى اليه هـذه الثورة من مستقبل رهيب . وفى الثورة المذكورة ظهر مصداق المثل القائل : بينما كانت السفينة تغرق كان السائحون يهنئون بعضهم بعضاً بالغرق . فكانت (مدام دوجانليس) مربية أمراء عائلة (أورليان) تقودهم ليروا هدم حصن (الباستيل) وكان الاشراف ينظرون الى هذا الجريان بعين العطف كما نظر أبناء الطبقة الوسطى العمى الى اعتصاب موظفى البريد الاول. وما كان الناس آنئذ أعلم من رجال الوقت الحاضر بأن الحوادث الفكرية مرتبط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً وأن كل واحدة منها لا تلبث أن تصبح علة لمعلولات أخرى .

نرى من هذا البيان ما على الرؤساء الذين يودون أن يحكموا الناس بحكمة ودراية أن يتجشموه من المصاعب ،وتشتد تلك المصاعب بمقدار تباعدهم عن أفكار الجماعة وخضوعهم لعوامل أخرى تقصيهم عن اكتناهها ومخاطبتها .

ولا يحسن المرء معرفة أبناء طبقة الا اذا كان من تلك الطبقة ، وهذا هو السر فى أن زعماء « اتحاد العمال » الذين هم من طبقة العمال يعرفون كيف يجعلون هؤلاء يطيعونهم كما يجب ، فبما أن أولئك الزعماء لا يبالون بالمبادىء الكبيرة والنظريات الجميلة فى الانسانية يعلمون أن الجموع كذلك لاتعبأ بها وأن هذه الجموع ذات النظر المحدود ترضى من غير جدال بالمعتقدات التى أفرغت فى صيغ وجيزة حماسية وأنها تخضع لاشد الاوامر تجبراً من دون أن ترفع عقيرتها اذا أملى عليها هذه الاوامر رجال أو لجان ذوو نفوذ وتأثير .

وليس عند هؤلاء الزعماء سوى علم وجيز بأحوال النفس . ولكنهم بهـذا العلم الوجيز الملائم لافكار أولى النفوس الساذجة استطاعوا أن يستعبدوا البسطاء . وهم يعلمون

أين يذهبون وماذا يريدون ، ولا يجهلون أغلاط رجال السياسة ، فما أحرى بولاة أمورنا أن يحذوا حذوهم .

*
* *

يتألف من تلك العوامل جميعها — بعيدة كانت أم قريبة ، دائمة كانت أم مؤقتة — ما نسميه « معادلة أحد الادوار الاجتماعية » ، فعلى حل هذه المعادلة حلا صحيحاً يتوقف فى الغالب مستقبل الامة ، والضرورة هى التى تحلها إذا لم يتدخل المشترعون لاخلال العوامل التى توازن سنن الكون بينها .

وقد تبين لنا من عد عوامل التحول فى إحدى الحادثات الاجتماعية تنوع تلك العوامل وظهر لنا أن أكثرها تأثيراً أشدها خفاء . فمن مجموعها تتكون حزمة من قوى خفية تقود مقادير الشعب . فما أشبه الانسان بلعبة تجهل الخيوط التى تحركها .

ومهما يكن سلطان هذه القوى فليس علينا أن نكابدها مسلمين تسليما أعمى . ولو استحوذ مثل ذلك الشعور على البشر لما خرجوا من طور الهمجية الاولى ولا استطاعوا أن يقهروا الطبيعة التى استعبدتهم أول الامر استعباداً قاسياً .

وبهذا نطرق باباً آخر فى روح السياسة . فلو اقتصر روح السياسة على تحقيق الامور لاصبح عبثاً . وعليه نرى لروح السياسة فائدتين أخريين : فائدة كشف العاقبة وفائدة نيل المقصد ، فبهاتين الفائدتين نبطل عمل مفاجآت المستقبل وتأثيرها .

وكيف نصل الى ذلك مع أن العلم يؤيد — كما جاء فى التقاليد الدينية — وقوع الانسان فى حبالة القدر فى كل زمن ؟ سنرى فى فصل أخير أنه يمكن إبطال عمل المقادير بتحليل العناصر التى تتألف منها .

الباب الثاني

العوامل الفكرية في عالم السياسة

الفصل الاول

مصدر القوانين والأوهام الاشتراعية

ينم كثير من الحوادث السياسية على تفتح عدد قليـــل من المبادىء التي تأصلت في النفوس ، واعتقاد سلطان القوانين المطلق هو من أشد هذه المبادىء تأثيراً

وفي فرنسا جمهور كبير من الناس يزعم أنه تخلص من ربقة كل معتقـد ديني وأنه يجحد الالهة ويستهزىء بالخرافات والاساطير ولا يخشى غـير نبوآت المنومين تنويماً مغنطيسياً أو تأثير العدد الثالث عشر ، غير أنه لا شيء أصعب في فرنسا — التي قيل أنها بلاد حرية الفكر — من مصادفة أناس يشكون ولو قليلا في قدرة الدساتير والقوانين ، فكل فيها يعتقد أن النصوص الاشتراعية قادرة على إصلاح حال الشعب الاجتماعية وأنها تستطيع إغناء الفقـــير على حساب الغني والمساواة بين الناس في معايشهم ونشر ألوية السعادة في العالم .

إن المذهب القائل بسلطان القوانين هو المذهب الوحيد الذى يقدسه أصحاب العلوم النظرية على وجه التقريب ، فلو دققنا فى حقائق الامور لرأينا جميع أحزابنا مجمعة على عده مثالها الاعلى . فكل منها يسعى وراء إصلاح المجتمع بقوة النظم والمراسيم ويلح على الحكومة فى التدخل فى حياة الافراد الاجتماعية ، ولا أحد يعلم إذا ساقته المصادفة الى الاجتماع بفرنسى ان هذا الفرنسى متدين أم غير متدين وانما يحق له أن يعتبره حكومياً على كل حال .

واعتقاد تأثير القوانين المطلق من أعظم العوامل فى تاريخنا،فقد كان رجال الثورة الفرنسوية مقتنعين بأن المجتمع يتم إصلاحه بقوة الانظمة ، وما لبثوا أن ألهوا العقل الذى كانت المراسيم تعلن باسمه .

وهنالك أسباب كثيرة جعلت الامم ذات الافكار الدينية النامية تبحث عن الوسائل التى تعالج بها أمراضها الاجتماعية . ومنها أن هذه الامم لما أيقنت أن مطالبة الرب بالمعجزات لا تجدى نفعاً أخذت تطالب بها المشترعين فأحلت بذلك قدرة القوانين محل قدرة الالهة .

والفشل الذى أصاب القوانين التى سنت بمؤتمر شعبي لم يضعضع ايمان الناس بقدرتها ، فقد حافظت على نفوذها الذى ضارعت به مذاهب الاديان ، وهى كالالهة تأمر دون أن تفسر ما تأمر به ، والامر يفقد حرمته اذا فسر كما هو معلوم .

والقول ان القوانين تصلح المجتمع هو كما بينت آنفاً من أعظم الاغلاط التى سجلها التاريخ فقد مات فى سبيله عدة ملايين من البشر ميتة بؤس وشقاء ونالت يد التخريب كثيراً من المدن الزاهرة وغابت عن الوجود دول عظيمة . ومع ذلك يحافظ الوهم المذكور على سلطانه أكثر منه فى أى وقت .

وقد سعى بعض الفلاسفة فى اثبات خطل ذلك ، وما آلوت جهداً فى كشف القناع عن حقيقة الامر فى كثير من مؤلفاتى ولا سيما فى كتاب « سر تطور الامم » ، ولكن ماذا تفعل الكتب فى جموع متقلبة لا تلقى سمعها الى غير زعمائها المشاغبين المداهنين ؟

*
* *

يعتقد المشترع قدرة القوانين الخارقة فتراه يشترع لمعالجة ما خفيت عليه علله من الامراض الاجتماعية الظاهرة . هو يشترع ويسرف فى الاشتراع كلما رأى القوانين التى

وضعها غير شافيـة أو أتت بنتائج مخالفة للمقصود . ثم يشترع فيشتد هيجانه فيستوضح الوزراء ويعين لجاناً لتراقب تطبيق المراسيم ويتدخل فى أدق أمور الادارة بلا ملل . وهكذا يسـير نظامنا النيابى نحو نظام يذكرنا بنظام دور العهد ويثبت لنا أن الامم اللاتينيـة لا تتحرر من استبداد الا لتدخل فى ربقة استبداد آخر وان حكم الجماعات المطلق فيها يحل بالتدريج محل حكم الافراد .

ومن يطالع تاريخنـا يجده مفعما بنتائج مخربة نشأت عن قوانين لم يقصـد المشترعون بوضعها سوى النفع العام . فلقد ظنت حكومة الجمهورية فى ١٨٤٨ أنها أحسنت صنعاً عندما سنت قوانين للعمال وأنشأت مصانع وطنية يكسب منها أبناء البلاد العاطلين عيشهم . ولكن حينما أكرهتهـا مقتضيات الاقتصـاد المهيمنة على إغلاق تلك المصـانع نشبت ثورة داميـة أدت الى قتل كثير من النفوس . ومن نتائج ذلك أيضاً إعادة النظام الامبراطورى ، ومن المصائب التى جرها هذا النظام انكسارنا فى (سيدان) وغزو الاجنبى بلادنا

وما أشأم فصيلة محبى الانسانية ! فبتأثيرهم تسن القوانين الخطرة فى الغالب ، والتدابير لاشتراعية التى أدت الى نتائج منافية لمـا قصده المشترعون لا تحصى . فمنهـا قوانين جوائز الملاحة التى أوجبت انحطاط أسطولنا التجارى كما سيأتى بيانه ، وبفعل المبدإ الذى نعزو به الى القوانين قدرة مطلقة نرى أن نطبق أنظمتنا الخاصة على جميع الامم التى دخلت فى ذمتنا غافلين عن أن هذا النهج سوف يقضى على حياة مستعمراتنا قضاء مبرماً .

واعتقاد اللاتين قدرة المراسـيم على تحويل الامور يسوق المشترعين ـــ بضـغط من الشعب ذى العزائم المتقلبة ـــ الى سن قوانين ثقيـلة الوطأة غير مبالين بمـا فيها من ظـلم وإجحاف . فبعد ان تراءى لصنوف العمال مال اليسوعيين الذى قدر بمليار فرنك اضطر البرلمان إزاء عجيج الغوغاء الى وضع قانون للاستيلاء على هذا المليار . وقد أوجد المشترعون بهذا العمل الوحشى ذى الحيف الفاضح سابقة مروعة فى البلاد ، فلتلق مصادفات الانتخاب مقاليد الامور الى الاشتراكيين الثوريين فى أحد الايام لنرى كيف تعلموا من تلك السابقة نزع أموال بعض طبقات الامة فى سبيل البعض الاخر متعللين بمبدإ قدرة الحكومة المطلق أى مبدإ حق الاقوى .

ولم يتخلص مجتمعنا ولو قليـلا من الفوضى التى اوجبتها مراسيم مشترعينا الا لتعذر تطبيقها فى كل وقت ، فكل قانون يستلزم إيجاد جحفل من الموظفين ليقوموا بتنفيذه ثم

إنفاق رواتب وافرة على هؤلاء الموظفين . ولقــــد ترددت الحكومة فى تكوين جيش مؤلف من خمس مئة ألف مفتش للمحافظة على قوانين العمل . فأقنعت هـذه الاستحالة العددية وحدها صناعتنا من الانحطاط الكبير الذى يؤدى اليه تدخل الموظفين فى أمور المصانع .

ومن جهـة أخرى نرى الحكومة نفسها تعـدل عن قوانين يتعـذر تطبيقها لخرق جميع الناس حرمتها ولان الجرم اذا عم ينقلب الى حق . على هذا الوجه حبطت المراسيم التى وضعت لعرقلة المضاربات الماليـة والشركات المغفلة (آنونيم) وسائر العقود الناشـئة عن التحول الاقتصادى الحديث . .

نستنبط من الملاحظات السابقـة أن الاصلاحات يجب أن لا تسن من قبـل المجالس الاشتراعية وانه يجب على أولى الامر أن يظلوا مكتوفى الايدى إزاء جريان الامور . نعم ان بقاء مشترعى سنة ١٨٤٨ مكتوفى الايدى كان أفيد من وضعهم قوانين مضرة كما وصفنا . الا أن هذه النتيجة لا تطبق على جميع الاحوال . فهنالك قوانين كثيرة النفع اذا صدرت عن ضرورات مهيمنة مستقلة عن ارادة المشترعين .

ومن يود أن يعرف ماذا يجب عمله ومالا يجب عمله فى أمر القوانين فليبحث عن كيفية تكوينها . ولنيل هذه الغاية نشير قبـل كل شيء الى أن الامة لا تقـدر على الانتفاع بدساتير أمة أخرى وقوانينهـا اذا تباينت أفـكار الامتـين ولو كانت تلك الدساتير والقوانين غاية فى الكمال . وعلى ذلك أرى الفقهاء بمحاولتهم إقناع الناس بأن بعض البلاد اقتبست من الرومان حقوقهم وبأن بلاداً أخرى اقتبست من الانكليز دسـتورهم يدلون على قصر باعهم فى علم النفس . واذا حدث أن أمة — كالامة الالمانيـة مثلا — اعتنقت الحقوق الرومانيـة لاتلبث هذه الحقوق أن تصبح مختصة بتلك الامة . وعلى رغم اتخاذ كثير من الشعوب قانون الانكليز الاساسى دستوراً لها لا تتذكر أن أحدها استطاع أن يطبق ذلك الدستور .

٭
٭ ٭

تكوين أحد الحقوق لا يتم الا إذا اجتاز ثلاث مراحل وهى العادة والقضاء والقانون . ولا تكون مداخلة المشـترع مفيدة الا فى المرحلة الثالثـة أعنى مرحلة القانون . وفى الغالب يقتصر القانون على جمع العادات وافراغها فى قالب المواد . وبهذا يتجلى شأنه الحقيقى . فلو دققنا فى قانوننا المدنى — وقد زعم الكثيرون أنه من مبتكرات مجلس الفقهاء الذى كان يرأسه نابليون — لرأيناه عبارة عن عادات فرنسوية جمعت على شكل قانون وأنه الطور

الاخير لا تتحاء بلادنا نحو الوحدة القضائية. أي أنه ليس بالحقيقة قانون الحال بل قانون الماضي.

والعادة تنشأ عن مقتضيات الاجتماع اليومية صناعية كانت أم اقتصادية . والقضاء يعينها والقانون يؤيدها . وما يؤيده القانون فهو طور الحال الاجتماعي. ولما كان نشوء الحضارات — ولا سيما الحضارات الحاضرة — أسرع من نشوء القوانين فالقضاء يتدخل ليعدل هذه حسب ما تقتضيه العادات الجديدة .

وفي البلاد التي يظهر أن القاضي فيها مقيد مكره على مراعاة نصوص القانون في أحكامه يجب على القانون أن يسير فيها مع العادة متحولا بتحولها . وأما البلدان التي يكون فيها القاضي طليقاً كانكلترة فلا احتياج لمس قوانينها . فالقاضي نفسه يراعي في تطبيقها تحول الامور .

والقضاء — وهو يعين العادات — يكون عند جميع الامم أعظم شوكة من القوانين . لان تجدد الاحتياجات الاجتماعية أسرع من تجدد الشرائع والقوانين . فمع أنه لم يكن بين الشعوب من يداني الرومان احتراماً لنصوص الشرائع « نرى القانون الذي أيد في تطبيقه تأييداً قضائياً لم يفرط — كما قال (كرويه) — في تجاوز حد نصوصه كما أفرط في روما ولم تخالف شريعة مكتوبة في الحكم بين الناس كما خولفت شريعتها . وذلك لم يمنع الناس في الوقت الحاضر من عدهم حقوق روما التي تختص بمجتمع ميت نموذج اشتراع عام خالد ! »

ثم ان المجتمع الذي تظل حقوقه جامدة غير متجددة يغيب عن الوجود بسرعة ، وهذه حال لم تحدث قط . حتى ان الشريعة الاسلامية التي عين القرآن حدودها لم تلبث أن تجاوزت تلك الحدود . وكيف تظل الحقوق ثابتة وكل شيء يتغير في أطرافها تغيراً يجعل تطبيقها أمراً مستحيلا ؟ قد يستمر الناس على احترام نصوص الشريعة ولكنهم سرعان ما يكفون عن مراعاة أحكامها ، فقد كان الرومان يمجدون قانون الالواح الاثني عشر دون أن يطبقوها . وكذلك المسلمون الذين يقدسون القرآن يحولون أحكامه بما يأتون به من تفسير وتأويل .

وهكذا يتحول القضاء بتحول العادات مستقلا عن القانون وأحياناً ضد القانون ، وما كان القانون في أي زمن من القوة بحيث يقف أمام العادة . قال الاستاذ (دركيم) « لو طوحت بنا الحياة العائلية الى مسالخة ذوي القربى لما استطاع المشترع أن يحول دون ذلك » ، ولا شيء أفصح من هذا القول ، فأي محكمة تجرؤ اليوم أن تحكم على رجل قتل خصمه في مبارزة بالأشغال الشاقة كما يأمر القانون ؟ ومع أن القانون يحرم الطرح عدل

القضاة عن الادعاء على المذنبة لما رأوا المحلفين يبرءونها على الدوام ، فليس على القضاة أن يلزموا الناس قواعدهم الحقوقية بل عليهم أن يسيروا كما تمليه عليهم مشاعر المجتمع .

ولولا القضاء الذى يسير مع تقلبات العادة لاصبح القانون ظالماً فى نهاية الامر . فالقضاء على الخصوص هو الذى يحرر زوجة النوتى الذى انقطع خبره فى سياحة بعيدة من الترمل الابدى الذى يأمر به القانون عندما يتعذر عليها إبراز وثيقة خطية دالة على وفاة زوجها ، والقضاء أيضاً هو الذى يكره المغوى على ضمان ضرر المرأة التى أغواها وتربية ولدها وان كان القانون يحرم الابوة فى هذه الحال .

بمثل تلك الامور تتضح كيفية تكوين القوانين ويتجلى الشأن الحقيقى للمشترع . فعلى المشترع أن يقتصر على تأييد القوانين بعد ان تظهرها العادة ويعين القضاء حدودها ، وكل قانون يصدر فجأة من غير أن يجتاز هاتين المرحلتين محكوم عليه بالاخفاق .

ولنورد مجلسنا الشورى — الذى يزيد كل يوم سلطة اكثر من ذى قبل — مثالا على حقوق جديدة تتكون الان بفعل العادة وتأثير القضاء . كان هذا المجلس فيما مضى عبارة عن هيئة ادارية ذات واجبات لا اهمية كبيرة لها فصار بالتدريج ذا سلطة تنحنى أمامها جميع السلطات ، إذ أصبح يأتى بأحكام قاطعة غير تابعة للاستئناف فى أمور مختلفة كنقض قرارات الولاة وأوامر الوزارة وإعادة ضباط البحرية المعزولين الى وظائفهم وعزل المأمورين المعينين

وما هو مصدر تلك السلطة ؟ مصدرها العادات التى هى بنت الضرورة والتى عين القضاء حدودها . وما تخيل مجلس الشورى أن يتطاول على بقية السلطات . وإنما الجمهور هو الذى الجأه الى ذلك لرغبته فى تقييد أهواء الوزراء وسائر رجال الادارة ولاشتياقه الى ايجاد قوة تحميه ضد الفوضى العامة . وفضلا عن ذلك تتدرج جميع النظم الديموقراطية الى تكوين سلطات عليا لتكون عنواناً للاستقلال والثبات ، كمحكمة الولايات المتحدة العليا التى يظهر أن مجلسنا الشورى سيكون له ما لها من الشأن بعد قليل من الزمن ، ومما يبرر ما قلناه هنا فى تكوين الحقوق وظهور تلك السلطات ظهوراً غريزياً هو مع انها لا تستند فى قوتها الى نص قانونى ولم يدعمها نظام تكتسب به مالا يتيسر للقوانين المحررة الصريحة من نفوذ وسلطان.

ومثل ذلك يشاهد فى انكلترة أيضاً . ففى هذه المملكة لا تستند مبادىء الحكم الاساسية الى مواد قانونية . وليس فيها قانون يأمر بقسمة البرلمان الى مجلسين وبتفويض سن القوانين اليهما ويجعل الملك يحكم البلاد بواسطة وزراء مسؤولين الخ . وهى مع انها عاطلة من

دستور مكتوب (١) تعد عنوان الحكومات الدستورية ، وقد صارت بالتدريج جمهورية يرأسها ملك ، واذا استثنينا جمهورية الولايات المتحدة رأينا جميع جمهوريات العالم لا تدانيها حرية ، فأبناؤها احرار فى مواظبتهم على الكنيسة ويستطيعون تأسيس جمعيات واشتراء أملاك بواسطتها من غير أن يكونوا عرضة لنزعها من أيديهم .

كل شيء فى انكلترا يناقض مبادئنا فى النظام والعقل والقياس والمنطق ، وتتألف حقوقها من عناصر ومقومات هى غاية فى التباين . قال الوزير (شامبرلن) فى البرلمان الانكليزى « ان أعظم مزية تتصف بها أنظمتنا هو أنها غير منطقية . » فأكرم به من تصريح بعيد الغور لان القوانين اذا استغنت عن قواعد المنطق فلانها وليدة مشاعر ناشئة عن ضرورات مستقلة عن العقل .

ومن سوء الحظ بقاؤنا بعيدين من مثل هذه الافكار غير منتفعين بالتجارب ، ولقد أدت أوهامنا فى تكوين القوانين ووضعها الى نشوب ثورات كثيرة وتخريب عدة مدن وإهراق دماء غزيرة ولا احد يستطيع ان ينبئنا بما تكلفنا فى المستقبل .

ولا شيء يدل على دنو الوقت الذى تتبدد فيه تلك الاوهام ، بدليل انها لا تزال تجد لها بين أولى النفوس النيرة من يدافع عنها. فقد صرح أحد أقطابنا السياسيين فى مقدمة كتاب نشر حديثاً « ضرورة تنظيم المجتمع تنظيما سياسياً اجتماعياً حسب مايمليه العقل والقوانين. » ولم يعبر هذا القطب فى كلامه عن غير ما هو سائد لنا منذ قرن من أباطيل متأصلة سببت نشوب ثورات مخيفة فى بلادنا . أفلم يحن الوقت الذى نعدل فيه عن الاشتراع والتنظيم والاصلاح باسم ذلك العقل الاعمى الذى لا يعرف مقتضيات الطبيعة ويجهل مقتضيات الاقتصاد وكل ضرورة ؟ وهل نعلم يوماً أن المجتمعات لا تتجدد كما يرغب ولاة الامور؟ فالحقوق لا تصنع وانما هى تصنع نفسها. وهذه كلمة وجيزة ينطوى تحتها تاريخ الحقوق جميعه

---

(١) هذا الكلام يلق الدهش فى قلوب الذين لا يرون لغير القوانين المكتوبة قيمة. وقد ساقتني المصادفة الى الاطلاع على خطبة ألقاها الوزير الانكليزى المستر (اسكويث) أمام مجلس اللوردات فى اليوم الأول من شهر أيلول سنة ١٩٠٩ فرأيت فيها ما أدعم به صحة قولي واليكه :

« نسير منذ قرون كثيرة حسب دستور غير مكتوب . أجل عندنا أنظمة مكتوبة خالدة كدستور (ماغنا كارتا)، ولكننا لو نظرنا الى ما في بلادنا من حرية وعادات دستورية لرأيناها لم تقترن حتى الآن باستحسان خطى قاطع من قبل الملك أو مجلس اللوردات أو مجلس النواب . فنحن نعيش تحت سلطان العرف والعادة والمواثيق التى تمت شيئاً فشيئا فأصبحت محترمة لدى الجميع على مر الزمن . »

الفصل الثانى

مساوىء القوانين

نرى البحث فى نتائج بعض القوانين التى نجمت عن أهواء المشترعين يثبت بياننا فى الفصل السابق .

جاء فى كتب الاقاصيص أن (سرخس) ساط البحر عقاباً له على تدمير سفنه وتحذير له من العودة الى مثل ذلك مرة أخرى . ومع أن أبناء زماننا يعدون أفكار هذا الملك الشهير صبيانية فهى عندى غير بعيدة من افكار مشترعى الوقت الحاضر الذين يزعمون أنهم قادرون على تبديل عوامل النشوء فى المجتمعات كما يشاؤ ون . أقول ذلك لاننى أرى هذه العوامل ثابتة ثبات نواميس النشوء الجثمانى ، وهى وان خفت علينا فى أغلب الاحيان نكره على معاناتها معاناة مطردة ، ومن العبث أن نحاول مقاومتها بقوانين يدل وضعها على جهلنا حقائق الامور .

والمستقبل وحده هو الذى سيثبت لنا مقدار ما فى مساعى الاشتراكيين الثوريين والمشترعين فى تجديد المجتمع من أخطار . فأوهام مثل هذه لا تفقد سلطانها الا يوم تظهر نتائجها . فلقد تطلب اثبات أخطار النظام الامبراطورى المطلق قهرنا فى معركة كمعركة (سيدان) . وكذلك مهالك الاشتراكية المطلقة لا تبدو للعيون الا بمثل هذه التجربة .

*
* *

عندما بحثنا فى الاوهام الاشتراعية بينا مقومات الحقوق العامة وكيفية تكوين القوانين بياناً موجزاً فأثبتنا كيف تنشأ القوانين عن العادة وكيف تتحول تحولا تدريجياً بفعل القضاء حسب الاحتياج ، وقد بدا لنا حينئذ أن القانون عنوان موقت لحقوق تتجدد بلا انقطاع . فالحياة الاجتماعية — خلافاً لما يتصوره الاشتراكيون أرباب العلوم النظرية — لا ينتظم أمرها بمراسيم يقترحها الخياليون بل بتأثير مقتضيات الاقتصاد وأخلاق الشعوب .

نعم قد يحتج أرباب هذه العلوم علينا بقولهم إن كثيراً من القوانين — منذ عصر (صولون) حتى أيام (نابليون) — خرجت بغتة من دماغ مشترع واحد، ولكن لو أنعمنا النظر فى القوانين المذكورة — كقانون نابليون مثلا — لظهر لنا أنها بالعكس كناية عن التوفيق والجمع بين عادات أثبت الاستعمال أمرها. فالقوانين التى يقال إنها حديثة لا تفعل بالحقيقة سوى تأييدها عادات وجدت مقدماً. وهى لا تأتى بشىء جديد عندما تقضى الضرورة بالزام أقاليم مفترقة ذات حقوق خاصة قوانين عامة، ذلك ما وقع لفرنسا فى أواخر القرن الثامن عشر ولالمانيا وسويسرة فى السنين الاخيرة. فهذه الممالك الكبيرة أفرغت فى قالب واحد ما تعدد من قوانين الاقاليم التى كانت متباينة فى البداءة فتقاربت بعد ذلك ثم وحدت بينها المصالح المشتركة فى نهاية الامر.

ويظهر أن أصحاب العلوم النظرية انتحلوا لانفسهم منذ أخذت الاشتراكية الثورية فى الانتشار مبدأ حقوقياً يختلف عما ذ رناه. فعندهم أن القوانين تقدر على تجديد المجتمع. وهم يعزون اليها ما كان الناس يعزونه الى الالهة من قدرة خارقة للعادة.

ولا يدافع عن مثل هذا المعتقد الا فى زمن كالذى كان علماء اللاهوت يقولون فيه إن الالهة ذات التأثير المتصل فى أمور البشر تبدى أوامرها بواسطة الملوك. واليوم لا يبالى المذهب الاشتراكى بسنن الكون. فرسل هذا الايمان الجديد يجهلون مقتضيات الاجتماع كما جهل قساوسة الالهة القديمة.

ونحن خلافاً لتلك المذاهب الوهمية نرى أهم الحوادث التاريخية صدرت عن علل بعيدة صغيرة مرتبط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً. فمن تجمع العلل الصغيرة تخرج اكبر النتائج. وهذه العوامل المعدودة بالالوف والخافية لصغرها تتجه نحو جهة واحدة حسب نواميس دقيقة كالتى تجعل أحد الاجرام يسير على خط معين أو كالتى تتحول بها ثمرة البلوط الى سنديانة. وبعد ان يقع انتحاء العوامل الصغيرة اليومية على هذا الوجه تتولد منها مجار ضعيفة سهل تحويلها فى بدء الامر صعب اعتراضها عندما تزيد قوتها فى آخره. وحينئذ تتكسر الحواجز الاجتماعية وينقلب تطور الشعب الى ثورة.

وشأن العقل فى جميع الانقلابات التى حدثت ببطء هو كما بينا ضعيف الى الغاية. وقد اطلع على ذلك قادة التاريخ الحقيقيون — وأعنى بهم مؤسسى الديانات العظيمة والدول الكبيرة — فلم يسعوا فى التأثير فى عقول البشر بل فى نفوذ مشاعرهم وسلب قلوبهم.

بيد أن دور البطولة المذ ور أوشك أن يغيب عن الوجود . فطور العلم والصناعة الذى دخل الناس فيه يوجب حلول شرائع مقتضيات الاقتصاد محل الشرائع الدينية التى اصبحت عاجزة .

وينبغى أن لا يبعث المبدأ القديم القائل إن الشعوب تسير حسب أهواء الالهة على شكل اشتراكى . فأكبر وهم استحوذ على رجال الاصلاح هو تصورهم أن للقوانين مالم نعترف به الان للالهة من قدرة سحرية . وقد أعماهم خيالهم فى تجديد المجتمع عن رؤية مقتضيات الطبيعة ، ولكن إذا كانت الالهة القديمة ترى لنا عذراً فى ضعفنا فترحمنا ، تقسو سنن الطبيعة علينا ولا تعفو عنا . والخطر كله فى مقاومتها بمراسيم موضوعة ليس لها بالحقيقة تأثير اكثر من تأثير الخطب فى وقف القاطرة .

ذلك هو العمل الذى نحمل أنفسنا على إتمامه بقوانين يضعها كل يوم مشترعون غافلون . والتجربة وحدها هى التى تؤثر فى أولى النفوس المتهوسة . وها هى التجارب تتكاثر فنشاهد نتائج ما نكدسه من النظم والتدابير لمعالجة نقائص المجتمع ونرى هذه التدابير لم تفعل سوى زيادة الامراض التى نود الشفاء منها لسعيها فى عاقة جريان الامور الطبيعى .

*
* *

يتطلب عد تلك القوانين المضرة وبيان انعكاسها مجلداً كبيراً ، فلذا اقتصر على ذكر بعضها بايجاز يلائم هذا الكتاب . ولا أبحث هنا فى مقاصد المشترعين التى لا ريب فى حسنها بل فى نتائج أعمالهم :

قوانين جوائز البحرية التجارية . — تكلف هذه القوانين بيت المال واحداً وأربعين مليون فرنك كل سنة . غير أنها تعجل انحطاط بحريتنا وتروج الشركات الالمانية . وانى أنقل التفصيل الاتى من كتاب حديث نشره (جول هوره) وبحث فيه عن المانيا . والتفصيل المذكور كناية عن حديث وقع بين المؤلف وبين الموسيو (بلاته) مدير شركة (نوردوشر لويد) التى هى واحدة من الشركات الثلاث المعدودة اكبر شركات العالم . قال (جول هوره) :

« سألت الموسيو (بلاته) : كيف توضحون لى سبب توقفنا وتقدمكم ، فأنتم ذوو

اطلاع على نجاح المرافىء الالمانية الخارق للعادة ؟ علة ذلك نظام الجوائز المالية التى تمدون بها ملاحتكم . فهذا النظام يؤدى الى وقف العمل وعدم المثابرة عليه . والمضحك فيه جعله الالمان والانكليز يستفيدون من الدراهم التى توزعونها بمقتضاه . وليس على أن اصرح بذلك ، لان ابناء وطنى ينتفعون من زلاتكم . ولكن بما انكم تسألوننى رايى اقوله لكم بصدق وامانة . »

ثم قال الموسيو (بلاته) : « تعلمون ان الحكومة الفرنسوية تدفع جوائز الى اصحاب البواخر حسب المسافة التى تقطعها وان كانت غير مشحونة ، ومعنى ذلك انها تطوف حول الارض على حساب الميزانية الفرنسوية . »

وقد ذكر الموسيو (بلاته) ان بواخر افرنسية ترفض الشحن طمعاً فى اكتساب الوقت . لانها ترى الغدو والرواح فارغة افيد لها من ان تكون مشحونة . وعندما اشار الموسيو (هوره) الى ان يد التعديل اصابت قانون الجوائز ، بين له الموسيو (بلاته) انه لم يقع بالحقيقة اى تبديل ، إذ يكفي لنيل الجائزة حسب ذلك التعديل ان يوسق ربع السفينة .

ومما المع اليه الموسيو (بلاته) ان بعض الالمان طلبوا جوائز للمساواة بينهم وبين من ينالون جوائز فى فرنسا فرفض مديروالشركات الكبيرة ذلك « لانهم يعدون الجوائز قضاء على ملكة الاستنباط والنشاط فى المانيا وانذاراً بزوال بحريتها . »

قانون سنة ١٩٠٠ الذى يحدد عمل الصبيان فى المصانع . — نتائج هذا القانون هى : تناقص التخرج فى الصناعات وإحداث ازمة خطرة فيها وتضاعف الجنايات التى يرتكبها الصبيان . وقد ذكر الموسيو (طورون) احد اعضاء مجلس الشيوخ تلك النتائج فى تقرير قال فيه « إن تطبيق هذا القانون جعل ارباب العمل يطردون صغار العمال » ، وبعد ان اشار الى ان عدد الاحداث الذين اصبحوا لصوصاً تضاعف بعد نشره — إذ اصبح ٢٢٧٣ بعد ان كان ١١٧٤ — بين « ان من اسباب ذلك نظام العمل الذى اقصى الاحداث عن المعامل فطرحهم على قارعة الطريق معرضين لكل خطر وعيب . »

قانون امتياز مستقطرى المسكرات . — يمنح هذا القانون ارباب الحدائق حق استقطار ما يلزمهم من المسكرات من غير ان يدفعوا ضرائب الى الحكومة ، وقد اوجب

ذلك حرمان بيت المال من مئة مليون فرنك كل سنة و زيادة معاقرة الخمر فى العائلات التى لا بد من امتناعها عن ابتياع المشروبات الروحية من الباعة لولا هذا القانون

قانون نزع أملاك المحافل الدينية . — مع أن الحكومة كانت تطمع فى دخل مليار فرنك من نزع تلك الاملاك لم تنل غير عشرة ملايين . ثم ان القانون المذكور ألجأ الحكومة الى انشاء عدد كبير من المدارس والمؤسسات الصحية فصارت تنفق كل سنة مئات من الفرنكات بدلا من مليار الفرنك الذى كانت ترجو قبضه ، وقد أدى هذا القانون المنافى للادب والذوق الى نتائج اجتماعية مضرة كايراثه سخط ألوف من أبناء الوطن وتقويته للمبدإ الاشتراكى القائل إن الحكومة تستطيع بوضعها قانوناً أن تستولى على أملاك الافراد ومصانعهم . وأوجب نزع أملاك إحدى طبقات الشعب غيظاً فى الامم الاجنبية وتشويهاً لسمعتنا ، وسنعود الى هذا الموضوع فى فصل آخر .

قوانين جوائز صنع السكر . — ألغيت هذه القوانين بعد ان كلفت بيت المال عدة ملايين من الفرنكات . ومن نتائجها زيادة إنتاج السكر فى بلادنا زيادة غير طبيعية وبيع صانعيه له فى فرنسا بثمن اغلى خمس مرات مما كانوا يبيعونه به فى انكلترة وجمعهم ثروات وافرة من المستهلكين .

قانون حرية فتح القهوات والحانات وبيع المسكرات . — لم يكلف هذا القانون الدولة شيئاً فى الظاهر ، ولكنه أخر الوطن بتأديته الى زيادة تعاطى المسكرات وتفشى الامراض ونهك القوى .

قانون ابتياع سكك الغرب الحديدية . — بما أن هذا القانون حديث العهد لا تبدو نتائجه بجلاء قبل بضع سنوات . وانما نذكر الان أن موظفى تلك السكك قرروا فى اليوم الثانى من تاريخ وضعه مطالبة الحكومة بزيادة رواتبهم ، ومع أنهم لم يظفروا بعد بمبتغاهم زادت نفقات إدارة تلك السكك خمسين مليوناً سنة ١٩١٠ كما جاء فى تقرير الموسيو (دومر) . هذه فاتحة الامر . ويمكننا أن نتنبأ بعاقبة مصلحة كان يديرها أفراد غير رسميين فصار يديرها موظفون حكوميون من الاطلاع على ما يقع فى بلدية باريس . قال الموسيو (دو لومبر) حديثاً : « فى كل مرة تحتكر بلدية باريس مشروعاً ينقص دخل ذلك المشروع وتزيد رواتب مستخدميه ونفقاته الثانوية ، أولم نر نفقات المرض فى بعض المشاريع

التى تحتكرها تلك البلدية زادت ثلاثة أضعاف ما كانت عليه قبل احتكارها وجعل رجالها موظفين رسميين ؟ »

قوانين معالجة أزمة الكروم فى جنوب فرنسا . — تثبت هـذه القوانين أن المشترع لا يقدر على مكافحة مقتضيات الطبيعة ، واليك البيان : زاد سكان جنوب فرنسا إنتاج الخمر بعد أن أفرطوا فى غرس الدوالى . وماذا عليهم أن يفعلوا إزاء هذه الحال ؟ يجب أن يقتدوا بزراع الفوة الذين عدلوا بعـد اكتشاف حمرة الفوة عن زرع الفوة غارسين فى مكانها أشجاراً أخرى ، ومن حسن الحظ أن الناس أيام اكتشاف تلك الحمرة كانوا قليلى الاتكال على الحكومة فلم يلجأوا اليها لتقضى على صنع حمرة الفوة الرخيصة فى سبيل عروق الفوة الغالية ، والان لما تحول الناس بانتشار المذهب الحكومى بينهم طالب سكان الجنوب الحكومة بابتياع ما لم يشتره الجمهور من الخمر ، أى منحهم جوائز تعويض فأجابتهم الحكومة الى رغباتهم . وسيظل تاريخ أزمة الجنوب مثالا خالداً على أفكار أمة أينع المذهب الحكومى فيهـا . وبهذه المناسبة أذكر أن أزمة كتلك لا تقع فى انكلترة وأميركا حيث تعود الافراد الاعتماد على نشاطهم الشخصى لا على الحكومة .

قانون العطلة الاسبوعية الالزامية . — أوجب هذا القانون زياة عشرة فى المئة فى أثمان الاشياء وارتبا كا فى الصناعة والتجارة حمل الحكومة على ايجاد طرق لتخفيف وطأته ، ولو دققنا فى الواقع لرأينا العمال هم الذين يتضررون منـه . ففى كل سنة تحـدث فى اكثر الصناعات بطالة طويلة يستريح العمال فى أثنائهـا . ثم ان القانون المذ ور يجعـل العمال يخسرون راتب أيام الاحاد التى يقضونها فى الحانات . وقد سمعت بعضهم يقولون إنه يكلفهم نقص أربعمئة فرنك فى دخلهم السنوى .

قانون تقاعد العمال . — سيكون هـذا القانون الذى لم يطبق تماماً منبع اضـطرابات كثيرة لرفض أكثرية العمال إياه فى المستقبل . فجمعيات التضامن التى أسسها الافراد كافية لمنح العمال رواتب تقاعد . وكل توفير فى صناديقها يفيد ولا يذهب شىء فيها سـدى . وهى بعكس إكراه المشترع أرباب العمل والعمال على دفع مبالغ وافرة الى بيت المال أى تكليفهم ضرائب مثقلة كاهل صناعتنا على غير جدوى . جاء فى جريدة الطان : « يجب على العامل أن يبلغ الخامسة والستين من عمره لينال راتب تقاعد أى لاسترداد ما أداه الى بيت المال. فموته قبل هذه السن يحرمه ما ادخره . فيالها من حيطة طائشة ! ثم ان القانون يأمر أرباب

العمل بطرح المقدار المقرر من رواتب العمال خوفاً من أن يجتنب هؤلاء تأمين نفوسهم على رغم أنوفهم . وفى ذلك منبت لتنازع الطبقات ومصدر للتمرد والمقاومة فى كل بلد »

*
* *

نكتفى بذكر ما عددناه من القوانين و إن أمكننا أن نعد قوانين كثيرة أخرى ، و إنى أضيف الى النتائج التى أشرت اليها نتيجة أخرى وهى إمعان الناس فى مقت النظم النيابية كما سأبين ذلك فى فصل قريب . فالمريض لا يعفو عن الطبيب الذى لا ينفعه دواؤه

ولا أرى ما يمنعنا من القول إن اكثر القوانين التى زعموا أن حب الانسانية هو الذى أملاها على المشترعين القصيرى النظر أدت الى نتائج مضرة مخربة كانت محدودة الفعل أول الامر فأصبحت عامة شاملة فى هذه الايام كما دلت عليه الاحصاءات الموثوق بها وماتوجبه فى الصناعة من البوار تقع وطأته على العمال الذين تهددهم البطالة والمزاحمة الاجنبية اكثر من ذى قبل . وسوف يذهبون ضحيـة سنن الطبيعة التى لا يدرك أمرها المشترعون العمى .

ولم تنحصر مساوىء تلك القوانين المضرة فى ما بيناه . فاليك ماقاله (پول دولومبر) « لا تورث الضرائب العظيمة — التى هى بنت ما يسمونه السياسة الاجتماعية — النفوس سكوناً ، وهى تؤدى الى الافلاس قبل أن تهدىء ثائر الاشتراكيين المشاغبين . فالنواب الذين هم ولدان الرأى العام لا يفعلون سوى ما يؤيد خطلها . » وقال الموسيو (جول رينه) : « إن أصحاب النفوس المادية الذين يسخرون من (لورد) وخوارقها ينتظرون من الحكومة خوارق سياسية واجتماعية أغرب من خوارق (لورد) . فهم يعتقدون قدرة البرلمان على تحويل الماء الى خمر والنحاس الى ذهب والخبز الى حلوى والشقاء الى سعادة . وعندهم أن وقوع هذا التحويل العجيب اذا تأخر فلابطاء مجلس الشيوخ أو اهمال مجلس النواب ، ولو اتى النواب والشيوخ بشىء من العناية والسرعة فى سن القوانين والنظم لتبدلت فرنسا فى الحال ! »

ونحن نقول كما ان الاله المشترى اعمى فى القرون القديمة بصائر من اراد هلاكهم ستنقلب نتائج القوانين التى وضعت فى الوقت الحاضر ضد واضعيها بالتدريج . والتاريخ حافل بمثل هذا ، فالذهن البشرى كما بين (بوسيه) : « قلما يحجم عن السعى نحو غايات تتجاوز حد طاقته وتناقض مقاصده »

الفصل الثالث

شأن الخوف فى عالم السياسة

مع اعترافى بقلة معرفتى بأمور السحر وخوارق العادات أرانى لا أقحم فى الموضوع اذا صنفت الاوهام و بحثت عن علل تكوينها . و يجب لاحكام هـــذا التصنيف تحديد ما لكل وهم من السلطان الخاص

الاوهام أساس اكثر حوادث الماضى العظيمة . و يدلنا درس التاريخ درساً دقيقاً على انه عبارة عن مساعى الامم والشعوب فى خلق أوهام وتبديد أخرى ، وأن السياســـة فى الماضى والحال لم تكن سوى تنازع الاوهام . ولكن الاوهام غير متساوية فى قدرتها ، فهى متسلسلة المراتب تسلسلا يدفعنا الى تصنيفها .

وعلى رأس تلك السلسلة عدد يسير من الاوهام ذو قوة لا يهيمن عليها غير الزمان وهى التى يأتى بها مؤسسو الديانات العظمى . فهؤلاء المؤسسون يملون من قبورهم تعاليمهم على ملايين كثيرة من البشر . وفى سبيلهم أقام الناس مدنيات نضرة وتنازعت الشعوب بعنف ، وقتل حديثاً ثلاثون الف أرمنى فى بضعة أيام .

و بعد تلك الاوهام الرهيبـــة تجىء الاوهام التى يورثها الابطال النفوس . فبعضها يؤدى الى اختلاق خرافات وأساطير يتجلى بها مثل الامم الاعلى . و بعضها ما يكون من القوة بحيث يؤثر فى سير الحوادث البعيدة منها تأثيراً محموداً أو مشؤوماً . ومنها ذلك الوهم الذى القاه نابليون فى الامة فأوجب صعود ابن أخيه على عرش الامبراطورية وانكساره فى معركة (سيدان) .

وفى الطرف الثـانى من تلك السلسلة نرى أوهاماً صغيرة لاغية موقتة ذات عربدة وضجيج . فهذه الاوهام ترعب أحياناً ذوى الهلع والجبن وتزول كفقاقيع الصابون عندما تمس بشىء من الجسارة والاقدام .

تنشأ تلك الاوهام الصغيرة الباطلة عن وهم أبدى ثابت أى الخوف . فالخوف حافظ

على تأثيره منذ بدء العالم والزمان لم يلاشه بعد . ولا أدرى هل أوجد شبح الخوف الالهة كما ذكر الشاعر الكبير (لوكريس) . وانما أعتقد أن الخوف لو لم يهيمن على الشعوب وقادتها لتغير مجرى التاريخ ، وأنه لو لم يستحوذ على البرلمان لحل النظام الذى لا يعيش مجتمع بدونه محل الفوضى المخيفة التى نخوض غمارها .

٭٭٭

يعرف أقطاب السياسة تأثير الخوف وما يحدثه فى النفوس من الاوهام فيقدرون بدهائهم على الانتفاع به . وأما قصار النظر من الساسة فانهم يكابدونه . وقد أظهر لنا تاريخ اعتصاب موظفى البريد كيف يستولى الخوف على أصحاب الامر والنهى المجردين من العبقرية فأثبت لنا أن الاوهام تكثر وتنمو عندما يغضى عن كبحها وأنها تتبدد وقتما تمتد اليها يد قادرة على صدمها .

كان الوهم الذى أوجبه موظفو البريد صغيراً فى بدء الامر ولا شىء آتئذ أسهل من إزالته ، وقد أيد الحادث نفسه صحة القول الذى أذعته فى مقالة نشرتها فى (الاوبينيون) غير أن الحكومة التى هالها سلطان الخوف لم تلبث أن خضعت خضوعاً مخزياً لوكلاء موظفى البريد الذين صرحوا على رؤوس الاشهاد « أن الوزراء تضرعوا اليهم أن يعودوا الى أعمالهم . » ولم يخل ذلك التذلل من فائدة فى آخر الامر . فلما دهش موظفو البريد من القائهم الرعب فى البرلمان والقضاء والجيش اعتقدوا أنهم لا يقهرون فارادوا الاستفادة من ذلك فقرروا القيام باعتصاب جديد متعللين بأحد الاعذار . ولكن لما كان الاذعان لنقابة البريد فى هذه المرة يعنى تسليم مقاليد أمور فرنسا فى المستقبل اليها ، وجب الدفاع إزاء الاعتصاب المذكور ، وقد دوفع ضده فزالت نفاخة الصابون عند أول صدمة وزال بعدها وهم الاعتصاب العام الذى يخافه الوزراء كثيراً .

دل الغالبون والمغلوبون بذلك على جهلهم معالجة الاوهام فارتكبوا خطايا نفسية كثيرة منها : خطيئة اذعان الحكومة أول مرة . وخطيئة موظفى البريد الذين أعماهم نجاحهم الاول فنسوا أن مثل ذلك النجاح لا يعاد ، وأن الفشل بعد النصر لا يلاءم صدعه ولا يرقع وهيه ، وخطيئة أعضاء نقابة اتحاد العمال الذين لم يقتصروا على تحريك شبح الاعتصاب العام فأعلنوه فعلا فكشفوا الغطاء عن عجزهم . وكأنا بجميع

اولئك يطلبون بلسان الحال الى المنجمين إطلاعهم على أن الاشباح القوية فى الظلام البهيم ينهزم سلطانها امام جيش النور .

علمنا فشل اعتصاب موظفى البريد والاعتصاب العام الذى أمرت به نقابة اتحاد العمال فائدة المقاومة ودلتنا قصة ذلك الفشل المخزى على أن الاوهام تنمو وتزيد عند ما يشعر أصحابها بأنهم مرهوبو الجانب . وقد تحولت لهجة موظفى البريد فى تلك الاثناء تحولا جالباً للنظر حافلا بالمعارف الفكرية التى يجب على أولى الامر أن يفكروا فيها كثيراً . فقد كان للحكومة شيء من الاحترام عند اولئك الموظفين فى بداءة الاعتصاب الاول . ولكن لما خضعت الحكومة لهم فتوهموا بأنهم ذوو قدرة لا تقاوم تغيرت لهجتهم فأصبحوا بغتة ثوريين غير وطنيين وانضموا الى نقابة اتحاد العمال التى تعلن أن غايتها تقويض دعائم المجتمع . والقارىء يستطيع أن يقدر ذلك من العبارة الاتية التى اقتطفناها من حديث وقع مع أحد الوزراء وهى :

« لم يلق موظفو البريد خطباً ثورية فى اجتماع عام كالتى ألخصها . أولم يدع أحد هؤلاء الموظفين فى أحد الاجتماعات العامة الى « ضرورة العمل الشديد المشترك ضد أرباب العمل ورؤوس الاموال والسلطات العامة » ؟ وهل تدرون العهد الذى قرروه فى الاجتماع المذكور ؟ «لقد تعاهد المجتمون على نشر المبادىء المنافية للتجنيد الالزامى وعلى هدم معاقل رؤوس الاموال وخضد شوكة السلطات العامة . »

***

ضعف الحكومات هو سبب زيادة الفوضى بين الجموع . فهل نستخرج فى آخر الامر عبراً من الدروس الصارمة التى كثر تكرارها ؟ وهل تبدى الحكومة يوماً ما شيئاً من النشاط والشدة ضد العصابات الصغيرة الغضبى التى سمح لها باسم حرية الفكر أن تنشر بين أفراد الشعب مبادىء التخريب والحرق والعصيان وتقويض أركان المجتمع ؟

على أن زجر أولئك العصاة يصعب كل يوم . ومن العبث أن يحكموا بمختلف العقوبات ، إذ يصفح عنهم على الفور . ففى اليوم الثانى من انتهاء اعتصاب موظفى البريد اقترح بعض النواب الخائفين صدور عفو شامل عن المردة فاستطاعوا أن يحملوا كثيراً من النواب على الاقتراع معهم . وانى أتصور أن وجوه هؤلاء احمرت بعد ذلك حياء من جبنهم وصغر نفوسهم .

زعماء الوقت الحاضر كثيرو الخطر بما يسببونه من الحوادث والافعال و بما يبذرونه فى نفوس الشعب من المبادىء المؤدية الى نشوب ثورات عندما تنضج هذه المبادىء . ومن كان فى ريب من ذلك فليتذكر دور (الكومون) الذى أوجب حرق قسم من العاصمة ، ليرى ما تؤول اليه الجماعات عند ما تحركها الخطب الخادعة . إذاً لننصح أولى الامر بالدفاع وان كنا لا نأمل أن يعملوا بما تقتضيه هذه النصيحة لهيمنة شبح الخوف عليهم هيمنة عظيمة .

والخوف ينمو فى أدوار الفتن على الخصوص . فهو الذى يحول فيها أبناء الطبقات الوسطى المسالمين الى وحوش ضارية . وما الذى جعل (كاريه) يغرق من يشتبه فيهم و يملى على (فوكيه تنفيل) تهمه وشبهاته غير الخوف ؟ فسرعان ما أمعن (فوكيه تنفيل) المشتهر بحلمه فى العهد السابق فى ذبح الناس عندما ألقى الخوف عليه جرانه . وقد بلغت القسوة فيه مبلغاً دفعه الى فصد ضحاياه لزيادة الرعب فى قلوبهم قبل فصل رقابهم

لم نقطع البرزخ المؤدى الى الثورة بعد . فلنرج على رغم وعيد بعض الاشتراكيين عدم اجتيازه ، ولنعلم أن الطريق التى يقود اليها شبح الخوف زلقة لاترجع الى حيث تبتدىء

واليوم يقتصر شبح الخوف الرهيب على جعل الحكومة تسن اكثر القوانين عقما وأشدها ضرراً فى مستقبل الصناعة . وليس عليه لقتل الصناعة سوى تحريض بضعة مشاغبين أغونهم صيغ ومبادىء لا تلائم المنفعة العامة . وهل نجد من بين كل مئة الف ناخب واحداً تمنى اشتراء سكك الغرب الحديدية مثلا ؟ قلما يبالى الناخب بالقوانين التى هى وليدة المبادىء ، وهو لا يهتم بغير منافعه المباشرة . واذا انتخب فانه ينتخب الاشخاص دون ان يعبأ بمبادئهم وآرائهم .

ونذكر بين العوامل المؤثرة ايام الانتخابات النيابية الوعود ولفظ النظام والصيغ السحرية كمناهضة رأس المال المرذول وتأييد مبدأ نزع الملكية الخ . فهذه المعبودات التى تم صنعها فى الأندية واللجان والنقابات والحانات من الأمور التى تلقى فى النفوس رعباً لا يجرؤ معه على صدمها أحب الخطباء الى الشعب

بيد أن تلك الصيغ عبارة عن كلام فارغ لا قيمة له . فالرجل المطلع على روح الجماعات و إن كان يكررها أحياناً لا يطبقها أبداً . وهو يعلم أن الجموع تخضع لأحكام منطق المشاعر الذى لاتأثير للمنطق العقلى فيه و أنها و إن هتفت لبروتس لقتله (يوليوس قيصر) لم تلبث ان ارادت الحاق الاول بالثانى

* * *

يعلم أكابر الزعماء كنه الروح الشعبية فيعرفون كيف يعالجون مفاجآتها . وهم على عكس بسطاء الساسة الذين يصبحون حيارى فى أثناء تقلباتها فلا يفعل منطقهم العقلى اللاتينى والخوف ينخسه سوى حملهم على وضع قوانين عريقة فى الوهم منذرة بالبؤس مهددة صناعتنا وتجارتنا وثروتنا بالخراب

وقد أوجبت السياسة التى أملاها شبح الخوف وضع لائحة فى رواتب تقاعد العمال. ومع علم كل نائب تعذر تطبيقها لتطلبه إنفاق ثمانمئة مليون كل سنة ، اقترع لها مجلس النواب وهو يرى مجلس الشيوخ سيصحح خطأه . قال (دولومبر) : « إن رواتب التقاعد الالزامية التى اقترع لهـا مجلس النواب عبارة عن انهيار مالية الدولة وقضاء على الصناعة الوطنية . »

شبح الخوف رهيب الى الغاية . ويشتد رهبة عندما ينضم اليه شبح الحقد وشبح الحسد ، وهذه الاشباح الثلاثة هى التى تدير سياستنا فى الوقت الحاضر . ويتجلى تأثيرها فى لائحة ضريبة الدخل . والمضحك فى وضع تلك اللائحة هو الزعم بأن الولوع بالانصاف وحب الغيرهما اللذان أملياها . فكل يعلم أنه لم يتخلص من حكم تلك الضريبة أحد وإذا تخلص فباقتراف كثير من الظلم والاجحاف .

حقاً لم يكن لحب العدل شأن فى فرض ضريبة الدخل . وإنما استعانوا بشبحي الحقد والحسد على جعل الناس يعتقدون أن الذين سيدفعونها هم خمسمئة ألف شخص . ثم جاء شبح الخوف فحمل اكثرية النواب الساحقة على الاقتراع لها .

غير أن الاشباح تخاف النور كما بينت آنفاً . فلم يلبث الجمهور أن ادرك مقدار الحيف والفقر اللذين يلحقانه من جرأء إطاعة اقلية اشتراكية متعصبة مشاغبة غاظها إثراء عدد يسير من ارباب الصناعات . ولماذا يتمسك الحزب المتطرف بضريبة الدخل هذا المقدار ؟ وهل محبة البلاد والانصاف والانسانية هى التى توحي اليه ذلك ؟ واأسفاه ، إنه يوعظ بمثل هذه المشاعر دون ان يكون لها مقام فى قلوب الواعظين . وقد بين العالم النفسى المدقق (إميل فاغيه) علة تلك الضريبة حيث قال :

« تدل الأحوال على ان الذى يجعل بعض الأحزاب تتمسك بضريبة الدخل كثيراً

هو ان تطبيق هذه الضريبة يستلزم شيئاً من القهر والاستبداد . فستكون ضريبة الدخل آلة لخبط من لم يرغب فيه وحماية من يقع موقع الرضى . »

ولم يكن لاحد البراهين تأثيرفى النواب الذين يتوعدهم شبح الخوف . فقد اقترعوا لضريبة الدخل وهم يعلمون كما قال (جول روش) : « أن ما عرض عليهم كاصلاح ديموقراطى ليس بالحقيقة سوى لائحة شديدة الاستبداد عظيمة الخطر منذرة بالخراب والحرب الاهلية ، لوضعها ثروة أبناء الوطن تحت رحمة جيش من الموظفين الذين هم عمال حزب سياسى قابض على زمام السلطة . » ، وقال الموسيو (ريمون بوانكاره) : « فى تلك اللائحة خطر مخيف يهدد مالية الدولة . فسيؤدى الى تبذير الدخل وظلم متوسطى الحال وينذر ثروة الامة والنظام الجمهورى بالافول والبلاد بفتنة هائلة . »

ولا شىء أصح من ذلك القول . ولكن ماذا يعمل النواب وقد هالهم وعيد الاشباح العتيد ؟ وفى ماذا يفكر المعلمون وباعة الخمر واللجان الاشتراكية اذا رفض النواب الاقتراع لتلك اللائحة ؟

* * *

وبتأثير تلك الاشباح ولا سيما شبح الخوف أدارت الحكومة أمور الدولة منذ عشرين سنة على وجه يفيد طبقة العمال وحدها . وما فتئت فى اثنائها تزعج الصناعة والتجارة بقوانين ظالمة وضرائب جائرة .

والخوف وحده هو الذى يكره البرلمان على الاشتراع فى سبيل طبقة واحدة وعلى حساب طبقات هى سر عظمة البلاد وقوتها ، فاذا سلب طبقات بحجة الدين واضطهد أخرى بحجة الثروة المكتسبة فان الخوف هو الذى يحمله على ذلك . ولكن هل اكتسبت الحكومة قلوب العمال الذين سن لاجلهم كثير من تلك القوانين المجحفة ؟ إنها لم تحصد غيرأحقادهم . فالجماعات لا تشكر من تنال منه شيئاً بقوة الوعيد والتهديد .

ومع ذلك لا تزال تلك الحكومة التى افتضح أمرها باقية . وعلة بقائها تعذر ايجاد ما يحل محلها ، وقد صرح ذلك الموسيو (دورياك) — وهو من ولاتها المعروفين — فى العبارة الاتية التى وردت فى كتابه « فرنسا الحديثة » وهى : « اذا كانت حكومتنا تدير دفة البلاد منذ أربعين سنة فلضعف فى خصومها لا لفضيلة فى نفسها . »

وقد أخذت صحة هذا الرأى تبدو للجميع . فمن المفيد أن تعدل الحكومة عن الاستعانة بالاسباب التى تزيد أعداء النظام الحاضر وهى الضعف والاستبداد وعدم التسامح والاضطهاد . فسوف يطفح الكيل فتصبح هذه العوامل أمراً لا يطيقه أحد فلا تجد الحكومة لها نصيراً

الفصل الرابع

نشوء الحقوق الالهية فى الوقت الحاضر

الحكومية

الحكومية — ومنها تنبت الاشتراكية بحكم الطبيعة — دين الشعوب اللاتينية القومى الذى أجمع الكل على احترامه . وليس هذا الدين الكثير القوة العظيم الشوكة الشديد الثبات من فصيلة المعتقدات الموقتة التى يؤثر فيها العقل والتلقين والعواطف . فقد ثبت أمره فى النفوس بتعاقب الوراثة وصار لا يجادل فيه غير فئة قليلة من الملاحدة الذين لا نفوذ لهم ولا اعتبار لكلامهم .

والحكومية لكونها ديناً عاماً نعد أحزابنا السياسية حزباً واحداً وإن تعددت فى الظاهر . فأشد رجال الاكليروس تعصباً واكثر الملكيين قهقرة وأعظم الاشتراكيين تطرفاً عباد للحكومة . ولا شك فى اختلاف بعض هؤلاء عن البعض الاخر فى اختيار قسس المعتقد الحكومى . غير أنهم لا يفترقون فى مبادئه أبداً .

ويسهل إيضاح هذه المبادىء . فالحكومة عند الامم اللاتينية ولا سيما الفرنسيس عبارة عن حبر فوض اليه ادارة كل شىء وصنع كل شىء وتدبير كل شىء وإعفاء أبناء الوطن من المجهود الذاتى ولو كان زهيداً جداً . وقد حلت بالتدريج محل الالهة القديمة التى لا غنية لخلقنا الدينى الموروث عنها . فاذا عجز الكرام عن بيع محاصيله تمرد اذا لم تشترها منه . واذا عجز أصحاب السفن عن مزاحمة الاجانب طالبوها بتعويض مالى . واذا فضل العامل البطالة على العمل لجأ اليها لتمنحه اياها .

ويزيد سلطان الحكومة الربانى بتأثير التيار العام . فهى تقبض كل يوم على المصانع والسكك الحديدية وشركات الملاحة الخ . وتود الاشتراكية التى هى مظهر الحكومية الاخير أن تحتكر الحكومة جميع الصناعات . وهل فى نظر الاشتراكيين ما هو أقدر من الحكومة على نشر ألوية السعادة بين البشر بواسطة القوانين ؟

وقد ورثت الحكومية التى هى عنوان الحقوق الالهيــة الحديث قدرة الالهة والملوك . فمع ان لويس الرابع عشر مات منـذ عهد طويل حافظت الحكومة على أساليبه ومبادئه فى الحكم . ولو أن مناجياً للارواح حادث روح ذلك الملك العظيم لاخبرته بأن جميع خلفائه واظبوا على اتباع سنته باخلاص وأنهم أفرطوا فى تطبيق طريقتـه فى المركزية ونهجه فى الحكم المطلق . وربمـا ذكرت له أن السياسـة التى أدت الى طرد رجال المحافل الدينية فى زماننا وطرد البروتستان فى الماضى من البلاد تشتق من مبادىء واحدة . ولا يحتاج الى إعمال فكر كبير إثباتنا أنـ اليعاقبة باقامتهم النظام الجمهورى مقام النظام الملكى المطلق جهزوا ذلك بمـا فى هذا من بطش وجبروت ، ثم لمـا أراد الجيروندیون أن يجعلوا الدولة أقل مركزية وأخف استبداداً ألقوا أنفسهم الى التهلكة حيث ضربت رقابهم .

ويحتمل أن تقول تلك الروح إن من الصعب إدارة دفة الحكم مع التزام جانب الطاعة للجماعات . وتشير الى أن الجماعات متملقة مخادعة أكثر ممن يتقرب منها وقلما تصـل الى قمة عزها ، وقد تقرر أن الملوك كانوا يلاحظون المنفعـة العامة فى الغالب وان رجال الدولة الان قلما يبالون بهـا . ولا يتأخرون ثانية عن الاقتراع لقوانين شديدة الخطر إذا علموا أن ذلك يكفل لهم إعادة انتخابهم . حينئذ يأمرها المناجى بالعودة الى تحت الارض قائلا انها لا تفقه للرقى معنى .

أظن أن تلك الملاحظات من الامور المحققة التى لا تحتاج الى إثبات . فلا أحد يجادل فى قدرة الدولة على عمل كل شيء . وقد أوجب ذلك غماً فى نفوس موظفيها الرسميين أيضاً، فاليك ما يقوله الوالى (دوریاك) : « يعامل سكان الاقاليم كما يعامل سكان البلاد المفتتحة وأبناء المستعمرات القاصية والافراد الذين لا ينتسبون الى شعب قادتهم وحكامهم ، » فعلى أولئك أن يسألوا باريس لتسمح لهم بانجاز أصغر الامور كتأسيس سوق وانشاء ينبوع الخ

نظام الدولة الحاضر يحاكى نظام الملكية المطلق السابق ، وهو أشد وطأة منه لانـ المشترع فى هـذا الوقت ، وهو يرى دور حكمه موقتاً ، لا تهمه نتائج القوانين التى يسنهـا بتأثير ضغط الجموع المتقلبة ولا ينظر الا الى نفع تلك القوانين الظاهرى الراهن غير مدرك ما سوف ينشـأ عنها من عواقب سيئة فى المسـتقبل . ولقد اشتهر (عيسو) بعـده صحن عدس عتيد خيراً من حق البكورية البعيد . فما أشد اقتداء مشترعى الامم اللاتينية بعيسو !

والحكومة لتذبذبها المتواصل واشتراعها اتفاقاً واضطهادها كثيراً من طبقات الامة

أصبحت ثقيلة شديدة الوطأة ممقوتة من الذين بغت عليهم وهى إن استطاعت — مع خرقها حرمة المعتقدات وإرهاقها مصالح الناس وسخرها من الشعب بما تلقيه فيه من أوهام يتعذر تحقيقها — أن تبقى صاحبة الامر والنهى فلما توجبه بين صنوف الامة من منافسة ومزاحمة . فلذا نرى سلطانها الواسع فى الظاهر والناقض بالحقيقة لاى مثل أعلى تحت رحمة المصادفات والطوارئ

*
* *

توضح المبادئ النفسية العامة المذكورة كثيراً من الامور التى يظل أمرها غامضا اذا لم ينظر الى عللها . ومنها فضائح المطبعة الاميرية وفضائح بحريتنا التى لا تزال لجان التحقيق تبحث عن أسبابها .

قيل ان تجديد المطبعة الاميرية الذى لا احتياج اليه يكلف ميزانية الدولة ٤٤٢ر٣٥٠ فرنكا، فجاءت لجنة المراقبة وبينت أن هذا التجديد يستلزم انفاق عشرة ملايين من الفرنكات. ومع قولهم إنه يتم فى أربع سنوات مضى سبع سنوات على الشروع فيه ، ولا شئ يدل على أنه يكمل فى وقت قريب .

يثبت ما دلت عليه اللجنة من الامور مقدار عدم المبالاة التى بها يدير الموظفون مشاريع الدولة ، فلو أن المشاريع الخاصة أديرت بمثل ذلك الاهمال لاصابها الافلاس فى وقت قصير ، فلما أنشئت درج لبناء المطبعة ظهر أنها قليلة التزويق فهدمت لاعادة إنشائها، ولما بلطت أرضية البناء ووصل بين أجزائها بملاط محكم قال مدير ديوان المطبعة — وهو مبتلى بالرثية (١) — إن ذلك الملاط يقرس الارجل ويوجب التهاباً فى قصبة الرئة، فنقضت الارضية على الفور وفرشت بخشب لم يلبث أن ظهر أنه من جنس ردئ فبدل به غيره . ثم لما ابتيعت آلات بثمن غال وغاب عن الفكر إحداث خنادق لها هدم قسم من البناء ، وهكذا خسر بيت المال ملايين كثيرة من الفرنكات على مرأى فريق من الموظفين من غير أن يحرك ذلك ساكنهم .

والامثلة التى هى من هذا النوع كثيرة جداً . ولا ريب فى أنها لا تردع الاشتراكيين عن تسليم مثل ذلك المشروع الى الحكومة بدلا من تفويضه الى الصناعة الخاصة التى لا تغض الطرف عن إهمال الموظفين

---

(١) وجع المفاصل واليدين والرجلين

وليس مثال تضييع المال فى إنشاء المطبعة الاميرية شيئاً يذكر بجانب ما أثبته التحقيق فى بحريتنا الحربية . فقد لاحظ الجمهور بدهش أن سوء حال بحريتنا أوجب هبوطها من الدرجة الثانية الى الدرجة الخامسة فى بضع سنين . وجاء فى تقرير اللجنة العام « أنه لاوحدة فى النظر ولا ارتباط فى الجهود ولا تبعة معينة فى بحريتنا ، وأن الغفلة وقلة النظام والبلبلة هى السائدة لها . »

قدر الموسيو (أجام) — وهو من أعضاء تلك اللجنة — ذلك الاسراف بسبعمئة مليون فرنك ، و يتضاعف هذا المبلغ إذا أضفنا اليه ال ٦٩٣ مليوناً من الفرنكات التى منحتها بحريتنا التجارية منذ سنة ١٨٩٩ حتى سنة ١٩٠٩ لجوائز حسب رواية الموسيو (كايو) الذى قال فى مجلس النواب : « إننا امتطينا متن الخطاء والزلل بسلوكنا تلك الطريق . »

نعم إننا ركبنا ظهر الخطاء بسلوكنا هذا . ولكن يظهر أن الوزير الذى لاحظ ذلك يجهل علة الامر جهلا يدل على باعه القصير فى علم النفس . فهو لم يعلم أن مصدر الخطاء هو انتشار المذهب الحكومى فى البلاد . ولوكان يعلم ذلك لما اقترح أن يكون للحكومة يد فى إدارة شركاتنا البحرية الكبيرة واستثمارها .

وما يأتى به مستخدمو بحرية الدولة من قلة النظام وعدم المبالاة لا يصدقه العقل . فلقد ذكر الموسيو (أجام) أن مدرعة جهزت بدرع ثقيلة جداً فبدل بها درع خفيفة الى الغاية ثم اقتضى تبديل درع أخرى بها حتى كلفت المدرعة الدولة ثلاثة ملايين .

ولا عهد لانكلترة بمثل عدم الاكتراث المذكور المؤدى الى إرهاق مالية البلاد . فالمدرعة تكلفها ثمناً يقل ثلاثين فى المئة عما تكلفنا ، و يتم انشاؤها هنالك فى سنتين مع أن إتمامها فى دور صناعتنا يقتضى خمس سنوات ، قال الموسيو (أجام) : « إن فى الكيفية التى ننشىء بها السفن ما يدفع الانسان الى استهجان المذهب الحكومى ومقت المبدإ القائل باحتكار الحكومة للصناعات »

وأعمال مثل تلك تشاهد فى كل جهة من بلادنا . فبعد ان قبضت الحكومة فى طولون على كثير من ملتزمى دار الصناعة ظهر أن جميع البضائع لم تعاين منذ خمس وعشرين سنة عند دخولها ، والملتزمون لما كانوا يسلمون الى دور الصناعة ما يودون ابتزوا على هذا الوجه من خزينة الدولة ملايين كثيرة من الفرنكات من غير أن يحرك ذلك حمية أحد

عدم الاكتراث هو المبـــدأ الحقيقى لكل دائرة حكومية ، ولا محل لهذا المبدإ فى الصناعة الخاصـة ، فسرعان ما يصيب الافلاس رب العمل الذى لا يبالى ولا يراقب . ثم ان الارتباك نتيجة المبدإ الحكومى ، ولا يكاد الانسان يتصور مقدار ما يوجبه هـذا المبدأ من الامور السيئة فى المستعمرات التى لا تنالها يد المراقبة . فقد ذكر الموسيو (مسيمى) أنه لا حد لسوء تصرف الموظفين فيها وأنهم يلقون فى قلوب أبنائها غيظاً كبيراً ضدنا لعدهم هؤلاء الابناء عبيداً جديرين بتطبيق نظام السخرة عليهم وسلب أموالهم . وأين تذهب النقود التى ينهبها موظفونا فى المستعمرات ظلماً وعدواناً ؟ انهم ينفقونها على الفخفخة الباطلة . واليك خلاصة تقرير الموسيو (مسيمى) التى جاءت فى إحدى الصحف:

« ترك فى الهند الصينية أمر تنظيم الميزانية الى فرنسويين لا يبالون بغير منافعهم الشخصية ، فهنالك توضع ميزانيـة طائشة تمنح رجال الادارة الفرنسويين رواتب وافرة وتعويضات كبيرة يستطيعون بها أن ينفقوا على مظاهر العظمة الفارغة كما يودون . وقد أدمج أحد رجال الادارة المذكورين فى الميزانية ١٣٢٠٠ فرنك لتنوير قصره بالكهرباء . وفى الغالب نرى للواحد منهم ست عربات خاصة . واذا نظرنا الى الحرس الاهلى المؤلف من ١٦٠٠٠ رجل رأينا عدداً كبيراً منه يقوم بامور الخدمة فى بيوت أولئك الفرنسويين ، ومن بين رؤساء ذلك الحرس نذكر مفتشاً يستخدم منه تسعة عشر رجلا كى يقوموا بامور مطبخه وسوق عرباته و زراعة حديقته وغسل ثيابه وثياب زوجته الخ . »

وقد أضافت تلك الجريدة الى هـذا القول ما يأتى : « ان تعاطى المسكرات الذى هو سبب مضاعفة الضرائب المقررة يزول اذا فرضت هـذه الضرائب حسب طريقة معقولة عادلة » . وانى لاشك فى القدرة التى تعزى الى الانظمة . فالانظمة لا تداوى الفوضى العامة الناشئة عن علل بعيدة الغور .

*
* *

علة ارتباك بحريتنا ومطبعتنا الاميرية وجميع مشاريع حكومتنا هى ما ذكرنا آنفاً . ولكون ما تديره الحكومة من الامور يقتضى ألوفاً من الموظفين نرى التبعة تضيع بين هؤلاء الذين يوزعون على دواوين مختلفة فاقدة المنفعـة متحاسدة غير نشيطة . فاذا أمر أحد هذه الدواوين بصنع درع فأنها تصنع على شكل لا يلائم جدران المركب الذى أمر

بصنعه ديوان آخر . ولو استخدم الموظفون المذكورون فى المشاريع الخاصة حيث تكون التبعة متجلية لكان سيرهم خلاف ما هو عليه فى مشاريع الحكومة .

بحرية الاجانب فى تقدم لاعتمادها على الصناعة الخاصة ، وأما نحن فاننا تتدرج الى جعل بحريتنا حكومية . فلو أن الشعوب الاخرى اعتنقت المذهب الحكومى لهبطت بحريتها الى حيث هبطت بحريتنا .

وقد نشرت المجلة السياسية النيابية خطبة للمستر (هرولد كوكس) أحد أعضاء البرلمان الانكليزى أثبت فيها بما أدلى به من الامثلة البارزة أن الحكومة الانكليزية لحقها خسران كبير فى الازمنة النادرة التى أدارت فيها بعض المشاريع مع أن هذه المشاريع أتت بربح كبير عندما كانت بيد الافراد . ومن تلك الامثلة صناعة المراسلة البرقية التى أدارتها شركة خاصة حتى سنة ١٨٧٠ فكانت تعود على المساهمين بربح ست فى المئة من قيمة الاسهم ، ثم لما احتكرتها الحكومة انقلب الربح الى خسارة فصار عجزها السنوى ٢٥مليوناً

ولا نعجب من مثل هذه النتائج . فهى صادرة عن نواميس نفسية صحيحة . ومنها أن الانسان اذا أعفى من التبعة ولم يكلف الاستنباط لا تلبث قيمته الذهنية وقدرته على الانتاج أن تهبطا هبوطاً عظيما . وأرى الاشتراكيين معذورين إذا امتنعوا عن فهم هذا الناموس . فعندما يصبح أمراً بديهياً معروفاً من قبلهم لا يبقى أثر للاشتراكية .

ومهما كان الامر ينتشر المذهب الحكومى الاشتراكى بين الامم اللاتينية بسرعة ، ولا تكون النتائج المضرة الناشئة عن ابتياع خطوط الغرب الحديدية رادعة للحكومة عن ابتياع خطوط أخرى وعن القيام باحتكارات جديدة موجبة زيادة عدد الموظفين. ويظهر أن عاصفة جنون هى التى تسير وزراء ماليتنا فى الوقت الحاضر . فقد صرح أحدهم فى مجلس النواب — بين هتاف الاشتراكيين الذين أصبحوا سادة له — أنه يفكر فى الاقتراح عليه أن تحتكر الحكومة صنع المسكرات وأمور التأمين . وبهذه المناسبة نشرت جريدة (الديبا) ما يأتى

« سنرى بعد اليوم أنه سيكون لسياسة الاحتكارات المالية شان كبير فى البرامج الانتخابية وفى أمور الاشتراع وفى ذلك ضرب من الجنون . ففى زمن يخاف فيه أولو الذوق والنظر من تدرجنا الى النظام المركزى الشديد الذى يصيب قوة استنباط الافراد بالفالج وفى زمن يزيد فيه عدد موظفينا زيادة متصلة مثقلة كاهل ميزانيتنا ليس من الصواب أن تكلف

الحكومة بأن تضيف الى وظائفها الحاضرة التى لايحصيها عد وظائف أخرى كاحتكار صنع المسكرات وأمور التأمين ، وعلى رغم هذا ستحتكر الحكومة — بعد ان تدخلت باسم الرأفة والحنان فى جميع فروع العمل — كثيراً من الاعمال متعلقة باحتكار رأس المال فى سبيل المجتمع .

« ضريبة الدخل فاتحة انتزاع الحكومة لرأس المال . فكيف تكبح الحكومة الاشتراكية جماحها عن الامعان فى هذا النهب القانونى ؟ ورواتب تقاعد العمال فاتحة صدقات تنظم أمورها الحكومة . فكيف يمكن التريث فى هذا السبيل الاجتماعى الانسانى ؟ واحتكار التعليم فاتحة جمع أمور العلم والمعارف تحت ظل الدولة ، فكيف يكون التأنى فى طريق المساواة العقلية ؟

« فمتى ينضب معين ملكة الاستنباط التى هى مصدر القوة فى الامة تقم الاشتراكية صرحها الاجتماعى على بقعة الانقراض المتعفنة . »

*

* *

التوظيف عنوان الحكومية ودعامتها ، فاذا أريد تخفيف سلطانها وجب الشروع فى تقليل عدد الموظفين ، ولسبب ابتلاع الحكومة كثيراً من الصناعات بالتدريج رأت نفسها مضطرة الى زيادة أهمية فروعها الادارية . وقد أصبحت تلك الفروع فى زماننا عصبات إقطاعية قادرة على إلزام الحكومة أن تسير حسب مشيئتها .

والموظفون اليوم يطالبون بسن نظام يزيدهم ضماناً ويمنحهم كثيراً من الامتيازات ، وسوف يخشى البرلمان زعماءهم فيقترع لذلك النظام الذى سيكون أسوأ عاقبة من جميع الانظمة والتدابير التى وضعت ، لانه سيؤدى الى تأليف عصابة من الموظفين تقود فرنسا .

والاعتراف لعصاة الموظفين أو لمن آزروهم بحقوق خاصة عبارة عن اتخاذهم سادة فى أقرب وقت ، وقد نالوا حتى الان قسطاً لا يستهان به من السيادة . فأحقرهم — وهو يرى نفسه يمثل جزءاً من الدولة — يعتقد أنه من فصيلة الملوك فيعامل الجمهور حسبما يقتضيه هذا الاعتقاد ، وما أفضل الناس عنده سوى فرد « خضوع » ، ففى المراسلات الرسمية يلقبه بـ « السى فلان » وإذا قابله خلف كوة أو فاوضه فانه يستصغره .

وما يجب أن يعمل لتحسين الحالة هو أن تسير الحكومة على عكس ما تقاد اليه الآن فلتحجم عن سن نظام يجعل الموظفين دائمين لا يعزلون ويضع الوزراء ورجال البرلمان

فى حال لا يستطيعون بها أن يكونوا ذوى تأثير فيهم . وليس على الحكومة اذا أرادت أن تبقى صاحبة السيادة على موظفيها الا أن تقتدى بأرباب الصناعات الخاصة، فهل من مخزن كبير أو مصنع عظيم يمنح مستخدميه نظاماً يضمن لهم بعض الامتيازات ؟ إنه يحافظ عليهم ما داموا أكفاء و إلا فانه يقصيهم عن العمل .

وعلى الحكومة أن تعاقد المستخدمين الى مدد لا تزيد على بضع سنوات فى الامور الفنية وحدها كمسائل الهندسة والبرق الخ . وقد يعترض على ذلك بأن الحكومة بعدم ضمانها شيئاً من الديمومة والقرار لموظفيها لا تجعل سوى أولى الكفاءات المتوسطة يعرضون خدمتهم عليها ، فاذا صح هذا الاعتراض فالبلاد هى التى تستفيد من تحقيق ما يفرضه . لان أذكياء الشبان يولون حينئذ وجوههم شطر الصناعة والتجارة .

و إنا لنأسف على بعد ذلك الاحتمال ، فالمرشحون للوظائف يكونون وقتئذ مثلهم فى هذه الايام من حيث العدد . فمع أن راتب الموظف الصغير فى دواوين الحكومة لا يتجاوز ستة فرنكات كل يوم ترى خمسين مرشحاً من حملة البكالوريا يعرضون أنفسهم على الحكومة عندما تصبح احدى الوظائف الحقيرة شاغرة فى تلك الدواوين .

*
* *

تقودنا الحكومية التى هى مصدر الاشتراكية الى استعباد نفسى عظيم ، والاستبداد الحكومى من الجور والارهاق بحيث تأتلف ضده جميع المنافع المتضررة ، فقد أخذ الناس يعلمون أنه ليس من وظائف الحكومة أن تدير الصناعة وتظهر بمظهر الانسان المحب للبشر وتفرض على أبناء الوطن يقينها وجحودها وأدبها وثقافتها وأن واجبها الحقيقى أن تكون حكما بين مختلف الاحزاب وتسهر على راحة الاهالى وسلامتهم بواسطة الشرطة فى الداخل و بواسطة الجيش فى الخارج .

تلك الحقائق مسلم بها ، ولكنها قليلة الانتشار فلنرج تحررنا من ربقة الاستبداد الحكومى بالتدريج ، ولكن لا نقف عند حد هذا الرجاء ، فان يسهل تعديل قوانين الامة على الورق يصعب تبديل روحها

الفصل الخامس

العوامل النفسية فى المعارك الحربية

ما فتئت الحرب تشغل بال الشعوب والامم على رغم تقدم الحضارة ومباحث الفلاسفة . وإنا لنشك فى أن مبتكرات العلم تجعلها فى المستقبل أقل منها فى الماضى . وانما الامر الذى لا ريب فيه هو أن هذه المبتكرات جعلتها اكثرسفكا للدماء . فما حوت ساحة الوغى أناساً كثيرين عدداً وعدة فى زمن — حتى فى الازمنة التى أخرب بها جنكيز خان واتيلا العالم — مثل زماننا الذى نسميه عصر البخار والكهرباء

والحادثة اذا تكرر ظهورها بانتظام مستمر تكون بنت ضرورات مهيمنة . فالاحتجاج على قضائها وقدرها هو من العقم كالتمرد على الهرم والموت . ومن جهة أخرى نرى تنازع الشعوب اكثر مصادر الرقى أهمية فلولاه ما خرج أجدادنا الاولون من طور الهمجية وأقاموا دولا فخمة أينعت فيها العلوم والفنون والصناعة . وأية حضارة كبيرة لم تكن مشبعة من الروح الحربية ؟ وأى شعب سلمى مثل دوراً فى التاريخ ؟

غير أن الوقت الذى نبحث فيه عن منافع تنازع الشعوب الدورى ومساوئه لم يحن . فسنكتفى بتحقيق هذا التنازع وبيان علله النفسية الكثيرة . وأهمها الغريزة الطبيعية التى تقود الاقوياء الى القضاء على الضعفاء . أجل ، تخفف الحضارة شيئاً من صولة تلك الغريزة ، ولكن الذى لا تقدر عليه هو تقليل النفور العميق بين الشعوب المختلفة بمزاجها النفسى .

واكثر المنازعات نشأت عن ذلك التباين . فجميع حروب البشر الطاحنة كحروب الفتوحات والعشائر والاديان والدعايات عبارة عن حروب بين مختلف الشعوب . وما العراك بين الفرس والاشوريين الذى أدى أول مرة الى نقل سيادة العالم من الساميين الى الاريين الا حرب بين امتين مختلفتين . وكذلك الحروب القديمة بين الاغريق وسكان آسيا وبين الرومان والجرمان وبين اليابان والروس هى حروب شعوب مختلفة أيضاً .

وليست الحروب الدينية التى اشتعلت فى القرون الوسطى الا حروباً بين أمم متباينة أى بين أمم أحبت مذهب الفردية وحرية الفكر وأمم تمسكت بمبدإ الاستبداد الدينى والسياسى وما ينتج عنه من المبادىء فى السلطة المطلقة والتقاليد والنظام القرطاسى .

*
* *

هل من الحكمة أن نقول ان مبتكرات الحضارة واتصال الامم بعضها ببعض اتصالا جامعاً يقدر على تخفيف ما يفرق بين الشعوب من النفور النفسى ؟ سير الحوادث هو الذى يجيب عن ذلك

وفى زمن غير بعيد حين كانت وسائل النقل نادرة صعبة ومعرفة اللغات الاجنبية قليلة كانت الفروق النفسية التى تفصل بين الشعوب غير بادية للنظر . وأما اليوم فلسهولة الانتقال واشتباك المصالح التجارية زادت العلائق بين الامم فأخذ الاختلاف بين أمزجتها النفسية يظهر . وبما أن أفراد الشعوب المختلفة ينظرون الى الامور نظراً متبايناً يتعذر اتفاقهم على أى موضوع . ولا يفعل استمرار العلاقات بينهم سوى زيادة اختلافهم .

اذاً بينما تقرب المصالح الشعوب بعضها من بعض نرى روح هذه الشعوب تفصل الواحد منها عن الاخر . وبدلا من أن تسير الشعوب نحو الاخاء الحقيقى يسودها النفور اكثر من ذى قبل . ولهذا النفور نتائج سياسية اجتماعية كثيرة . فبعد أن قصرت الشعوب بالبخار والكهرباء المسافات الطويلة أخذت اليوم تفرط فى التسليح وتمعن فى اقامة الحواجز الجركية المؤدية الى قطع العلائق واحاطة كل قطر بسد كسد الصين . ثم ان اكثر الشعوب يرى هذا السد غير كاف فأخذ يفكر فى طرد الاجانب باسم النظام العام . فبعد أن حذت اميركا حذو اوستراليا فقررت إخراج الصينيين من بلادها رأت أن تمنع دخول المهاجرين الفقراء اليها . واليوم تطالب نقابات المهن الانكليزية بطرد العمال الاجانب من انكلترة . وقد أذعنت حكومة روسيا لرغبات الشعب الذى يكون فى الغالب ذا إرادة أشد من إرادة الملوك المطلقين فطردت اليهود من المدن الكبيرة . وفى المانيا حزب كبير يطالب الحكومة بطرد اليهود . وما تأخرت حكومة بروسيا عن اخراج البولونيين والايطاليين المستخدمين فى خطوطها الحديدية . وبعد أن رفضت حكومة سويسرة سنة ١٨٩٢ لائحة القانون القائلة بعدم استخدام العمال الاجانب أخذت تشترط على ملتزمى الحرية أن لا يستخدموا غير عمال سويسريين ،ومثل هذه المساعى تشاهد فى فرنسا وفى غيرها من

البلدان . ولذلك نرى اعتبار القرن العشرين قرن اخاء ليس من الصواب . فالاخاء بين مختلف الشعوب لا يكون الا اذا جهل بعضها البعض الاخر . ولا يؤدى التقريب بين الشعوب بتقصير المسافات التى تفصل بينها إلا الى تعارفها ومن ثم الى قلة تساهلها .

ومن جهة أخرى نرى حركة الشعوب العامة ضد الغزو الاجنبى لا تزال فى المرحلة الاولى ، واذا توصلت الحكومات القائمة على مبادىء متناقضة الى اتخاذ وسائل واحدة كتلك فلأن الضرورة هى التى تمليها عليها . فتأثير الاجانب يؤدى الى انحلال الدول وقلما يزيد حده ويقضى على روح الامة . خذ الامبراطورية الرومانية مثلا ترها غابت عن الوجود عند ما كثر عدد الاجانب فيها . وانظر كذلك الى امة كالامة الفرنسوية يتناقص عدد سكانها فى زمن يزيد فيه سكان الامم المجاورة لها لتعلم أن ما يفيض من سكان هذه الامم الاجنبية يهاجر حتما الى فرنسا حيث لا يكرهون على التجنيد ولا على دفع ضرائب فادحة وينالون أجوراً أحسن مما فى بلادهم الاصلية . وكيف يترددون فى الهجرة الى فرنسا وهم يرون جميع البلدان أوصدت دونهم أبوابها ؟ ومع أن هجرة هؤلاء خطرة لانهم بحكم الطبيعة من الطبقات الدنيا التى ليس عندها ما يسد رمقها تقودنا مبادئنا فى الانسانية الى عدم منع دخولهم الى بلادنا . من أجل ذلك أصبحت مرسيليا مستعمرة ايطالية بسكانها . وليس لايطاليا مستعمرة تحتوى على عدد من الطليان كمرسيليا . فاذا لم نحل دون الغزوات أصبح ثلث سكان فرنسا من الطليان وثلث آخر من الالمان ، وماذا يكون كيان الامة ووحدتها إزاء هذه الغزوات ؟ أسوأ الملاحم فى ميادين القتال أفضل لها منها .

٭
٭ ٭

نستنتج مما تقدم أن مبتكرات الحضارة عاجزة عن تخفيف تنازع الشعوب . ويظهر هذا العجز على وجه أوضح إذا علمنا أن الحضارة تضيف الى علل التنازع النفسية التى أشرنا اليها عللا اقتصادية . فلهذا حق للفلاسفة ومحبى البشر أن يبكوا مقدماً من المصائب التى ستصيب الحروب بها البشر . على انه يخف غمهم إذا علموا أن السلم العام يقضى فى الحال على كل حضارة وكل تقدم ويسوق البشر الى التوحش . فتوطيد السلم كما قال الموسيو (دوفوغويه) : « ينشر بين البشر فى أقل من نصف قرن ما لا تقدر عليه أقسى الحروب من فساد وانحطاط . »

لا جرم أن الحروب لا تخلو من مساوىء ولكن اذا وضعنا مساوئها فى كفة ميزان ووضعنا فوائدها فى الكفة الاخرى فأيتهما ترجح ؟

مساوىء الحرب ثلاث : ضياع المال وفقد الرجال وضعف الشعب . فأما ضياع المال فأهميته طفيفة . فالتاريخ يثبت لنا أن ظل أغنى الشعوب يتقلص امام الشعوب الفقيرة ، ولا يعنى إفقار الشعب إيذاءه ، فقد ذكر المحصون أن المانيا اضطرت الى إنفاق اكثر من مليار فرنك فى المحافظة على الالزاس واللورين وأن دول اوربا تنفق قسما عظيما من ماليتها على جيوشها . وليس لتلك النفقات نتيجة غير تحريك نشاط الشعوب وتعودها التقشف ووقايتها من غزو الاجنبي وتعديه . وهل فى اوربا دولة تقدر على البقاء يوماً واحداً بدون جيش ؟ فلو تخلت دولة اوروبية عن جيشها لاتفق بعض الامم القوية على اقتسامها ولارهقت بضرائب أثقل من الضرائب التى يتطلبها تسلحها .

تمدح الحكومات والشعوب محاسن السلم وينطق رؤساؤها بخطب ممجدة له . ولا أحد يعتقد وجود ذلك السلم الذى يلهج بذكره الناس أجمعون . فكل يعلم أنه متى يظهر ضعف أمة تصبح فريسة الامم القوية المجاورة لها ، وقد شاهدنا مصداق ذلك فى اليوم الثانى من معركة (موكدن) التى اصيبت فيها قوة حليفتنا روسيا بشلل كبير . فقد تحدتنا المانيا فى مراكش طمعاً فى حملنا على شهر الحرب عليها . وما دار بيننا وبينها من البرقيات يثبت لنا مقدار الوقاحة التى عاملتنا بها ، والذى جعل امبراطور المانيا يعدل عن تلك الحرب هو خوفه من أن يضرب اسطول انكلترة — التى لا بد من أن تنضم الينا — مرافىء بلاده .

والامم استفادت من هذا الدرس فزادت حربيتها زيادة مطردة . وضرورة التسليح هى التى أوجبت زيادة الضرائب فى انكلترة فجعلتها تنفق على بحريتها اكثر من مليار فرنك

وأما فقد الرجال الذى هو ثانية المساوىء فالعبرة بنتائجه البعيدة ، فلقد أدت حروب نابليون الى هلاك ثلاثة ملايين من الرجال . ولما نشأ عنها استيلاء فرنسا على مقادير الشعوب عشرين سنة وأورثتها أسطورة فخر وقضت بها حاجة الهدم والتخريب الطبيعية لا نرى كبير بأس فيها . وكل ما نراه فى الحروب من نتائج سيئة هو قضاؤها على أقوى رجال الامة وتقليلها عدد سكانها وزيادتها نحافة . على أن نتائج مثل هذه لا تكون شديدة الخطر إلا على الشعوب التى يكون عدد سكانها فى دور التوقف .

*
* *

يبين رجال الاحصاء لنا ثمن الحروب الغالى غافلين عما تعود على البشر من منافع . ومن المنافع التى تمن بها الحروب هو منحها الشعوب روحاً قومية . فبالحروب تتكون تلك الروح وتستقر . ومن الامور المعلومة أنه لا حضارة للشعوب بدونها .

والحروب توطد دعائم الروح القومية عند النصر وتزيدها قوة عند الهزيمة . فنحن خلافاً لما اتفق عليه الجهور نرى معركة (ينا) لم تكن نكبة اصيبت بها المانيا . فلولاها لتأخر تأسيس الجامعة الالمانيـــة وشوكة المانيا قروناً كثيرة على ما يحتمل . ولو نظرنا الى النتائج البعيدة للحوادث لقلنا ان معركة (ينا) هى بالحقيقة مصيبة أصابت فرنسا دون المانيا .

ولنطرح ما للحروب من مؤثرات غير مباشرة فى الشعوب . فهنالك مؤثرات مباشرة مهمة لا يسعنا إنكارها . فلقد نشأ عن الحروب الاخيرة انتشار مبدإ التسليح العام فى اوربا . وماذا كانت نتيجة هذا المبدإ ؟ يقول المحصون إنه أوجب تدهوراً فى مالية الدول ، فيجيبهم علماء النفس عن ذلك بأنه أورث الشعوب سمواً فى أخلاقها . فلولا نظام التجنيد الالزامى الذى يخضع لحكمه قسم الذكور من سكان اوربا لعمت الفوضى والاشتراكية وكل عامل فى انحلال الحضارة الحديثة ولتداعت أركان الدين التى تقوم عليها المجتمعات فى الزمن الحالى من غير أن نجد ما يقوم مقامها . ويعلمنا ذلك النظام شيئاً من الصبر والثبات وحب التضحية ويملأ نفوسنا مثلا أعلى ولو موقتاً . ويقاتل وحده خلق الأثرة والميل الى الترف فى الشعوب .

لتأثير نظام الجندية فى أخلاق الامم أهمية عظيمة . وقد بينها المرشال (مولتكه) فى العبارة الاتية التى جاءت فى مذكراته وهى : « تأثير المدرسة فى الشبان قصير الاجل . فمن حظنا الحسن أن دور تعليمنا المدرسى لا يكاد ينتهى حتى ندخل فى دور التهذيب الحقيقى وأعنى به دور الخدمة العسكرية الذى لا يستفيد منه أبناء امة اخرى مثلنا . يقولون إن معلمى المدارس هم الذين البسونا ثوب النصر . فالعلم وحده لا يكفى لرفع مستوى الرجل الادنى رفعاً يدفعه الى التضحية بحياته فى سبيل المبدإ أو الواجب أو الوطن . وانما نظامنا الحربى هو الذى نصرنا فى المعارك وزاد أبناء بلادنا بسطة فى الجسم والعقل وحبب اليهم النظام والدقة والعفة والطاعة والوطن والنشاط »

ولا تقتصر فائدة النظام الحربى على رفع مستوى الخلق . فهو الذى أوجب فى زماننا تقدم الصناعة ولا سيما صناعة المعادن . لان المباحث التى أتى بها لاتقان الاسلحة منحت الصناعة ما لا عهد لها به منذ خمسين سنة من دقة علمية و إقدام فنى ولان مقتضيات سوق الجيش أدت الى توسيع شبكات الخطوط الحديدية وتحسين السفن الحربية

☆
☆ ☆

إذاً للشعوب فى الحروب وأخطارها باعث مادى أو أدبى للحركة . فالروح الحربية هى الدعامة الاخيرة التى تستند اليها مجتمعات الزمن الحاضر . فلتعترف الشعوب لها بالجميل بدلا من لعنها .

واذا كانت البراهين السابقة لم تؤثر فى السخفاء من محبى البشر فاننا نذكرهم بنتائج سلم تكره أمة عليه : فلقد تمتعت الهند — وهى من اكبر أقطار الارض مساحة وسكاناً — بنعم طمأنينة مطلقة منذ قرن فكانت نتيجة هذا السلم الالزامى الذى فرضته يد انكلترة الحديدية زيادة عدد سكان الهند ثلاثين مليوناً فى عشرين سنة فأصبح ما يصيب كل كيلو متر مربع من السكان ضعف ما يصيبه منهم فى اكثر بلاد اوربا أهلا ، وقد أوجب هذا التكاثر وقوع الهند فى بؤس عام اشتد أمره بما حدث فيها من مجاعات لم تخفف اسلاك البرق وخطوط الحديد وطأتها . فهلك فى إقليم (اوريسا) سنة ١٨٦٦ مليون شخص وهلك فى (البنجاب) سنة ١٨٦٨ ، (١،٢٠٠،٠٠٠) شخص وهلك فى (الدكن) سنة ١٨٧٤ (١،٣٠٠،٠٠٠) شخص ، فهل تعد حروبنا شيئاً مذكوراً بجانب هذه الملاحم؟ وهل الموت جوعاً أفضل من الموت بالمدفع ؟

☆
☆ ☆

على أن البحث فى منافع الحرب ومساوئها ليس له سوى فائدة نظرية . فأمر اختيارها لا يقع تحت قدرتنا . ونحن نكابدها من غير أن يكون لنا تأثير فى ذلك . وأحسن وسيلة للاستعداد لما قد يحدث من منازعات وحروب هو تعميم الروح العسكرية بين أفراد الامة فهذه الروح هى سر القوة فى الجيوش . وبغيرها تكون الامة — مهما تكن أسلحتها — كناية عن قطيع متقلب لا يقاوم صدمة . ولهذا أعد الكتاب والخطباء الذين يجرؤون على هدم تلك الروح أعداء للوطن مفسدين للمجتمع . ففى اليوم الذى نفقد فيه الروح العسكرية يغزو الاجنبى بلادنا و يقضى على كياننا فنغيب عن التاريخ .

لنكرر ذلك البيان متصورين نتائج الحرب القادمة التى ينبىء بوقوعها الكتاب العسكريون، ولا يذهب عن بالنا أن هذه الحرب ستكون حاسمة كالتى قصها التاريخ قائلا انها لم تنته إلا بابادة أحد الطرفين. أى أن الحرب المقبلة ستكون فاقدة الرحمة مؤدية الى تخريب كثير من البقاع تخريباً منظماً حتى لا يبقى فيها بيت ولا شجر ولا بشر.

ولا تغب هذه المعارف ثانية واحدة عن بالنا عندما نربى أولادنا وندرب جنودنا، ولنترك لفرسان البيان خطب السلم والاخاء الفارغة المشابهة للمناقشات الكلامية التى كان يأتى بها سكان بيزانطة عندما اخترق محمد الفاتح أسوارها.

ثم إن من يريد أن يجتنب الحرب أو يعوق نشوبها يجب أن يكون مستعداً لمواجهتها. وعندما يصير خوض غمارها أمراً لا مناص منه لا يكون النصر حليف الجيوش الكثيرة العدد بل يؤتى التى تعرف الثبات والنشاط.

والحرب هى أمر نفسى كما هى علم بسوق الجيش وتعبئته. وما جهل ذلك أكابر القواد. قال نابليون «يتوقف مصير الحرب على مقدار قوة الجيش المعنوية. فالقوة المعنوية نصف الحقيقة.»، وعلى المحاربين أن لا ينظروا الى مقدار قتلاهم وجرحاهم. فالنصر يكون بجانب الطرف الذى يعرف كيف يصبر على ما أصابه. و بمناسبة ذكر القوة المعنوية نقول إن الجيوش التى تنحط قوتها المعنوية تصبح من فصيلة أخلاط (سرخس) والتى تسمو قوتها المعنوية تكون من نوع غزاة الاسكندر.

واذا تبين لنا أن قيمة الجيوش بقوتها المعنوية و بمستواها الخلقى اكثرمما بكثرة العدد اتضح لنا أن الحرب مسئلة نفسية قبل كل شىء. و بالاستدلال البسيط الاتى نطلع على اهمية العوامل النفسية فى الحروب:

أجمع الكتاب الحربيون على أن هنالك حداً لما يتحمله الجيش من خسارة. فقدأثبتت التجارب منذ قرون أن الجيش متى يفقد عشرين فى المئة من أفراده يعد نفسه مغلوباً. وهذه النسبة هى ما نسميها الحد المخل بالقوة المعنوية. ولا ريب فى أن الهزيمة نتيجة مؤثر نفسى لا ضرورة مقدرة. فالجيش الذى يخسر عشرين فى المئة من أفراده يبقى منه أربعة أخماسه أى قسمه الاوفر. والان لنفرض أن قدرة سحرية أثرت فى قوة هذا الجيش المعنوية فجعلته يستميت، فان مجرد إحداث تغيير فى حالته النفسية يجعل هزيمته تنقلب الى نصر وان لم تنل يد التبديل أسلحته وتعبئته. و بيان الامر أن استمرار النزاع يؤدى الى

فقد الغالب الاول خمس جيشه أى الى دخوله فى ذلك الحد المخل بالقوة المعنوية . و بما أنه بعد أن يدخل فى الحد المذكور لا يتفق له ما اتفق لخصمه من قوة معنوية تمن بها عليه تلك القدرة السحرية التى فرضناها للاول ينهزم و يصبح مغلوباً بعد أن كان غالباً .

وليست تلك القدرة السحرية التى تضاعف قوة المقاومة فى الجيش أمراً وهمياً ، فنحن نعنى بها ما يمنحه الجنود من تربية وما ينفخ فيهم من روح . وقد أثبت لنا التاريخ أنه قد يكون لبعض المشاعر ما لا يكون لكثرة العدد من قوة لا تقاوم .

*

* *

لم تكن صرامة الخلق العامل النفسى الوحيد فى الانتصارات الحربية . فنعد بجانبه عاملا آخر لا يقل عنه أهمية ، وهو وحدة السير . فوحدة السير نتيجة تربية خاصة طويلة . وهى لا تؤتى ثمرها الا بعد أن ترسخ فى ضباط الجيش بعض المبادىء رسوخاً غير شعورى فبهذه المبادىء ينظر اولئك الضباط الى أشد الاحوال والطوارىء مفاجأة نظراً متماثلا . وتتجلى نتائج وحدة السير من مطالعة مذكرات المرشال (مولتكه) . فالقارىء يرى فى كل صفحة منها أنه عندما كانت مباغتات العدو فى الحرب الفرنسوية الالمانية تكره هيئة أركان الحرب على إعطاء أوامر جديدة كان الضباط الالمان يشرعون فى السير حسب هذه الاوامر قبل أن تصل اليهم . وهى بعكس مذكرات قادتنا فى حرب سنة ١٨٧٠ التى تدلنا على أن ضباطنا كانوا سواء فى انتظار الاوامر والتعليمات وانهم كانوا لا يتحركون قيد شبر قبل أن يأخذوها . والسبب فى ذلك أن ضباط الالمان كانوا متحلين بتربية غير شعورية دافعة كل واحد منهم الى الاجتهاد فى السير اجتهاداً متماثلا، وأن ضباطنا كانوا لا يعرفون غير النظام الخارجى . فالنظام الخارجى كان يكفى الجيوش الصغيرة ولكن لا غنية للجيوش الكبيرة عن النظام الباطنى الذى هو وليد التربية الصحيحة .(١)

---

(١) أشير على القارىء بأن يطالع كتاب « روح الجيش والقيادة » الذى ألفه القائد (غوشيه) . ففيه جمع الخطب التي القاها على لفيف من الضباط مستنداً الى المبادىء التي فصلتها في كتاب روح الجماعات وكتاب روح التربية .

الفصل السادس

العوامل النفسية فى المعارك الاقتصادية

لا شك فى استمرار وقوع الحروب. والذى يجعـــله أمراً مقدراً هو الاحقاد بين الشعوب وتباين منافعها كلما تعارفت. غير أنه ينضم الى تلك الحروب بتقدم الحضارة حروب اقتصادية ليست أقل منها قتلا للنفوس. وقد بينت فى كتاب نشرته منذ كثير من السنوات أن اقتراب الشرق من الغرب بفعل البخار والكهرباء سيؤدى الى تصادم اقتصادى بين الشرقيين والغربيين. وعلى ما أوجبته هذه النبوءات آنئذ من انتقاد شديد أخذت تتحقق بتنازع الروس واليابان.

لقدأصدرت أوربا منتجاتها الى الشرق زمناً طويلا. والان نرى الحالة تتبدل بالتدريج. فبعد ان كان الشرق بلاد استهلاك شرع يكون مركز إنتاج واسع. وهو الذى يستولى على أسواقنا التجارية بمنتجاته الصناعية والزراعية التى ينتجها عمال يكتفون لحاجاتهم القليلة بأجور هى دون أجور العمال الاوربيين كثيراً. وما رأت أوربا وسيلة لتحول دون منتجات الشرق سوى إقامة الحواجز الجركية فى وجهها. فسترى فى فصول آتية ماذا تكون قيمة هذه الحواجز فى المستقبل.

ولا تنكرأن الصراع بين الشرق والغرب فىالوقت الحاضر يقتصر على بعض المنتجات الصناعية والزراعية، ولكن الذى نقوله هو أن مدى هـذا الصراع سيمتد سريعاً، فأبناء الهنـد واليابان والصين يهددوننا بمزاحمتهم لنا فى جميع الاسـواق التجارية، وهم يصنعون اليوم — مستعينين بمثل آلاتنا — ما كانت أوربا تحتكر صناعته، فاذا أخذت المنسوجات القطنية مثـلا رأيت الهند تصدرها الى انكلترة بعد أن كانت تستوردها من (مانشستر)، وكذلك غزل القطن الذى كانت تستورده بلاد الصين من (مانشستر) شرعت فى ابتياعه من (بومباى)، وما ينتجه عمال الهند والصين — الذين يكتفون باجور يومية زهيدة —

من المنتجات ليس دون ما ينتجه عمال أوربا قيمة ، وقد بلغت مزاحمتهم لغيرهم مبلغاً دفع أميركا وأستراليا الى طردهم .

وقد نشأ عن المزاحمة التى يقوم بها اليابانيون فى الاسواق الاجنبية اعتصابات كثيرة ولاسيما اعتصاب صانعى الازرار فى (ميرو) . ومتى أسس اليابانيون والهنود والصينيون مصانع كثيرة معولين على فخم بلادهم الحجرى وغمروا العالم بمنتجاتهم الرخيصة فأى الحواجز تحول دون انتشارهم التجارى ؟ حينئذ يرى عمال أوربا انخفاض أجورهم الى حد يحاكى أجور عمال الهند أو الصين أو اليابان . أى ان أجور الاوربيين ستهبط على رغم أحلام الاشتراكيين حسب نسب تستحق الذكر .

وعندما بحثت فى هذه النظريات منذ خمس وعشرين سنة قالت صحف العالم ولا سيما جرائد الهند الانكليزية — مع اعترافها بصحة آرائى — إن عمال الشرق لا يلبثون أن يكونوا ذوى حاجات تحملهم على الاقتداء بعمال الغرب فى مطاليبهم . وقد نسيت تلك الصحف كعادتها أن خلق اكثر تلك الشعوب النفسى ثابت ثباتاً لا تحول فيه . وما يقع الان من التجارب يؤيد إصابة بيانى . فمع أن الصينيين شرعوا فى الهجرة الى أميركا منذ وقت بعيد لم تغير حياة النفائس والترف الاميركية طرز معيشة أحد منهم . وهل قام نظام الحياة الاوربى مقام ما يتناولونه كل يوم من طاس شاى وحفنة أرز ؟ إن حضارتنا لا تلائم مزاج الشعوب الشرقية النفسى فلا تؤثر فيه . وكل من يستصنع عاملا هندياً يعلم أن هذا العامل متى يكسب خمسة أو ستة دوانق يسد بها رمقه لا ينظر الى المبالغ الكبيرة .

ومع أن تلك الثورة الاقتصادية — التى قد توجب انتقال شرف الانتاج الى أمم أميركا وآسيا وتؤدى الى خراب أوربا — لا تزال فى بدء أمرها دنت الساعة التى سترى فيها اوربا تناقص صادراتها ، وقد أخذت منتجات أميركا تحل محل المنتجات الاوربية . ولكن بما أن عمال أميركا من الاوربيين ولهم ما لهؤلاء من احتياجات لن تهبط أثمان منتجاتهم هبوطاً مهدداً منتجات أوربا . واذا اتفق ان اضطرت أوربا الى العدول عن الاصدار الى أميركا فليس ما يجعلها تخشى غارة منتجات أميركا . وأما أمر اليابان والصين والهند فعكس ذلك ، لان هذه الاقطار وإن كانت ستمتنع عن ابتياع منتجاتنا ستغمر أسواقنا بسلعها أو ستزاحمنا مزاحمة تضرنا فى الاسواق الاجنبية على الاقل .

ولا تظنن أن أوربا تنعزل باقامتها حواجز كثيفة من المكوس الجمركية عن بقية العالم

فتقدر على التخلص من مزاحمة الشرق . فذلك التخلص لا يتيسر لها إلا بانتاجها ماتحتاج اليه من الغذاء . والغذاء يعوزها لتكاثر سكانها كما هو معلوم

ولقد أخبر علماء الاقتصاد — وقد شاهدوا اكثر دول أوربا يعدل عن إنتاج ما يحتاج اليه من الغذاء — بأن انعزال أوربا يؤدى الى جوعها . ومن الطبيعى أن الخوف من الموت جوعاً يدفع تلك الدول الى خفض المكوس الجمركية ، ولكن بأى شىء تدفع ثمن المنتجات الغذائية فى زمن تعجز فيه عن إصدار مصنوعاتها ؟ وماذا يكون حال أوربا الشائخة عندما ترزح تحت أثقال ديون تقدر بمليارات كثيرة وأثقال ضرائب شديدة الوطأة ؟ لربما تدخل فى دور الانقراض الذى تصير اليه كل حضارة هرمة وينقص عدد سكانها بعد منازعات دامية الى حد يقدرون به على العيش ، وفى ذلك الوقت يدرك علماء الاقتصاد المتصلبون محاذير تكاثر السكان وأفضلية الدول القليلة الاهل والرعية .

ولا نعد أفضلية أوربا العقلية فى النزاع الاقتصادى الذى نبصر حدوثه عاملا ينبغي إهماله ، غير أننا نعلم أن هذه الافضلية تراث صفوة قليلة من الناس وأن اكثر الشعوب سواء فى الاعمال اليدوية وأنهم ليسوا أفضل من اليابانيين والصينيين فيها .

ولو كان النزاع بين الشرق والغرب عبارة عن نزاع عقلى بين الطبقات العليا لما تطرق الينا شك فى نتيجته ، ولكنما العمل والنزاع المذكور نزاع اقتصادى بين الطبقات الوسطى المتساوية فى مزاجها العقلى والمتفاوتة فى احتياجاتها . وهل من ريب فى أن النجاح سيكون حليف الجهة ذات الاحتياجات الضعيفة ؟

على أن تلك الملاحظات تخص المستقبل البعيد . وما عندنا من المشاكل الحاضرة يجعلنا نترك أمر البحث فى المشاكل المستقبلة .

الفصل السابع

تعليم الجامعات وتأثيره النفسى

كان (ليبنز) يقول إن التربية تقدر على تحويل الشعب فى مئة سنة . وقد كان عليه أن يبين أن تربية غيرملائمة تفسد مزاج الشعب النفسى فى زمن أقل من ذلك .

وما أوجبه تعليم الجامعات منذ قرن من الرقى العلمى والتقدم الصناعى والنجاح الاقتصادى فى المانيا يؤيد صحة نظر (ليبنز) . وأما قولى إن تربية لا تناسب احتياجات الشعب تفسد مزاجه النفسى ، فان فى الانحطاط الذى تقودنا اليه برامجنا المدرسية ما يثبت صدقه . فبرنامج يصنع عدداً كبيراً من المنحطين والثوريين وكثيراً من ذوى الهذر والثرثرة الذين لا يستفاد منهم فى المختبرات والمصانع ولا ينفعون إلا لتكرار الادلة التى يقرأونها فى الكتب الموجزة ، هو برنامج موجب للغم والحزن .

التربية أمر نفسى قبل كل شىء . وما تسير عليه جميع مدارسنا — ابتدائية كانت أم عالية — من المبادىء الاساسية فقائم على أغلاط نفسية . وقد نشأ عن ذلك صيرورة جامعاتنا من الاسباب الرئيسة فى الفوضى الاجتماعية التى تأكلنا والانقراض الذى يهددنا .

* * *

لقد رأيت فى يوم شتاء شيخاً كبيراً لطيف المنظر حاد النظر يدخل بيتى وبيده نسخة من الطبعة التاسعة لكتابى « روح التربية » فابتدرنى قائلا : « أجدر بفرنسا أن لاتواظب على برنامجها الحاضر فى التربية . فالجامعات ستقودها الى أسفل دركات الانحطاط، إننى عضو فى مجلس الشيوخ وفى أكاديميا العلوم وأكاديميا الطب وأستاذ سابق فى الجامعة، أى إننى كما ترى ذو مناصب كثيرة يمكننى أن الفت فيها النظر الى المبادىء والافكار التى عرضتها فى كتابك ، فأطلب اليك أن تجهزنى بملاحظات ومذكرات ومعلومات أستعين بها على وضع خطبة مقنعة ألقيها فى مجلس الشيوخ . »

كنت أجهل مخاطبي قبل ذلك شخصياً ولكنني أعرف أنه كان أمهر جراحي في زمانه أيام كان يزاول مهنته ، وقد كفاني وصف نفسه على الوجه المذكور لتعيين اسمه .

كرر العالم المشار اليه زيارته لي عدة مرات ، فكانت نتيجة مناقشاتنا أنه يجب لتغيير طرقنا التعليمية تغيير نفسية رؤساء جامعاتنا أولا ثم تغيير نفسية أساتذتنا وأفكار الابوين والطلاب ثانياً . وقد عدل ذلك العضو الشهير عن خطبته عندما تبينت له هذه الحقائق .

*
* *

إن المسائل التي أوجبت ، كمسئلة التربية ، كتابة كثير من المؤلفات وجمع كثير من الوثائق وتصنيف كثير من الرسائل قليلة جداً . ولكن لا شيء يثبت استعصاء المبادىء الموروثة واتساقها بفعل الماضي المتحجر كهذه المسئلة .

أوجب البحث في مسئلة التربية الفرنسوية وضوح هذين الامرين : ضرورة الاصلاح وتعذر تحقيقه . وقد أجمع المشترعون والاساتذة والعلماء والكتاب على أن منهجنا التعليمي فاسد وأن الوقت الذي يقضيه الطلاب في المدارس الابتدائية والثانوية يذهب عبثاً . ولا أحد يجهل أن الرجل الذي يود أن ينجح في معترك الحياة يجب عليه أن يجدد بنفسه تعليمه وأن يخصص القسم الثاني من عمره لتبديد ما اكتسبه في القسم الاول من أوهام وأضاليل وطرق في التفكير ، ومع الاجماع على ذلك لم يتقدم أسلوبنا التعليمي خطوة واحدة على رغم الجهود التي تبذل كل يوم ، ولا ينشأ عن أي تبديل يعتوره سوى زيادة نقائصه .

ومن المفيد أن نبين أسباب ذلك العجز الغريب . فهنالك مبدأ مختل هو أساس كل إخفاق في إصلاحاتنا ، وهو اعتقادنا أن تغيير البرامج يزيل ضلال النفوس .

واذا كنا نبدل أنظمتنا المدرسية دون أن نظفر بطائل فلاننا نجهل أن طرق التعلم ، لا برامجه ، هي التي يجب تعديلها . وما استطاع أساتذتنا أن يفقهوا ذلك حتى الان ، فهم يعولون في تدريسهم على طرق الاستظهار والاستنباط النظري المجرد الذي لا يستند الى حقائق الامور . والطالب بتلك الطرق لا يتعلم الملاحظة والتأمل وحسن الحكم ولا يكتسب أسلوباً خاصاً .

وعلى القارىء الذي يود أن يقف على عجز رجال الجامعات عن إدراك أسباب

الضعف فى تربيتنا أن يطالع الخطبتين اللتين القاهما أمام جمعية تقدم العلوم الفرنسوية، أحد أساتذة كلية العلوم فى باريس المسيو (ليپان) و رئيسها المسيو (أبيل) باحثين فيهما عن نظام التعليم :

بدأ الموسيو (ليپان) خطبته باثباته هبوط التعليم فى فرنسا الى مستوى منحط الى الغاية و ببيانه أفضلية التعليم الالمانى وتأثيره فى العالم . و بعد ان أسهب فى ذلك عطف نظره الى علل النقص ومداواتها فلم يصب كبد الحقيقة . وقد أثبت باستنتاجاته درجة عجز المتخصصين عن الملاحظة والتأمل عندما يبتعدون من دائرة اختصاصهم وماذا يكون مصير أمة أدار دفة أمورها مجمع من العلماء كما اقترح بعض الفلاسفة الطيبي القلب

و لو لم يخاطب الموسيو (ليپان) وهو الرزين أناساً ذوى وقار كبير لاتهمناه بأنه يستهزىء بالحضور ، إذ قال : « ان السبب فى سوء نظامنا التعليمى هو أننا نستورده من الصين بواسطة اليسوعيين ! » وقال « إنه يسهل إصلاح هذا النظام ، فيكفى لذلك تحرير الجامعات من ربقة السلطة التنفيذية ونزع أمر تولية المناصب من يدها . » فما اكبر هذا الضلال ! ألم تقتصر السلطة التنفيذية على توقيع ما تمنحه الجامعات من الشهادات ؟ يجب أن يكون الرجل شديد العمى عندما يعزو الى مثل تلك العلل حالة نشأت عن طرقنا التعليمية وحدها .

أفكار الموسيو (ليپان) تنم على سذاجة ، وتدل أفكار الموسيو (أبيل) التى جاءت فى خطبته على تردد فى الذهن . فقد قال : « إن الادارة تشاهد المرض وتبحث عن مداواته ، فالعلاج عندى هو ان ترسم خطوط وصل بين مدارس المعلمين الابتدائية والتعليم العالى ! »

و لم يلبث هذا المؤلف أن شعر بضعف أفكاره ، فعاد الى الموضوع فى مقالة جديدة جاء فيها : « أن أول ما يجب عمله هو تصنيف مواد البرامج بحسب فائدتها ثم تطبيق هذا التصنيف على أمور التعليم والادارة فى الجامعات وذلك بتوسيع تدريس وتضييق آخر و إحداث دروس والغاء أخرى »

يظهر مما تقدم أن مثل هؤلاء المتخصصين الافاضل لا يعلمون أن طرق التعليم لا برامجها هى التى يجب تغييرها . والا فما هو تطويل البرامج وتقصيرها و زيادة الدروس وتقليلها إن لم يكن كلاماً فارغاً لا معنى فيه ؟

و فى المجلة التى تضمنت تلك الخطبة نشرت مقالة للموسيو (لوشاتليه) تكفى لارشاد

أساتذة الجامعات الى الفرق بين الرجل الذى أنمت التربية العملية فيه ملكة التميز و بين الرجل الذى اقتصر على تعلم الكتب الموجزة والنظريات المجردة ، فلقد قال فيها. إننا لو فوضنا الى مهندسين أمر إقامة أفران كهربائية مولدة للحرارة،. لما ألقينا السمع الى الذى يأتى منهما بملاحظات قرأها فى الكتب، بل نعمل حسب قول المهندس الذى لا يعول على محفوظاته المدرسية والذى يستند فى معلوماته الى حقائق تجربية يقدر بها نتائج أى تغيير يطرأ على تلك الافران فيعطى لكل منها ما تتطلبه من وقود و يسيرها تسييراً منتظما مقتصداً فى الزمان والنفقات .

*
* *

كل دور من أدوار التاريخ يستدعى تربية جديدة . وعلة ذلك تبدل البيئة والاحوال وما ينشأ عنه من الضرورات .

وعيب تربيتنا عدم تطورها بحسب الاحوال. قال الوزير السابق الموسيو (هانوتو) : « تقوم التربية الفرنسوية على مزاولة الكتب . ففى مدارسنا يبلغ الطلاب الخامسة والعشرين من عمرهم وتبلى على مقاعد الدراسة سراويلهم وهم لا يعرفون غير تكرير ما استظهروه من الدروس التى لا تلاأم مقتضيات الحياة . وهكذا تنقضى أعمار صفوة الامة فى حفظ المصنفات عن ظهر قلب وتمحيص الصيغ المبتذلة »

*
* *

لا يسعى أساتذتنا فى منح الطلاب صفات خلقية تقوم عليها قيمة الرجل الحقيقى فى معترك الحياة . وهذه الصفات إن لم تنفع الاساتذة وموظفى الدواوين لا غنية لارباب المهن والحرف عنها . وقد علق الانكليز عليها أهمية كبيرة فى مستعمراتهم بعد أن هدتهم التجارب المكررة اليها . فمع أن ذاكرة الهندوس الخارقة للعادة تسهل عليهم أمر النجاح فى امتحانات وظائف الهند العالية ، أثبتت التجارب العديدة للانكليز انحطاط أخلاقهم فجعلتهم يقصونهم عنها بالتدريج .

و إنى أنقل عبارة من كتاب الموسيو (شايى) الذى سماه « الهند البريطانية » لبيان الفرق بين التعلم العقلى والاخلاقى عند الانكليز، واليكها : « لا يبالى الهندوس بغير

أمور الذهن والقريحة . وأما الانكليز فيعبأون على الخصوص بالخلق الذى تقاس به قيمة الرجل الادبية . و بالخلق يقصدون ثبات الجأش والتؤدة عند العزم، والسرعة عند السير، والعناد عند المقاومة، والحزم عند الخطر ، ومعرفة الواجب نحو الفرد والامة ، ولا يعنى ذلك أنهم لا ينظرون الى أمور الذكاء والخطب البليغة والمقالات الفصيحة . وانما تجيء عندهم فى الدرجة الثانية . وما كان اللورد (لورانس) أمهر رجال وقته وأقدرهم على إدارة الملك . ومع ذلك اختاروه نائباً للملك لاستقامته التى لا يعلوها شيء و إرادته الحديدية . »

☆
☆ ☆

أشير على القارىء الذى يود أن يعرف الطرق والاساليب التى ترسخ بها المسائل فى النفس بأن يزور معاهد التعليم فى ألمانيا ، ولكننى خوفاً من أن يشعر بثلة من سياحته فى ألمانيا أنصحه بأن يقرأ كتاب (بيز) الذى بحث فيه عن نظام التعليم فى أميركا .

وهاك خلاصة وجيزة لخصها الاستاذ (جاكان) عنه :

« تقوم التربية والتعليم فى اميركا على مساعى الافراد . وفيها يتسع نظام التعليم حسب عمر الطالب . وللتجارب العملية المقام الاعلى فى معارفها وفى آدابها التى تدرس بواسطة الرسوم والصور ، وفيها يدرب الطلاب على السير الطليق كانه ليس فى العالم غيرهم . وفيها يتلقون العلوم العملية والنظرية مستعينين بالاجهزة والالات المادية التى يستنبطون بها أسرار الحوادث ونواميسها . »

وما يسود التعليم الاميركى يسود التعليم الانكليزى . فاليك عبارة اقتطفها من بيان وزعته ادارة التعليم الاسكتلندية على الاساتذة : « ليست غاية التعليم الرئيسة اكتساب عدد من المسائل ، بل تعويد الطالب أمر البحث والتنقيب الذى قد ينفعه فى تهذيب نفسه تهذيباً منظما . ومن هذا يستدل على انه يجب على كل طالب أن يدرس كل مسئلة فى المختبرات بنفسه وأن لا يكون لادلة الاساتذة و براهينهم فيه سوى شأن ثانوى . و يجدر بالدرس فى المختبرات أن يسبقه ايضاح من الاساتذة لما يشاهده الطلاب فيها ، وأن يعقبه قياس لما علم فيها من النتائج ومناقشة فى ما بين هذه النتائج من فروق . واذا أتى الاساتذة بأدلة و براهين فلتأييد النتائج وشرح شواردها . »

☆
☆ ☆

ليست هذه الطرق التدريسية أمراً جديداً . فقد مارستها البلاد جميعها سوى البلاد اللاتينية . وقد ساعدت على رقى المانيا العلمى والاقتصادى . واذا كنا لم نسر عليها فلأن ذلك يتطلب كما بينت آنفاً تبديل روح الاساتذة ثم روح الابوين فروح التلامذة .

والذى يجب تغييره هو روح الاساتذة على الخصوص . وهل يمكنهم أن يسلكوا سبيلا غير سبيل الاستظهار وقد شبوا عليه ؟ ان الجهود التى بذلت لتبديل روح الاساتذة ذهبت أدراج الرياح . فكأن تلك الروح التى نسجها التعليم المدرسى التقليدى ثبتت ثباتاً أبدياً وكأن الاساتذة الذين تخرجوا على الكتب واتخذوها ادلاء لهم سيموتون منكبين على مطالعتها بعيدين من العالم الحقيقى .

ولماذا يجب تبديل نفسية الابوين ونفسية الطلاب بعد تبديل نفسية الاساتذة ؟ لانهم لا يطالبون الاساتذة الا بتهيئة الفتيان لاجتياز الامتحان . واسهل طريقة عندهم للنجاح فى الامتحان هى حفظ سلسلة من الكتب الموجزة عن ظهر القلب وان كانت الكتب الموجزة لا تمنح الفتيان سوى معارف موقتة غير ثابتة .

والاساتذة القليلون الذين يرجحون طرق التعليم التجريبية المغذية للروح يقصون عن مهنة التدريس . ومما يكرره رؤساؤهم هو ان الوقت الذى يقضيه الطالب فى الاختبار والتجربة يكون أصلح لو يقضيه فى استظهار الكتب حتى يصبح مستعداً ساعة الامتحان للاجابة بجنان ثابت .

ثم لم تكن غاية أساتذتنا أن يربوا رجالا بل أن يعلموا حسن النطق . قال الموسيو (دوميك) فى خطبته التى ألقاها فى حفلة قبوله عضواً فى المجمع العلمى : « كلنا يعلم أن مدارسنا تربى أدباء واقفين على تركيب المؤلفات القديمة وقيمتها الفنية قادرين على صوغ أفكارهم فى قوالب منظمة والاعراب عنها بلسان لا عيب فيه . وكثيراً ما أنحوا باللائمة على هذا النوع من الثقافة دون أن يكتشفوا ما يقوم مقامه . »

وسوف لا يتم هذا الاكتشاف فى فرنسا لما فى أساتذتنا من ضعف عضال . والقارىء يعلم أن كثيراً من الممالك الاخرى توصلت اليه . وفى بعض الاحيان يكون عند صغار المعلمين من الافكار الصائبة فى طرق التربية ما ليس عند رجال المجمع العلمى .

تدلنا على ذلك العبارة الاتيـة التى أنقلها من بيان جديد نشرته جمعية معلمى (المـارن) وهى : « التدريس ليس بالاطلاع بل بتعليم الطالب كيف يطلع . ولا بالابداء بل بالتلقين. وليس بالاقتسار بل بتعيين المطلب ، وليس بالاستظهار بل بجعل التلميذ قادراً على الاختبار والتفكير والعزم والسير . »

☆
☆ ☆

يعجبون فى الغالب من انتشار الاشتراكـية الثورية بين الاساتذة وخريجى دار المعلمين . وليس فى ذلك ما يورث العجب فينا إذا اطلعنا على المبادىء السائدة لمدارسنا فمنها يتألف مذهب قائل إن قيمـــة الرجال بشهاداتهم التى يحملونها . وعلى رأس هذه الشهادات تجيء شهادة التدريس فالدكتوراه فالليسانس فالبكالوريا . وبما أن الاستاذ حامل لجميعها يظن نفسـه من جوهر رفيع . ولحدوث هذا الظن عنده ثم شعوره باعتباره القليل فى الحيـاة وراتبه الضئيل يفكر فى اقامة مجتمع جديد ينال فيه مكاناً علياً جديراً بفضائله . ولو أنعم الاستاذ النظر فى حقائق الامور لرأى الناس يتفاوتون فى العالم بمزايا تختلف عن صفة الذاكرة التى بها تنال الشهادات .

ولا تغير الحوادث شيئاً من عقول اساتذتنا . فهم لا يرون فيها غير الحيف والجور . وهى لا تؤدى الا الى مقتهم المجتمع الحاضر الذى يعدون انفسهم من ضحاياه . وقد زاد حقدهم على المجتمع عند ما اكرهوا بقانون وضع حديثاً على ملازمة الثكنات تحت إمرة عرفاء غلاظ قليلى التهذيب فى الغالب . فمجتمع يجيز وضع حاملى شهادة الليســـانس أو شهادة الدكتوراه تحت قيادة أناس جاهلين هو سيء النظام خليق بالتبديل !

ونعد اكراه رجال العلم والقلم على ملازمة الثكنات من أشد العوامل فى انتشار المبادىء غير الوطنية القائلة بتسريح الجيش . وقد سرت هذه المبادىء من علية الاساتذة الى أصغر المعلمين شأناً . قال (پول آدم) « تململ المعلم فى حجرته يســـوقه الى مقت الجندية . وهو من السذاجة بحيث لا يقدر على تصور الخطر الذى يحيق بالبلاد من جراء تسريح الجيش فى وقت يزيد فيه أنصار الجامعـــة الجرمانية ميزانية الهجوم الالمانى حتى يقتحموا حدودنا بجيوشهم الجرارة . وهو من البســاطة بحيث لا يدرى أن شيوع مبدإ عدم الجندية مؤد الى تسليم مصير الامة الى العدو »

. وهكذا يتدرج المعلمون الى المذاهب الفوضوية . ولم يجرؤ الوزراء على الوقوف امام هذا التيار الخطر الذى تقتضى إزالتـــه عزماً قوياً . على أننى لا أرى انتقاد هؤلاء المعلمين ، فهم لا يفعلون غير إلقاء ما يتلقونه فى المدارس العالية وما يكرهون على تدريسه من الكتب الموجزة التى ألفها أساتذة الجامعات ولا سيما أعضاء المجمع العلمى وأركان (الصوربون) . ومن دواعى الاسف كون اكثر هـــذه الكتب غير جديرة بالاعتبار . وأعجب ما فيها كونها مشبعة من التعصب النفسى . فلقد أشارت الصحف حديثاً الى الشروح ذات المسحة اليسوعيــة فى كتاب تاريخ ألفـه أحد أساتذة (الصوربون) المعروفين . وأشياع للتعصب مثل هذا الاستاذ يحاكون رجال عهد محاكم التفتيش . ولو لم تكن تلك الكتب كثيرة الملل لأثرت فى خيـال الناشئة تأثيراً خطراً وتألف منهم جيل من العصاة لا يعرف للوطنية معنى .

وإن الحزن ليستولى علينا عند ما نرى أساتذة فى (الصوربون) وأعضاء فى المجمع العلمى بلغ فيهم حب استرضاء رؤساء الجامعـات مبلغاً جعلهم يفسرون حوادث الماضى التاريخية بالمبادىء الحاضرة . ومنهم من دفعه الخوف الى عدم ذكر اسم الله فى مؤلفاته المختصرة وإلى عدم التردد فى تشـــويه أمثال (لافونتين) . فكل يعلم حكاية السمكة الصغيرة التى يقول عنهـا (لافونتين) إنها تصبح كبيرة إذا أطال الله عمرها ، فجاء المؤلفون الجدد وحولوا هذه الكلمة الى العبارة القائلة ، إن السمكة الصغيرة تصبح كبيرة اذا طال عمرها .

☆
☆ ☆

يمكن تقدير عدد القراء الكثيرين لكتابى الذى فصلت فيه مبادىء التهذيب النفسية من إعادة طبعه عدة مرات ، ومع ذلك لا يزال تأثيره فى رجال الجامعات ضعيفاً . لانهم حصروا أنفسهم فى دائرة البرامج المتعبة فلا يستطيعون إلا تدريس مضامين تلك البرامج حسب الطرق التى تقتضيها . على أنه كان لمباحثى صدى مهم فى المدرسة الحربية التى تحررت من ربقـة الجامعة كما هو معلوم . فقـد شمر الجنرال (بونال) والكولونيل (مودى) وغيرهما عن ساعد الجد فأخذوا يدخلون الى قلوب صفوة ضباطنا المبادىء الاساسية التى شرحتها فى كتابى « روح التربية » والتى أعد من أهمها المبدأ القائل إن التربية هى تحويل

الشعورى الى غير شعورى . وفضلا عن ذلك نشر القائد (غوشيه) كتاباً فى روح الجيش والقيادة مستنداً الى طرق التربية التى أشرت اليها . فهذا النجاح الذى ماكنت أنتظره يؤيد ضرورة التصريح بما يجب ولو انفرد المصرح برأيه (١)

*
* *

قد نستنبط معارف كبيرة من تاريخ المساعى العقيمة التى بذلت لتبديل نظام تربيتنا . فلو أن التجربة لا المنافع الراهنة هى التى تبعث مشترعينا على العمل لاطلعوا على بطلان مشاريع الاصلاح التى يأتون بها ولعلموا أن روح الشعب لا تتجدد بالقوانين . فالقوانين لا تكون شافية مؤثرة الا اذا اشتقت من روح البلاد . وهى عاجزة عن تكوين هذه الروح .

ويقتضى حدوث أزمات اقتصادية كثيرة ووقوع انقلابات عديدة لندرك أن العلم والصناعة ساقا العالم الى طور أصبح فيه لبعض الصفات الخلقية شأن كبير فى حياة الامم، وأن الذين سيقبضون على زمام العلم والصناعة والتجارة هم الرجال المتصفون بملكة الاستنباط والاختبار وقوة الارادة وصحة التمييز وضبط النفس . وهذه صفات لا تؤدى طرقنا التهذيبية الرسمية الى تزييننا بها .

ولقد توصل الموسيو (ريبو) رئيس لجنة البحث التهذيبى البرلمانية الى أن نظامنا التعليمى هو المسؤول عما فى المجتمع الفرنسوى من شرور . وانى بعد أن بحثت فى الامر كثيراً لا أتردد فى القول إن أساتذة مدارسنا هم أساس كل بلاء فى فرنسا .

---

(١) إن المبادىء المشروحة فى كتابى « روح التربية » وان كان نجاحها ضئيلا فى فرنسا صادفت اقبالا كبيراً فى الممالك الأجنبية . يدل على ذلك ترجمة الدوك الاكبر (قسطنطين قسطنطينويش رئيس المجمع العلمى الروسى واستاذ المدارس الحربية الاعظم — للكتاب المذكور كى يدرس فى المدارس التى يديرها

الباب الثالث

الحكومة الشعبية

الفصل الاول

صفوة الرجال والجماعات

يواجه العالم فى الوقت الحاضر مسئلة نمت بتعاقب القرون . ومن الضرورى حلها لكيلا تقع الشعوب فى طور الهمجية .

إن من مميزات الحضارة فى زماننا هو التفاوت التدريجى بين أنواع الذكاء ومن ثم بين المراتب الاجتماعية . وعلى رغم ما يقال فى المساواةمن النظريات وما تميل اليه القوانين من المقاصد يزيد التفاوت الذهنى المذكور . وعلة ذلك اشتقاقه من مقتضيات الطبيعة المحررة من سلطان القوانين .

أصبحت مبتكرات العلم والفن محركة المدنيات الحديثة . وصار الوقوف على هذه المبتكرات المعقدة يتطلب معارف نظرية وعملية واسعة وقوة استنباط شديدة وملكة تمييز سديدة لا تكون إلا فى ذوى المبادىء السامية ، و بالنسبة الى تكاثر كفاءة القادة نقصت أهليـــة الفعلة . ومبدأ توزيع العمل واتقان الالات جعل شأن الفاعل سهلا والتخرج لا طائل تحته .

وعلى الوجه المذكور تألفت طبقات متباينـــة فصلت بينها هوة تزيد كل يوم عمقاً . وقلما تجعل التربية المرء يجتاز تلك الهوة . فالتربية لا تمنح الرجل سوى قليل من الصفات الضرورية للنجاح فى الوقت الحاضر

ومما يغيظ أنصار المساواة بلوغ صفوة الرجال شأناً لا غنية لبقية الناس عنه . ولكن لا مناص من ذلك . فانعموا النظر فى عناصر الحضارة تروا صفوة الرجال مصدر مبتكرات العلوم والفنون والصناعات ومنبع رفاهية ملايين من العمال : فاذا كان العامل يكسب اليوم ثلاثة أضعاف ماكان يكسبه منذ قرن ويتمتع بأطايب لا عهد لامراء لويس الرابع عشر الاقطاعيين بمثلها فذلك بفضل خيرة الرجال الذين يشتغلون له اكثر مما لانفسهم .

من أجل ذلك يعظم شأن صفوة الرجال وتكثر جهودهم . ومساعى أقطاب الصناعة على الخصوص هى أساس الاكتشافات والمبتكرات . وهؤلاء الاقطاب وان كانوا ينالون فى الغالب ثروة كبيرة تورث نفوس القائلين بالمساواة غماً شديداً . يتراوحون بالحقيقة بين الغنى والافلاس دون أن يأملوا الحصول على الحالة الوسطى ، والغنى يتفق لهم بعد إكثار من النظر الى العواقب ودقة فى الادارة وتنظيم للاعمال ، والافلاس يدركهم عند ما يزلون عن الصواب قليلا . فكأنه لا يحق لهم أن يخطئوا . وفى اكثر المرات ينطوى تحت ابهتهم الظاهرة كثير من الهموم . فاذا أقاموا مصنعاً مجهزاً بأحسن الالات فسرعان ما يحملهم اكتشاف جديد أو مزاحمة غير منتظرة على تجديده . وقد اشتدت المزاحمة وصارت كتشافات المختبرات مفاجئة وأصبح عدم الاستقرار شاملا فحرم الرجال الذين يديرون المشاريع سكون الخاطر وراحة البال(١)

كان الناس فى القرون القديمة لا يغتنون إلا بعد أن يوقعوا ضرراً بالاخرين وأما الان فمن الصعب أن يغتنى فريق من غير أن يوجب غنى الباقين . وهذا ما أشار اليه الموسيو (دافنيل) فى الاسطر الاتية وهى : « كان الاغتناء يقع فى الازمنة الاقطاعية

---

(١) أقطاب الصناعة يميلون الى التخلص من التبعة بتحويلهم مصانعهم الى شركات مساهمة وفى هذه الشركات يتجلى شأن أولى القابلية العالية أيضاً . فقد دل البحث فى جميع مشاريع العالم ولاسيما مشاريع بلجيكا على أن أرباح المصانع التى يديرها أصحابها عشرة فى المئة مع أن المصانع التى تخص شركات المساهمة لاتعود على المساهمين الا بأربعة فى المئة من ثمن الاسهم وكثيراً مايصيبها الافلاس

ومع انه يجب أن تكون الرواتب فى الامور الصناعية والمالية بحسب الاستحقاق يسير الامر على خلاف ذلك . فقد جاء فى احدى الصحف أن كل واحد من المديرين الاثنى عشر الذين يديرون احدى شركات الاعتماد الكبيرة فى بلادنا يتقاضى فى كل شهر ثلاثمئة الف فرنك على حساب المساهمين وإن كان العمل الذى يأتى به قليلا الى الغاية

بعد حروب فردية مؤدية الى خراب الجيران، ثم صار بالمرابأة فبامتلاك أموال الدولة وفى هذه الايام يكون باغناء المجاورين والدولة. فالثروة المكتسبة ليست الان باختلاس الشعب أو الملك بل أخرجها العلم عن يد خواص الرجال من العدم فاستفاد الكل منها. »

*
* *

اذاً لا تقدر المدنيات الحديثة التى أوجدها صفوة الرجال على العيش والتجدد إلا بهؤلاء. وهذه حقيقة ضرورية لفهم المعضلة الاتية وهى: بينما توجب مبتكرات العلوم قبض صفوة الرجال على زمام المعايش الحديثة، يمنح تقدم المبادىء السياسية الجموع المنحطة بمزاجها النفسى حق الحكم بالتدريج ويسمح لها بالاسترسال فى أشد الاهواء خطراً على يد نوابها.

فلو أن الجموع تختار صفوة الرجال الذين يسيرون دفة الحضارة قادة لها لتم حل المعضلة. غير أن هذا الإختيار لا يقع إلا على قلة. فالجموع لا تسلم بصفوة رجال الصناعة وهى تسعى فى تجريدهم من أموالهم بواسطة نوابها فى البرلمان.

وهكذا تم انقسام المجتمعات الحاضرة الى طبقات مختلفة سيشاهد المستقبل تنازعها. وكيف يوفق بين هـــذه الاختلافات؟ وكيف يعيش خواص الناس الذين لا تبقى امة بدونهم مع جموع العمال الذين يودون سحق الخواص كما فعل البرابرة فى روما؟

أجل إن المعضلة صعبة ولكنه لا يتعذر حلها. فلقد علمنا التاريخ أن الجموع شديدة المحافظة على رغم غرائزها الثورية الظاهرة. وهى لا تلبث أن تبنى ما هدمته. وعلى هذا مهما يبلغ حب التخريب فى الشعب فانه لا يحول دون تطور الامة زمناً طويلا. غير انه لما كان تجديد ما هدم فى يوم واحد لا يتم أحياناً الا فى قرون كثيرة صار من إصالة الرأى أن يحال دون الهدم.

وأسهل طريقة لمعالجة ذلك تقليل السلطة الشعبية. غير أن تطور الحكومات الديموقراطى فى جميع البلدان يدلنا على أن السلطة الشعبية بنت بضع ضرورات نفسية لا يجدى ذمها ولومها نفعاً. فعلى صفوة الرجال أن يمتزجوا بالحكومات الشعبية وأن يحولوا دون تنفيـــذ أهواء الجماعات بما يضعونه من الحواجز كما يفعل المهندسون فى معالجة السيول بالاسداد.

ولنعلم أن مذهب السيادة الشعبية لا يناقض العقل اكثرمن أن تناقضـــه المذاهب الدينية التي عاش بها البشر فى الماضى ولا يزال يعيش تحت ظلها كثيرمن الناس . و يظهر لنا من مطالعة كتب التاريخ أن الانسان يلتئم بأى شيء اكثر منه بالمعقول . و يكون التئام صفوة الناس بالجموع كثير السهولة لو لم يبـــذر زعماء الاحزاب فى نفوس الجموع أضاليل وأحقاداً هي السبب فى ما بين طبقات الامة من البغضاء .

وتزول تلك البغضاء يوم تدرك الجموع أن زوال صفوة الناس أو ضعفهم يؤدى الى فقرها ثم الى هلاكها ، وعلى ما فى إثبات هـــذه الحقيقة للجموع من صعوبة أرى من الواضح وضوحاً لا غبار عليـه هو أن إدارة المصنع من غير رئيس أو إدارته من قبـل موظفى الدولة كان ممكناً فى أوائل القرن الماضى حين كانت أمور الفن فى دورها الابتدائى ، وأما اليوم فمستحيل .

ولا يفتأ الاشتراكيون — وهم البعيدون من الحقائق التائهون فى الاوهام — ينشرون بين البسطاء خيالات يؤدى تحقيقها الى هلاك البسطاء خاصـة ، والاوهام التى تطبع على قلوب العامة تتجلى فى الـكلمة الاتيـة التى قالها أحد مفوضى العمال فى المؤتمر الاشـتراكى المنعقد فى شهر فبراير (شباط) سنة ١٩١٠ واليكها: « ليس لتحريركم سوى تحويل أملاك المتمولين الى أملاك اشتراكية تديرونها بأنفسكم ولانفسكم. فبذلك تصبحون يا معشر أرقاء المتمولين أحراراً منتجين مشتركين . »

وسيكون مصيرمصنع يديره العمال كمصيرسفينة يديرها ملاحون بلا ربان . ولا ريب فى أن أجل ذلك المصنع يمتد قليلا عندما يقبض على زمامه مفوض من قبل حكومة اشتراكية ، ولـكن بمـا أن هذا المفوض يمتنع عن تبـديل شيء فى المصنع ينحط المصـنع بدلا من أن يتقدم فتنقص الاجور .

ولا أعتذر عن إسهابى فى الدفاع عن مثل هذه الحقائق المبتذلة . لانها لا تزال مجهولة عند ملايين الناس . وها قد أخذت تنتشر فى كثير من الممالك كانكلترة والبلجيك فنشأ عن ذلك عدم اكتساء الاشتراكية فى تلك الممالك أشكالا ظالمة باغية كما هو الامر فى البلدان اللاتينية حيث تحولت الاشتراكية الى حرب بين الطبقات .

ولعدم اطلاع الناس على بعض المبادىء الاولية نقول بضرورة إحداث تربية جديدة

فى دورنا الديموقراطى، على أن يكون المقصد الاول لتلك التربية تعليم الناس خط الوصل بين العناصر الثلاثة للحركة المعاشية: الذكاء، ورأس المال، والعمل.

☆
☆ ☆

وربثما يقع ذلك الاصلاح الذى لم نبصر منه وميضاً بعد نعيش بين الجماعات التى نقول عنها ما يأتى:

الحكومة الشعبية لا تعنى الحكم بواسطة الشعب بل تعنيه بواسطة زعمائه، وليست الجموع هى التى تحدث الرأى وانما تعانيه، وبعد أن ينومها تسعى فى حمل الناس عليه بشدة، وهذا ما نسميه جريان الرأى.

والحق أن الجماعات لا تسبب جريان الرأى. وكل ما تفعله هو أنها تمنح الرأى قوة لا تقاوم. فعندما أعدم الفوضوى (فيرير) الذى لم يسمع سكان باريس عنه شيئاً استطاع بعض الزعماء أن يسوقوا ألوفاً من الرجال ليهجموا على السفارة الاسبانية، وبعد أن أوغر الزعماء صدور هذه الالوف بخطبهم جعلوها تقترف أنواع المظالم ومنها النهب والقتل، والخوف هو الذى دفع أولئك الزعماء الى أمرها فى اليوم الثانى باقامة مظاهرة سلمية فأجابتهم الى طلبهم طائعة.

لا حد لانقياد الجماعات لمن يعرف كيف يقودها، وقد أتقن أكابر الزعماء فى زماننا أمر سياستها، فمن هذا تعلم أن حكومة الجماعات ليست بالحقيقة سوى حكومة الزعماء.

وبما أن الزعماء هم الذين يحدثون الرأى، أصبح من المهم أن نعرف كيف يحدثونه. وهنا تبدو لنا أهمية روح الجماعات، فمعرفة روح الجماعات اكثر ما يحتاج اليه أولو الامر فى نظام ديموقراطى كنظامنا، وقد استوقف هذا الاحتياج نظرى منذ خمس عشرة سنة فوضعت كتابى « روح الجماعات » الذى كانت مواضيعه مجهولة آنئذ فأصبحت أساس كثير من المباحث.

ولا أريد أن أكرر هنا صفات الجماعات وأطوارها الخلقية بل أقتصر على بيان عدد قليل منها ظهر بوضوح فى حوادث جديدة، وانى قبل كل شىء أقول، إن روح الجماعات إذا أخذ الناس يعرفونها فذلك لأن ضباط الجيش ينشرون ما جاء فى كتابى من القواعد

والمبادىء ولتدريسها بنشاط فى المدرسة الحربية. وأما ساستنا فقلما يعرفون شيئاً منها بدليل أنهم لم يكفوا بعد عن الاعجاب بحكمة الجماعات وصحة تمييزها وحسن ذوقها مع أنها أبعد الاشياء من هـذه الصفات ، نعم قد تبـدى الجماعات أحياناً بطولة و إخلاصاً تاماً لبعض المقاصـد ولـكن صحة التمييز لا تصدر عنها أبداً .

ولا شك فى أن آراء مشـترعينا فى النفسية الشعبية لا توافق الحقيقـة . فلما تصور هؤلاء أن الشكر فضيلة جموعية أخذوا يكثرون من سن قوانين عقيمـة خطرة لينالوا حظوة عند الجماعات . وهم لجهلهم أن الجماعات تحتقر الضعف لا يعلمون أن الهبات التى يمنحونها إياها إزاء ما تأتى به من الوعيد تؤدى الى تجريدهم من كل نفوذ فى نظرها . وكل ما تفعله هذه الهبات فى نفوس زعماء الجموع هو جعلهم يعتقدون أن العنف يكفى لنيل المآرب والاغراض .

ولا أشرح هنـا ما تختلف به روح الجماعات عن روح الفرد من طرز فى التفكير و بواعث للحركة ومن منافع . بل أشير الى أن الجماعات تتصف بالعجز عن التعقل و بأنها لا تؤخذ بالمعقولات و ببساطتها وشدة انفعالها وسرعة تصديقها . و بأن الافكار لا تؤثر فيها إلا بعد صوغها فى صيغ موجزة مولدة للخيالات . كأن يدل رأس المال عندما يذكر لها على غنى مكسال مبطان يعيش من كد الشعب وجده . وكأن تدل الحكومة على الشرطة والجيش ، والـكهنوت على حكومة من القساوسة ، والاشتراكية على حكومة تنزع أموال الاغنياء وتجعل العمال يأكلون و يشربون دون أن يصنعوا شيئاً .

وقد علم رجال السـياسة بغريزتهم أن الجماعات عاجزة عن صـوغ كثير من الافكار دفعة واحدة وأن الصيغ الشديدة الواضحة عظيمة التأثير ، فتراهم يسعون أيام الانتخابات فى إيجاد كلمات تخلبها وتكسب قلوبها ككلمة «الخطر الاكليروسى» و«ضريبة الدخل» الخ.

والانكليز سباقون فى هذا المضمار ، وقد أثبتت لنا انتخاباتهم الاخيرة ما للصيغ البسيطة المؤكدة من التأثير فى النفوس ، فقد جاء على انكلترة حين أصبحت فيه مستورة باعلانات مصورة خاليـة من التصريحات الطويلة التى يكثر منها مرشحو البلدان اللاتينية ، وفى الاعلانات التى نشرها المحافظون لم يذكروا سوى بضـع صيغ كقولهم ، إن انتخاب مرشحي الاحرار هو انتخاب ضـد قوة انكلترة البحرية . ولا يعسر إدراك ما يكون لمثـل هذا القول من التأثير فى بلاد يعد أهلها القوة البحرية سبب السيادة والعظمة .

والصور تزيد تلك الصيغ القاطعة قوة . ونعد من الاعلانات المصورة التى أوجبت كثرة فى عدد ناخبى أحد الاحزاب ذلك الاعلان الكبير المقسوم الى قسمين : قسم يحتوى على تاريخ سنة ١٩٠٠ وعلى مدرعة مرقوم عليها قوة الاسطول الانكليزى وعلى سفينة صغيرة تدل على الاسطول الالمانى ، وقسم يحتوى على تاريخ ١٩١٠ وعلى مدرعة المانية مهمة كالمدرعة الانكليزية . فبهذا أظهر المعلنون للناخبين درجة الخطر الالمانى وعزم حزبهم على مقاومته فلفتوا النظر الى مرشحيهم .

وتقوم هذه الاساليب على معرفة الروح الشعبية وكيفية تحريكها وسرعة تصديقها وتأثير الالفاظ المكررة فيها . وإذا كانت النتائج المبتغاة لا تتحقق فى انكلترة فى كل وقت فلان جميع أحزابها تتذرع بأساليب متماثلة موجبة بلبلة الناخبين مؤدية الى سيرهم حسب تلقين الحزب الذى ينتمون اليه

ويسهل تهييج الجموع لشدة إحساسها . ولا يعسر تحويلها لسرعة تقلبها . فالجموع التى تتوج بحماسة البطل فى معبد (الكابيتول) قد تدهوره من شاهق (تاربيان) بمثل تلك الحماسة . فروبسبير الذى كان قبل سقوطه بيوم معبود الشعب الباريسى سيق فى اليوم الثانى من سقوطه الى المقصلة بين صفير هذا الشعب وشتمه . وكذلك (مارا) الذى دفن فى (البانتيون) بين تهليل الجموع رميت جثته بعد بضع سنوات من قبل هذه الجموع فى المرحاض . وما كان مصير جثة (كرومويل) بأحسن من ذلك

والزعيم الحقيقى لعلمه أن الجماعات خالية من العقل لا يحاول غير التأثير فى عواطفها . وبما أن خصمه يفعل بحكم الضرورة مثله يكون النجاح النهائى حليف من يشاغب ويشتد أكثر من الاخر .

وقد بلغ العنف مبلغاً جعلنا نرى بعد الانتخابات الاخيرة وزراء انكليزيين مشتهرين عادة باستقامتهم يسبون معارضيهم فى خطبهم الشعبية بمثل ما كان يسب به اليعاقبة خصومهم أيام الثورة الفرنسوية . ففى خطبة عامة القاها وزير المالية المستر (لويدجورج) صرح « أن مجلس اللوردات عبارة عن جماعة من الانذال الادنياء الفاقدى القيمة الذين ليسوا من الشهامة بحيث يفعلون الخير ولا من الجسارة بحيث يصنعون الشر » . وشتائم مثل هذه يكررها الوزراء فى دوائرهم الانتخابية كل يوم .

ومما يجدر ذكره أن شعور الجماعات بسلطانها وعدم مسؤوليتها يجعلها كثيرة الانفعال شديدة الغرور . وما وقع فى الايام الاخيرة من حوادث أشرنا اليها فى هذا الكتاب يؤيد صحة ذلك . ثم ان مشاعر الجماعات مفرطة على الدوام . وهذا هو العلة فى أن الجماعات وإن كانت ذات غرور كبير لا حد لاطاعتها ودناءتها عندما يرأسها رجل ذو نفوذ . فلقد أوضحنا درجة السهولة التى احترمت بها طوائف العمال الاوامر العقيمة الجازمة التى أمرتها بها رجال الثورة .

☆
☆ ☆

لنذكر بجانب نقائص الجموع مزاياها .

عجز الجموع عن التعقل ينمى فيها محبة الغير التى يضعفها العقل مع أنها فضيلة اجتماعية مفيدة ، فالرجل الذى ينظر الى الامور بعين العقل هو رجل ذو أثرة قلما تجعله يضحى بنفسه فى سبيل المصلحة العامة مع أن الجماعات تأتى بمثل هذه التضحية . وبفضل الجماعات وحدها ظهرت أعظم الدول وتم سلطانها . وبما فى الجماعات من بطولة واخلاص وفضائل أخرى تعيش الحضارات .

ومن الصفات التى تتصف بها ذهنية الشعب سرعة التصديق . ولا حد لسرعة التصديق فى الجموع . فكل شىء ممكن فى نظرها . فاذا طلبت القمر وجب وعدها به ، ولا يتأخر رجال السياسة عن الاتيان بمثل هذه الوعود أمامها ، وفى معركة إنتخابية إذا اتهمتم خصمكم بأبعد الافتراءات من المعقول فسرعان ما تصدقون . وانى أنصحكم بأن لاتعزوا اليه اقتراف جنايات مغمة خوفاً من أن يصبح محطاً لعواطف سامعيكم . فالجموع تبدى نحو أكابر المجرمين شيئاً من الاعجاب والاحترام على العموم .

وما فى الجماعات من الافراط فى سرعة التصديق ليس خاصاً بها . فسرعة التصديق لا الشك هى التى تلائم حالتنا الطبيعية . نعم لا ينقصنا شىء من ملكة الانتقاد فى الامور التى تتعلق بمهنتنا . ولكننا عندما نتجاوز دائرة هذه المهنة الضيقة لا يبقى فينا من ملكة الانتقاد سوى القليل، ولذا أحذر القارىء من القول بشك اللاأدريين . فهؤلاء لا يفعلون فى الغالب غير تبديل سرعة تصديقهم موضعاً ، فجنات الاشتراكية حلت عندهم فى مكان جنات كتب القصص وقامت الموائد المتحركة والتنويم المغنطيسى وعبادة الرجال فى نظرهم مقام الالهة القديمة .

وعندما يطمع الناشر البسطاء بأرباح كبيرة فى اعلان ينشره حسب ما يقتضى ينال كسباً كبيراً . فهاهى كتائب الماليين تعيش من وراء ماتنشره من الوعود الخلابة . ولا يتطلب تنميق هذه الوعود خيالا واسعاً . فيكفى لنجاحها تكريرها بألفاظ واحدة .

روت جريدة (لوغلوب) تاريخ أسهم بعض المناجم فى جمهورية الارجانتين فقالت إن حملة هذه الاسهم لم ينالوا شيئاً بعد وانه كلما مرت ستة أشهر توزع ملايين من الاعلانات يجىء فيها أن حملة الاسهم سيعطون أرباح أسهمهم وأنه لما كانت قيمة هذه ستزيد عشرة أضعافها يجمل بالجمهور أن يقبل على ابتياعها . والجمهور لما يتصف به من سرعة التصديق يتهافت عليها خوفاً من ضياع الفرصة . وعلى رغم مضى خمس سنوات من غير أن يوزع فيها شىء من الارباح على المساهمين اشترى الجمهور من تلك المناجم باثنى عشر مليوناً أسهماً لا تساوى قيمتها بالحقيقة ثقل ورقها .

والامور التى من هذا النوع كثيرة الى الغاية . وقد أضافت تلك الجريدة الى روايتها ما يأتى : « سرعة التصديق فى الجمهور كثيرة ، فالجمهور لا يطلب دليلا ولا يعرف المستحيل . وتقوم الوعود وضروب التوكيد عنده مقام الادلة . واكثرشىء يؤثر فيه الاعلانات ذات الهذر والثرثرة ، وهو لا يبالى بتكذيب الحوادث للامال التى أوجبتها فيه تلك الاعلانات بل هو هو فى بقائه مسلما لا يتعدى بصره حدود أنفه . »

وبتطبيق ما ذكرناه على عالم السياسة يتجلى لنا سر نجاح بعض الاشخاص والمذاهب . فالنجاح فى ميدان السياسة قائم على وعد الاوهام والتوكيد بلا دليل وتكرار الوعود نفسها تكراراً متصلا ومزايدة الخصم فيها .

ومع كل ما بيناه لا نتوجع كثيراً مما فى الجمهور من سرعة التصديق . فالعوامل التى تؤثر فى تكوين المدنيات كعامل سرعة التصديق قليلة جداً ، وبفضل هذا العامل خرجت الديانات من العدم وتأسست أقوى الدول . فسرعة التصديق تجعل الايمان أمراً ممكناً وتحافظ على ما تستند اليه عظمة البلاد من التقاليد . وما هو الذى يدافع عن الايمان بالوطن والايمان بالمثل الاعلى والايمان بالمستقبل غير سرعة التصديق ؟ إن الشعوب التى تضيع كل إيمان فيها تضيع نفسها وبواعث السير فيها . وهى بانحطاط مستمر تلحق بالشعوب الغابرة التى قوض الشك أركانها .

الفصل الثانى

الاقناع

المؤثرات الشعبية تؤدى فى الغالب الى وقوع بعض الحوادث السياسية على وجه مفاجىء داع لدهش الجمهور و ولاة الامور. وقد تجلت هذه المفاجأة فى الانقلاب التركى الذى أوجب قلب حكومة تقليدية متأصلة كثيراً وفى اعتصاب موظفى البريد الذى أعلن فى ثانية واحدة و فى عصيان برشلونة الذى تحول فيه بغتة كثير من الرجال المسالمين الى أشقياء سفاكين حرقوا الاديار والكنائس ونبشوا القبور.

والشروح النظرية التى قيلت لايضاح هذه الانقلابات لم تصب كبد الحقيقة. فيجب لاكتناه الانقلابات طرح المنطق العقلى. فالمنطق العقلى وان كان يصلح لتصور علل وهمية تفسر بها الحادثات لا يقدر على إيجاد الحادثات أبداً.

لا ريب فى أن تلك الحركات الشعبية ليست بنت المصادفة والاتفاق. ولكن العوامل اللاشعورية التى أوجبتها تخضع لاحكام نواميس لم تدرس درساً كافياً بعد. على أن الانقلابات الفجائية المذكورة تنشأ فى الغالب عن تأثيربضعة زعماء. ولذا نرى أن نبحث عن الكيفية التى يسير بها هؤلاء الزعماء وعن السبب فى أن تأثيرهم فى بعض الاحيان يكون سريعاً صائباً و إن كان ما يتذرعون به من الوسائل يبدو لنا كأمر حقير.

*
* *

كنت لا أزال صغيراً عند ما تيسر لى فى ميدان احدى المدن الصغيرة اخذ درس نفسى مؤثر فى الموضوع. وقد مضت ثلاثون سنة حتى تم إدراكى لمغزاه.

وليس الدرس نفسه هو الذى أثر فى آنئذ بل مبدع الدرس ذو البرد المذهب المحلى بالاحجار الكريمة. وهل كان هذا الرجل من الاكاسرة أم من المرازبة أم من امراء الهند

الذين ورد ذكرهم فى كتب القصص والاساطير؟ كان عرشه الساطع فوق مركبة يجرها أحصنة ذات سروج أرجوانية وكان خلفه محار بان شاكيان سلاحاً لامعاً يناديان ببوقيهما الفضيين مناداة ذات رنين وأسرار. وفى تلك الاثناء كان الناس يتقاطرون من كل صوب وحدب حتى ضاق الميدان بهم فأشار الرجل على المناديين بالصمت فاستولى على الكل سكوت عميق. وفى وسط ذلك نهض الرجل فالقى خطبة استمعت الجماعة اليها استماع المسحور لساحره.

ولا أعلم ماذا قال فيها. لانني كنت بعيداً منه، وانما علمت أنه أتى من بقاع بعيدة — كان يتألف منها ملك سبأ — ليبيع الناس بأثمان بخسة علباً سحرية تحتوى على مسحوق عجيب قادر على شفاء جميع الامراض ومنح السعادة.

ثم سكت الرجل فعاد البوقان الى المناداة فتهافتت الجماعة المسحورة على اشتراء العلب. وقد كنت أفعل مثلما فعلت الجماعة لوكان فى جيبي شيء من المال.

نعم إن صيدلى المدينة الشاب الشديد بين أن العلب لا تشتمل على غير السكر، ولكن ماذا تكون قيمة أقواله إزاء كلام رجل لابس ثوباً مذهباً وو راءه محار بان وقوران؟

مضت السنون فقل تأثير ذكرى ذلك الدجال الذى خلبنى أيام كنت صغيراً. ثم صرت طالباً فى المدارس الثانوية فنلت فيها معارف لاغية. ومنها علم المنطق الذى به نعتقد ونسير كما كان الاساتذة يقولون لنا.

على أننى لم أنس قط ذلك الدجال. فمع ما فى مسحوقه من عناصر تافهة كان ذا تأثير، فما هو سر هذا التأثير يا ترى؟ بعد أن أنعمت النظر كثيراً فى المعضلة اهتديت الى أن الدجال المذكور استعان بغريزته بالعوامل الاساسية التى تشتق منها حياة الشعوب ومجرى تاريخها. فما كان يبيعه هو الامل أى العنصر غير المادى الخالد الذى يقود العالم. وهل باع أحبار الاديان ورجال السياسة فى كل جيل شيئاً غير الامل؟

واذا كان ذلك الرجل الماهر أورث سامعيه إيماناً بصحة ما قاله فلاستناده — كجميع مؤسسى المعتقدات — الى العوامل الاربعة فى إدخال الايمان الى قلوب الجماعات وهى: اولا النفوذ. وهو الذى يوحى الى النفوس بالامر ويلزمها إياه. ثانياً التوكيد غير المبرهن وهو الذى يعفى من المجادلة. ثالثاً التكرار وهو الذى يجعل المرء يسلم بصحة الاشياء المؤكدة. رابعاً العدوى النفسية وهى التى يتحول بها يقين الفرد الضعيف الى يقين قوى.

فى هذه العوامل الاربعة عناصر الاقناع الاساسية . فاذا قال لكم أساتذة المنطق أضيفوا اليها عنصر العقل فلا تصغوا اليهم . وهى تطبق على أحوال مختلفة . فبها يتذرع باعة الاكسير والاوراق المالية المنحط ثمنها والامبراطور الذى يود أن يلزم رعيته ضرائب فادحة لانشاء اسطول حربى عظيم .

وعوامل الاقناع لا تؤثر فى غير المشاعر أى بواعث السير فينا . وهى قلما تهيمن على العقل والذكاء . ولذلك لا تفيد الاستاذ الذى يأتى بالبراهين والعالم الذى يشرح احدى التجارب . فالاستاذ والعالم يبحثان بالحقيقة فى المعارف لا فى المعتقدات .

تختلف المعرفة عن المعتقد . وقد لاحظ افلاطون ذلك فأشار الى انهما لا يقومان على أساس واحد . فالمعارف تتضمن أدلة وبراهين . وأما المعتقدات فليس فيها شىء من ذلك . وهذه هى العلة فى أن جميع الناس لهم معتقد مع أن عدد الذين يصعدون منهم الى سماء المعرفة قليل جداً .

ولا يستفاد من عناصر الاقناع الا توليد آراء ومعتقدات قائمة على المشاعر .. ومن هذه الاراء والمعتقدات تشتق أكثر أفعالنا . فالذى يقدر على ايجادها هو الذى يكون سيدنا .

والخطيب الذى يخاطب عقل سامعيه كما يرى ذلك كثير من علماء المنطق لا يقنع أحداً ولا يصغى اليه . وهو يملك قلوبهم ويستولى على مشاعرهم إذا أتى بأوضاع وحركات وصيغ وألفاظ تحدث فى نفوسهم صوراً وخيالات . فالبقعة التى على الخطيب أن يرودها هى بقعة اللاشعور التى تنبت فيها أدواح أفكارنا لا بقعة العقل والذكاء .

يؤثر فى اللاشعور بالوسائل التى ذكرتها آنفاً وهى النفوذ والتلقين الخ ونضيف اليها العامل الشخصى المؤلف من عناصر كثيرة الاختلاف متعذر ضبطها تحت قاعدة فالخطيب الذى يستهوى الافئدة يخلب ألباب الناس بشخصه اكثر منه بكلامه . فكأن روح سامعيه مزهر يتأثر من أقل تلحين عليه وهو يعلم ماذا يجب أن يقول وكيف يقول . ولا يعرف الخطيب العامى والسياسى الجبان سوى تملق الجموع بدناءة والاذعان لما تأمرهما به أى إنهما على خلاف الزعماء الحقيقيين الذين يسحرون الجموع حتى لا يكون لها غير ما لهم من رأى وعزم .

ويظهر أنه يبرز من هؤلاء الزعماء مؤثرات جاذبة خفية . فكل من عنده شىء من هذه المؤثرات لا يبقى له احتياج الى الاتيان بالادلة ويكفيه الكلام المؤكد . واذا كان

كابر الخطباء يلجأون أحياناً الى الشرح والتفسير عند ما يرون خطبهم ستنشر فلأنهم يعلمون أن الاقناع كتابة يختلف عنه خطابة . على أنه قد يكون لنفوذ الزعيم الشخصى أثر فى خطبه المكتوبة . فلو نظرنا الى أعاظم الكتاب — مثل روسو — لرأيناهم يقنعون الناس بنفوذهم اكثرمما ببراهينهم التى تكون فى الغالب ضعيفة .

واكبر عدو للخطيب هو المعتقد المتين الراسخ فى نفوس سامعيه .

ومتى يستحوذ هذا المعتقد على دائرة الادراك والتمييز فى الانسان يتحطم امامه كل شيء . فالمعتقد حصن لا يقدر أحد على خرقه .

والنفوذ الشخصى يكفى للاقناع فى بعض الاحيان ولكن لا على الدوام . فهنالك صفات أخرى لا بد منها فى الخطيب . فالخطيب يجب لكى يكون مقنعاً أن يخرج من دائرة أفكاره وينفذ دائرة أفكار سامعيه وأن يتأثر عند ما يؤثر فيهم . وهذا ما وقع لانطونيوس الذى قال خطبته اللبقة أمام جثة قيصر فحول بها سامعيه فى بضع دقائق من معجبين بالقتلة الى منتقمين مستعدين لذبحهم .

وفى الجماعات العامية كما فى المجالس الرفيعة نرى عناصر الاقناع التى ذكرتها شافية على الدوام . فيجب على الخطيب فى جميعها أن يتنبأ بما يجول فى خاطرها وأن يفكر مثلها فى البداءة ليجعلها تفكر مثله .

وقد أشار الموسيو (تارديو) الى فائدة هذا المبدإ فى مقالة خصصها للبحث فى الوزير الالمانى (بيلوف) الذى يعد من اكبر خطباء زماننا فقال : « يقوم فن الخطابة فى المجالس السياسية على علم الخطيب بما ينتظره السامعون منه . فمتى وقع هذا العلم وعمل الخطيب بما يلائمه فبشره بالنجاح . وقد كان الوزير (بيلوف) يجيد ذلك كلما وقف خطيباً . وما من أحد أحس بغريزته ماذا يقتضى أن يقال للجمهور اكثرمنه . ففى كثير من خطبه وجمله تجده يراعى ذوق الوقت . ومن هذا القبيل ما قاله من المؤكدات فى قوة المانيا ومنها « لا ترضى المانيا بأن تمشى على رجلها ولا ترضى المانيا بأن تطرح جانباً ولا ترضى المانيا بأن تعتزل » . ومع ما فى هذه المؤكدات من ابتذال كان (بيلوف) يعلم أنها تناسب ذوق سامعيه من النواب وغيرهم فكان يلعب بهم كما يلعب على رقعة الشطرنج . »

رأينا الجماعات تتصف بسرعة تصديق لا حد لها . غير أن ما تلقنه من الاراء يكون فى الغالب موقتاً غير ثابت مجرداً من الديمومة والقوة . وتكتسب الجماعات فى أدوار التاريخ

النادرة معتقدات متينة . فتنقلب كما فى أوائل الحروب الصليبية وفى الحروب الدينية وفى أيام الثورة الفرنسوية الى سيل يقيم العالم ويقعده . وانقلابات مثل هذه لا تصدر عن رجالنا الاشتراكيين الثوريين ذوى الضجيج أمام حماة النظام الاجتماعى وذوى الخوف أمام الجموع : فايمان هؤلاء قائم على كثير من الشهوات الشخصية التى لا تقوم عليها معتقدات دائمة ابداً .

ومع أن شان الزعماء معروف منذ زمن طويل لم يوفه علماء النفس حقه بحثاً وتفصيلا ولا ريب فى أنهم يبقون على ما هم عليه حتى يمعنوا فى ارتياد بقعة اللاشعور الخفية التى تنضج فيها علل أفعالنا وصور أفكارنا .

وانى لا أبالغ اذا قلت إن نفوس الساحر والمسحور والسائس والمسوس غير الشاعرة تتناجى حسب ناموس غامض أمره . ويسوقنا مثل هذا التناجى الى باب تلك البقعة المجهولة التى أبصرها العلم دون أن يسبر غورها .

ومن البقعة المظلمة نأتى الى البقاع التى تسهل ملاحظتها . واليك البيان : لقد أشرت الى قليل من عناصر الاقناع . فللاقناع وجوه كثيرة : إقناع بفعل البيئة وإقناع بالجرائد وإقناع باللجان الخفية وإقناع بالاعلانات وإقناع بتأثير المصلحة الشخصية الخ ، ومع أن التدقيق فى الاقناع يتطلب مباحث وفصولا كثيرة لم يطرق علماء النفس بابها حتى الان وإن كان هذا الباب أفيد من مناقشاتهم الفارغة فى مقولات (كانت) أو فى طبيعة الزمان والمكان .

أهمية عامل العدوى النفسية بين عوامل الاقناع تجعلنى أقول إنه الفاعل الاساسى فى انتشار ما ألمعت اليه سابقاً من الحوادث كاعتصاب موظفى البريد وعصيان برشلونه الخ ، وهذه الحوادث التى يوجبها الزعماء بعد أن تدعو اليها الاحوال كالاستياء العام تنتشر سريعاً بفعل العدوى النفسية . ولهذه العدوى شأن عظيم فى اكثر حوادث التاريخ . فلولاها لما ذاع أمر الديانات الكبيرة كالنصرانية والاسلام والبوذية . وبها يعم أمر الثورات الكبيرة وجريان الاراء وكل ما نسميه روح الوقت ، ويظهر أن تأثيرها اليوم اكثر منه فى أى زمن . فالوقت الحاضر صار دور الجموع التى أصبحت لا تمسكها روابط الماضى .

*
* *

يجب للتفريق بين عوامل السير فى الافراد والجماعات ان لا ننسى التباين بين المشاعر والذكاء . وقد اتخذت هذه الحقيقة دليلا لى فى كثير من كتبى . ثم جاء الفيلسوف الكبير (ريبو) فاسهب فى بيان أهميتها .

وإنا نعبر عن المشاعر بتعبيرات عقلية . فاختلاط المشاعر بالعقل على هذا الوجه جعل تفريقها عنه أمراً صعباً . وما استطعنا أن نميز بين المشاعر والعقل إلا بعد كثير من الدقة والصبر . وبذلك علمنا أن بجانب المنطق العقلى منطقاً للمشاعر لا صلة بينه وبين الأول وأن هذا لا يصح لتفسير ما صدر عن ذلك من الافعال .

والتاريخ المزاول الذى تم تأليفه على يد أساتذة لا علم لهم بغير المنطق العقلى شيء مصنوع . فهم يفسرون اكبر الحوادث التى توقف عليها مصير الشعوب وحضارتها بالمنطق العقلى الذى لم يملها وهم يجهلون أن العقل يخلق العلم وأن المشاعر تقود التاريخ

الفصل الثالث

مزاج العمال النفسى

لا انكر نفع المباحث الجديدة فى علم النفس . وانى أقول بفائدة التدقيق فى صفة محبة الغير فى الضفادع وضعف المشاعر الزوجية فى العناكب . غير أننى كثيراً ما أرى علماء النفس يأتون بخدم أكبر من تلك لو كانوا ينكبون على البحث فى الحوادث اليومية للحياة الاجتماعية وفى تعيين عللها ، فلربما توصلوا الى معرفة نواميس اجتماعية مهمة

وقد كثر عدد المواضيع التى تستدعى الالتفات والملاحظة . واذا كانت تورث فى الغالب عجباً كبيراً فلان علم النفس الحديث لم يعين سننها بعد .

وقع فى (درافى) وغيرها عصيان كبير . وهو من نوع الحركات الشعبية المفاجئة التى يستغربها الناس لجهلهم ما نشأت عنه من النواميس النفسية ؛ وقد أمر به رؤساء جمعية اتحاد العمال فأكره الجنود للدفاع عن أنفسهم أمام القتل . ومما أدى اليه هو انضمام أكثر نقابات العمال الى تلك الجمعية واعتصاب عمال المطابع ليحولوا دون إصدار الجرائد واعتصاب الكهربائيين الذى حرم باريس النور ليلة واحدة .

تظل مثل هذه الحادثات خافية على من لم يدرس روح الشعب . والوسائل التى يقترحها المتعلمون لمنع وقوعها مرة أخرى تثبت لنا درجة عدم اطلاعهم على روح الجماعات .

إن حادثة (درافى) من الحوادث البارزة التى يكون الحق فيها فى جانب دون الاخر . فهى كناية عن تمرد على القوانين وهجوم عنيف على كتائب فوض اليها أمر حماية الاملاك الشخصية ، وقد كان إطفاؤ ها ضرورياً ، ولا سلطة سياسية تقدر على الاغضاء عن مثلها غير أن سير الحكومة الصائب إزاءها كان موضعاً للوم جميع طبقة العمال . ولماذا ؟

قبل أن نجيب عن ذلك نقول مكررين إن الجماعات تخضع لاحكام محرضات لا تلائم العقل . فالمناقشة فى عقم هذه المحرضات لا يجدى نفعاً . وانما الذى نرى البحث فيه هو ما توجبه من التأثير فى النفوس .

ولكي ندرك تأثير تلك المحرضات لنتذكر ما للاوهام من السلطان على روح الشعب ، فانكار هذا السلطان جهل للتاريخ . وفي سلسلة الحوادث التي يخبرنا التاريخ عن سيرها نرى شأن العقل ضئيلا وشأن الخيال كبيراً على الدوام . فقد هلك ملايين من الرجال في سبيل الاوهام . وبالاوهام تأسست أقوى الدول . ولا يزال شأن الاوهام كما كان في الماضي ، فهي تسحر الجماعات اليوم كما سحرتهم في غضون التاريخ .

☆
☆ ☆

للبحث في أفكار العمال يجب أن نتذكر الاوصاف العامة للجماعة أولا ثم الافكار المسيرة للعمال والناظمة لحركتهم ثانياً :

ليست الجماعة بحكم الضرورة عبارة عن أشخاص مجتمعين في مكان واحد . فقد يمكن تلقين أناس بعيد بعضهم من بعض بواسطة الصحافة والبرقيات حتى يتصفوا بصفات الجماعة أي بسرعة الانفعال والتقلب والصولة وسرعة التصديق وفقدان ملكة الانتقاد وعدم التعقل وزيادة التقديس والاحتياج الى سيد مطاع . وتصدر حركات الجماعة الشديدة عن تحريض بعض الزعماء خاصة . وهي اليوم كما في الماضي مستعدة للسجود أمام جميع المستبدين ، قال (تارد) : « تتشابه الجماعات بالاوصاف الاتية : عدم التسامح الشديد والزهو الغريب والانفعال الكبير وعدم تحمل التبعة الناشيء عن وهمها بقدرتها العظيمة وعن عدم رويتها . ولا وسط عندها بين اللعن والعبادة وبين الخوف والحماسة وبين الرفع والخفض . »

وتتجلى هذه الصفات النفسية في جميع الحركات الشعبية التي وقعت حديثاً ولا سيما في حركة (درافي) . فلقد هجم العمال فيها على كتيبة الجيش كما أمرهم عدد من الزعماء فقابلهم الجنود . وأوجبت هذه المقابلة سخط طبقة العمال التي ظنت ككل جماعة أنها فوق القوانين ، وسرعان ما انضمت الى صفوف المهيجين لاعنة الحكومة التي لم تكره الجنود على ترك أنفسهم يذبحون غير مدافعين

لم يتجل خضوع تلك الجموع لاوامر زعمائها بما استعملته من القسوة ضد الجنود فقط بل بالاعتصابين اللذين وقعا بعد قمع ذلك التمرد أيضاً . فأما اعتصاب عمال المطابع الذي قصد به منع الجرائد من الصدور فلم يوفق غير توفيق ناقص لتلكؤ رؤساء هؤلاء

العمال وعدم سلوكهم سبيل الجزم والقسر . وأما اعتصاب عمال الكهرباء فقد كان النجاح حليفه . لان الامر به كان قاطعاً مانعاً للجدل والاخذ والرد . واليك صورة الامر الذى تلقاة كل عامل منهم : « تأمر اللجنة جميع المنتسبين اليها بالانقطاع عن العمل يوم الخميس الواقع فى ٦ أغسطس سنة ١٩٠٨ منذ الساعة الثامنة مساء حتى الساعة العاشرة صباحاً . التوقيع : ب »

أطيع (ب) بما لم يطع به قيصر أو أى حاكم مطلق . فنشرت الصحف أمره بخضوع تام ، وقد أعرب لها عن أفكاره القائلة بأنه يمقت مبدأ التجنيد العام ويزدرى الحكومة ويمقت ملك بلجيكا وأنه لا يسلم بأن يقيم رئيس الوزراء جنوداً مكان عمال الكهرباء وأنه سيرسل اليه تعاليمه عما قريب .

ويظهر أن هذا الزعيم يتقن أمر التهكم والسخرية ، فهو يعد الاعتصاب عصا سحر يفيد العمال ولكنه يرى من الشرف أن يطلع أحد رجال الحكومة على وجهة نظره . وانى على رغم ما له من السيادة أنصحه بأن لا يعتمد على دوام سلطته ، إذ إنه بالحقيقة عبارة عن رمز مترجم لروح الجماعة التى قد يستغلها أناس غيره . فالجماعة مع شدة إطاعتها سريعة التقلب . وسوف لا يمضى زمن قصير حتى نرى نجم (ب) قد أفل كما وقع لزعماء عصيان الجنوب . وحينئذ يجدر به أن يسعى فى نيل كرسى فى (الصوربون) ليلقى دروساً فى علم النفس العملى ويعلم زعماء الاحزاب ورؤساء الصناعة فن قيادة الجموع .

فائدة تلك الدروس عظيمة جداً ولا ريب فى أن الكثير من زعماء الاحزاب وأرباب الصناعة يجهلون نفسية الجماعات جهلا تاماً ، فهم يعتقدون أنهم يسحرون الجموع بالخضوع لها مع أن الامر ينبغى أن يكون خلاف ذلك ، ومما يؤيد هذا الجهل الغريب ذلك الاحتجاج الذى نشره النواب الاشتراكيون على أثر عصيان (درافى) . فهؤلاء النواب على رغم اللعنات التى صبها عليهم زعماء جمعية اتحاد العمال لم تحمر وجوههم خجلا من التصريح فيه « أنهم يؤيدون العمال المتعصبين المتمردين ويؤيدون النقابات التى ينتمون اليها ، وأنهم سيناضلون عن أى عمل يقرره الصعاليك . » وهل بيان مثل هذا غير تنزل عن كل سلطة لزعماء تلك الجمعية ؟

إن تلك الاراء المنحطة حافلة بالمعارف النفسية . فهى تنم على شكل علمانى لادنى روح دينية . وانى لافضل الزهاد الذين يطأطئون رؤوسهم أمام أوامر البابا ونواهيه على

رجال السياسة الذين يركعون أمام أوامر بعض قادة الجموع . فالزهاد مجردون عن الاثرة والمنفعة الشخصية على الاقل .

ومن يجهل سلطان الروح الدينية لا يدرك السر فى أن رجالا نيرى الذهن يؤاخون فوضويين يرون لانفسهم حق قتل الجنود ومنع الجرائد من الصدور وتوقيف الحياة العامة وغير ذلك من الاغراض التى لم يحلم بها نيرون وهليوغابال . وماذا ينال أولئك الرجال من وراء خضوعهم ؟ ينالون احتقار من يخدمونه من زعماء الجموع .

نعم دل النواب الاشتراكيون بسيرهم المذكور على جهلهم أحوال النفس ، ولكن لم يبد من كثير من حماة النظام حذر وبصيرة اكثر مما بدا منهم . ومن هؤلاء الحماة نائب كتب فى إحدى الجرائد أن حوادث (درافى) نشأت عن تقاعس البرلمان عن استحسان جميع لوائح القوانين التى تقترحها النقابات وأنه يجب الاسراع فى قبولها ، وكلام مثل هذا يعنى أن الحكومة بعد أن اشترت خطوط الغرب الحديدية يجب عليها أن تفرض ضريبة على الدخل ، وبذلك تطلع على الثروات فيسهل عليها أمر نزعها من يد أصحابها متى تريد .

والقارىء يطلع على نتائج الخوف مما جرى فى حضرة رئيس الوزراء عندما جمع فى اليوم الثانى من الاعتصاب مديرى الفروع الستة للكهرباء فى باريس ، فما أن الرئيس المشار اليه لم يرض بأن تعانى مدينة كبيرة — يقطنها ثلاثة ملايين من السكان كمدينة باريس — مآرب شرذمة من رجال النقابات أشار على أولئك المديرين بطرد عمالهم فى الحال عارضاً عليهم استبدالهم بكتيبة من الجنود . فلم يوافقه سوى واحد منهم على اقتراحه ، وأما الاخرون فرفضوا طلبه مرجحين الخضوع لاوامر رئيس النقابة . وفى اليوم التالى أرسل هؤلاء الى هذا الرئيس رائداً ليعرض عليه عملا براتب قدره اربعة آلاف فرنك . وقد كنت لا أقص شيئاً عن هذا الجبن الذى لا يكاد يصدق لولم يروه لى شاهد عدل اطلع بنفسه على ما دار فى تلك الاثناء .

وقد نشأ عن الجبن العظيم الذى أبداه مديرو الكهرباء فى باريس نتائج كانت تتقى لو طردوا عمالهم ولو لاجل قصير . فالجماعات تحتقر الضعف وتحترم القوة على الدوام ، وليس فى التاريخ مثال تحقق أمره بضعة ونذالة . ومما كان يسهل طرد عمال الكهرباء أن ما فى فروع باريس من الماكنات يشتغل آلياً ، فتدريب الجنود عليها لا يحتاج الى عناء كبير .

وقد انتقدت جرائد كثيرة سير مديرى الفروع المذكورة المخجل انتقاداً موجباً للشكر. فاليك ما جاء فى (الطان) : « لم يقع منذ حدوث الازمة الاجتماعية ما يساوى ذلك الضعف خطراً ، ولا نعد تمرد العمال شيئاً مذكوراً بجانب ذلك الجبن الفاضح الذى أظهره أولئك ، فقد قامت الحكومة بالواجب فعرضت معونتها عليهم فأبوا مفضلين الاستكانة . » ولهذا نقول إن أرباب العمل إذا لم يدافعوا عن أنفسهم ولم يقفوا على روح الجماعات يستحقون ما يهددهم من السقوط وسوء المصير .

☆
☆ ☆

لنفسية العمال عدا صفات الجموع العامة خصائص اكتسبتها من بضعة مبادىء بفعل التكرار والعدوى . وتتلخص هذه المبادىء بالكلمات الاتية التى صاغها حزب اتحاد العمال وهى : « العامل يوجد الثروة دون أن يستفيد منها ، وأما الذين ينتفعون بها فأناس آخرون غير موجدين لها . »

ومعالجة هذا الحيف تكون بالقضاء على المجتمع الحاضر فى سبيل طبقة العمال « وتقوية بعض الزمر لنزع رؤوس الاموال من أيدى أصحابها وتنظيم المجتمع حسب الخطة الشيوعية .»

وريثما يقع ذلك تأمر اللجنة بتكرير الاعتصابات المؤدية الى رفع الاجور ومن ثم إلى الغاء ربح المشروعات القديمة . لان ما فى مديريها من الجبن وعدم المبالاة بمصالح المساهمين يجعلهم يجيبون العمال الى مطاليبهم المكررة حتى يصبح ربح الاسهم وقيمتها كالعدم

وسيكون من النتائج القريب وقوعها تعذر إيجاد مساهمين للشروعات الجديدة . فها أن أبناء البلاد يفضلون الاكتتاب فى الشركات الاجنبية للاسباب التى ألمعنا اليها . ولو ذكرنا المنتجات التى تباع فى فرنسا وتصنع فى الخارج لضاق بنا مجال هذا الكتاب، والعامل لعدم شعوره بما هو واقع أوشك أن يذبح دجاجة الذهب . ولما كان عاجزاً عن إدراك عواقب الامور لا يرى غير ما يفيده فى الحال مثابراً على ما يؤدى الى عوزه وهلاكه جوعاً

ومما يعجل سقوط طبقات العمال تشدق أخلاط ناقصى العلم الذين سيحملون راية العصيان قريباً ، فهؤلاء الاخلاط الساخطون على سوء طالعهم لان الشهادات التى نالوها من حفظ الكتب المدرسية لم ترفع شأنهم ، يلعنون مجتمعاً يجحد عبقريتهم غير مبالين بمصير العمال . وهم لبعدهم من حقائق الامور ومقتضيات الاقتصاد المهيمنة على الحضارات

الحديثة يرون أن المجتمع القادم سينحنى إجلالا أمام مزاياهم الباهرة التى لم يقدرها المجتمع الحاضر حق قدرها .

والعامل الذى أضله أولئك المنحطون الذين هم ثمار جامعاتنا أخذ يعتقد أنه ضحية الجور الفادح . وهو لهذا الاعتقاد لا يفكر فى غير التمرد والعصيان . وهكذا نرى رؤوس العوام تفعم بالاوهام . ومنها تصور العامل البسيط أنه هو الذى ينتج ما لا يستفيد منه من المصنوعات . ولو أنعم النظر لعلم أن موجدى الثروة هم أرباب الزراعة والصناعة والمهندسون والعلماء الذين عندهم من القابلية والكفاءة ماليس عند العمال . وما كان للعامل شأن فى المخترعات الكبيرة التى يعيش منها . نعم يساعد عمل العامل على الانتفاع بتلك المخترعات . ولكن مبتكرات الوقت الحديث تجعل تأثيره يقل بالتدريج . وقد صار شغل العمال فى أغلب الصناعات ولا سيما فى صناعة السيارات لا يساوى أكثر من خمس قيمة الاشياء المصنوعة . ويقال ان العمال لا ينالون ما يستحقونه من الاجور فهل هذا صحيح؟ كلا . فأكثر العمال ينالون اليوم أجوراً أعظم مما يناله جمع كبير من أبناء الطبقة الوسطى بعد سعى عشرين سنة . ومن هذا الجمع نعد كثيراً من القضاة والضباط والاطباء والمهندسين والمحامين والموظفين وغيرهم ممن اكتسبوا تربية غالية . وفى أكثر المصانع الباريسية ولا سيما فى مصانع السيارات يكتسب أحقر العمال أجرة ستة فرنكات كل يوم . ومثل هذه الاجرة لا ينالها بعض موظفى المدارس . ومتى يكون عمل العامل على شىء من المهارة تبلغ أجرته اليومية أربعة عشر فرنكا .

ومن الاوهام الشعبية الوهم القائل ان الناس متساوون فى عقولهم . ولهذا الوهم يعتبر العمال مكاسب رؤساء المصانع غير مشروعة . فالعامل البسيط فى نظر الجماعات قادر على إدارة المصنع أو تدبير أمور الشركة كالرجل الخبير . ولكن ما هو عدد المشاريع الصناعية التى أقاموها فتم لها النجاح ؟

وقد بلغ الحقد على الافضليات فى الوقت الحاضر مبلغاً جعل كثيراً من المدن الكبيرة كمدينة بريست وديجون وروبيه وطولوز الخ تختار لنفسها مجالس بلدية من بين العمال ومستخدمى المحطات وصغار الباعة . بيد أن هؤلاء لما أخذوا يبددون أموال البلديات تخلص الناس منهم فى أول انتخاب وقع ، وحدث مثل ذلك فى الالزاس واللورين فأوجب إسقاط أعضاء العمال فى انتخاب بلدياتهما ولا سيما فى بلدية ستراسبورغ ومولهوز .

وبما أن الشعوب لا يثقفها غير التجارب نرى حدوث مثل الامور التى أشرنا اليها ضرورياً مهما نشأ عنه من خسران . فقبض العمال الاشتراكيين على زمام جميع بلديات فرنسا يؤدى الى مقت الناس للاشتراكية حتما . ولربما تكتشف الجموع حينئذ أن الطبيعة أبت خلق البشر خلقاً متساوياً وأن الكفاءة أساس كل شيء وأن الموجدين لعظمة الامة وقوتها وثروتها هم أصحاب العقول الراجحة والافكار النيرة من علماء وأرباب عمل ورجال فن ومهندسين الخ . ولن تستولى الجموع على رأس المال كما يود ذلك كثير من المتعصبين السخفاء . فالذكاء هو رأس المال الحقيقى . ولا يمكن تجريد أحد من هذه القنية الثمينة .



الفصل الرابع

الاشكال الحديثة لرغائب الشعب

لو نظرنا الى نتائج اعتصاب موظفى البريد المباشرة لعددناه من الاعتصابات الاعتيادية . ولكننا إذا نظرنا الى علله البعيدة رأيناه من الحوادث التى تفتح دوراً جديداً فى تاريخ الشعب .

حقاً لقد شاهد الناس أول مرة شروع المجتمع فى الانحلال والانقسام الى زمر صغيرة متجانسة مستعدة للتضحية بالمصلحة العامة عندما تلوح لها بارقة منفعة خاصة . وحقاً لقد رأى العالم المتمدن موظفى البريد يعاملون بقية الامة كمدينة حاصرها العدو لعزلها عن العالم واكراهها على التسليم جوعاً

جلبت تلك الاثرة نظر كثير من الاجانب . فاليك ما جاء فى (التايمس) التى هى أهم صحف انكلترة : « إنا لنحزن من المنظر المشؤوم الذى طرأ من جراء الاعتصاب الحاضر على بعض مقومات الحياة فى فرنسا . فلو أن الازمة الاوربية انتهت فى هذه الايام بشهر الحرب لاصاب قوة فرنسا العسكرية شلل فى وقت قصير ولبليت بنكبة قومية حتما . فجماعة من الموظفين لا تلتفت الى هذه الامور فى وقت تجتاز فيه أوربا ساعة عسر وضيق إما أن تكون سليبة العقل والذكاء أو تكون مجردة من كل عاطفة وطنية . »

وليس استخفاف زمرة من أبناء البلاد بالمنفعة العامة سوى مظهر من مظاهر ذلك الاعتصاب . فقد كان حدوثه فجأة نتيجة تكوين زمر اجتماعية قوية خافية منذ عهد طويل. ولما شعرت احدى هذه الزمر بقوتها انتصبت أمام حكومة البلاد الدستورية وأثبتت للملأ ما سوف يكون لها من الشأن . وتقوم تلك الزمرة فى وجه الاشتراكية التى هى بنت المذهب الحكومى قيامها فى وجه الحكومة ، فلهذا يخطىء الاشتراكيون بفرحهم بنجاح اعتصاب لا يعرفون مداه .

ومما اوجب نجاح موظفي البريد مقت الناس برلماناً لم يفعل سوى وضع قوانين متناقضة واضطهاد طبقات برمتهـا من أبناء البـلاد، وقد أوجب حكاية الجابيـة في مصلحة البريد التي طلب أحد المديرين عزلها لمواظبتهـا على القداس استياء الجمهور وعطفه على المعتصبين

ويسـوقنا التطور الجديد في رغبات الشـعب الى دور الفوضى والتقهقر. فمع إقامة الثورة الفرنسـوية الحرية مقام طوائف العمال نرى تلك الطوائف تبعث. ومع إلغائهـا الضريبة الشخصية درءاً للاضطهاد الاميرى نسعى في فرض ضريبة أثقل من كل اضطهاد. إذاً تظهر أنواع الاستبداد السابق مسماة بأسماء جديدة. وستكون الحرية في المستقبل كناية عن تباغض أبناء الوطن وتضاغنهم.

مفاجأة اعتصاب موظفي البريد بلا مبرر تثبت لنا أنه وليـد نفسية الجماعات، ومن حين إعلانه لم يجـد له هؤلاء الموظفون سبباً مقبولا. فقـد جاء في بيان نشرته لجنة الاعتصاب المركزية في عدد جريدة (الماتان) الصادر في ١٩ مارس سنة ١٩٠٩ ما يأتي: « لم نقم بالاعتصاب لندافع عن مصالحنا المهنية، بل ان شتائم الموسيو (سيميان) لزميلاتنا هي التي أوجبت سخط موظفي البريد جميعهم. »

غير أن المعتصبين لم يلبثوا أن أدركوا أن ذلك السبب لا يكفي لتبرير وقف حياة البلاد فأخذوا يبحثون عن أسباب أخرى فعثروا على سبب مبهم وهو أن الحكومة حابت بعض الموظفين فرقتهم قبل المدة المعينة بثلاثة أشهر.

والحق ان للاعتصـاب المذكور عللا أخرى وأنه ليس في موقف موظفي البريد ما يزكيه ويجعله صواباً. فقد كان هؤلاء في حال ممتازة ولا سيما بعـد أن أجيبوا الى جميع مطاليبهم منـذ خمس عشرة سنة وصاروا يقبضون رواتب اكبر من رواتب كثير من الموظفين الاخرين وصفوة العمال الذين يساوونهم تعلماً ويفوقونهم عملا.

كان الموظف الذي أدار الاعتصاب يقبض راتب سـتة آلاف فرنك والموظف ذو العلامات السيئة لا محالة نائل بعـد مرور خمس وأربعين سـنة راتب ٤٠٠ ٤ فرنك إذا كان مستخدماً في قلم ثابت و ٥٠٠ ٥ فرنك إذا كان متنقلا، ولا يقل راتب تقاعد الموظفـين عن ثلثي راتبهم أيام قيامهم بأمور وظائفهم، ويتقـدم أولو الكفاءة كل ثلاث سنوات ويتأخر تقدم الذين أقل منهم أهلية ثلاثة أشهر، وقد انتقدت الصحف أيام نشرت

تعليمات تقدم الموظفين تساهل الادارة فى ترقيتهم بحسب القدم مهما ساءت علاماتهم .

إذاً ما هى علة ذلك الاعتصاب ؟ علته نوبة زهو فى زمرة من الموظفين الشاعرين بقدرتهم التى أغمضت الحكومة عن اكتسابهم لها ، جاء فى جريدة الطان : « أن الوزراء ومستشاريهم الذين قبضوا على أعنة الحكم منذ اثنتى عشرة سنة ساروا على سياسة ستعطاف مرؤوسيهم فأصغوا الى جميع مطاليبهم واعتبروها سهلة التنفيذ غافلين عن القالب الذى أفرغت فيه . »

والسلطة كانت تتملق بتذلل وكلاء جمعية الموظفين . فقد ثبت « أن رئيسها كان يتغدى فى كل أسبوع مع مستشار الدولة الذى كان يأخذ رأيه فى جدول ترقى الموظفين وتعيين المديرين . »

وعلى أثر مناقشة وقعت توترت العلائق بين الطرفين فجأة بسبب عدم كفاية الميزانية لتلبية المطاليب الزائدة ، ونظراً لتعود أولئك الوكلاء أن يخاطبوا الرؤساء مخاطبة الامر الناهى استشاطوا غيظاً من مقاومتهم لهم ، وأخذوا يهددونهم ، ومن البديهى أن يقع الخصام بينهم عندما ترفض السلطة الرخوة مطاليبهم أول مرة

وقع الخصام على الوجه الآتى :

لما رجع وفد رجال البريد فى ١٣ مارس من غير أن ينال من الوزير مطلوبه القائل بعدم الترقية على الخيار ذهب الى دائرة البرق المركزية صاخباً ناشراً عدم النظام ، وفى اليوم الثانى من ذلك التاريخ اجتمع موظفو البريد والبرق فى (تيفولى فوهال) فقرروا الاعتصاب باتفاق الآراء .

وماذا حدث بعد ذلك ؟ بعد ان قاومت الحكومة مقاومة ضعيفة استمرت بضعة أيام ألقت السلاح على رغم تأييد مجلس النواب إياها راكبة ظهر الخزى والعار ، وقد علم مفوض رجال البريد كيف يصف هزيمة الحكومة لزملائه الذين تغلبت الحماسة عليهم بالعبارة الآتية وهى .

« وقتما رأيت ولاة الامور فى غرفة رئيس الوزراء يلتمسون ختام الخصام وهم جاثون على رُكبهم شعرت بأننا أقوياء حازمون . »

ولم يحتج المعتصبون الى كبير زمن ليستنبطوا نتائج ظفرهم ، فقد أشار اليها أحد

مفوضيهم فى قوله : « إننا باعتصابنا علمنا قيمة كلمة سيد ، فليس فى نظرنا من هو سيد بعد ولن نكون مرؤوسين فى المستقبل . فكلنا معاونون . »

هذا المفوض متواضع فى كلامه ، ولو قال : « نحن السادة . وقد أثبتنا ذلك وسنثبته فيما بعد » لكان كلامه أقرب الى الواقع والصواب .

وأى زاجر أدبى يستطيع اليوم أن يكبح جماح موظفين يعلمون أنه ليس عليهم الا أن يأتوا بضروب الوعيد والتهديد لينالوا مطاليبهم ؟ وكل فى هـــذه الاوقات يزيد مطاليبه ويبالغ فى رغائبه ، وما شذت شرط المدن عن هؤلاء قط .

ويظهر أن رئيس منتسبي النقابات (ب) عالم بأحوال الناس النفسية علماً عملياً ، فقد استنبط من ذلك الإعتصاب المحزن درساً كبيراً فقال : « اقترف ولاة الامور سيئة عظيمة بجعلهم المأمورين يشعرون بما كان لا يخطر ببالهم من قوة كامنـــة فيهم . » ولا يجهل (ب) قيمة النظام ، فهو يعرف كيف يطاع من الموظفين الذين لا تؤثر الحكومة فيهم وقد صرح على رؤوس الاشهاد أنه لو أمر برمى جميع موظفى البريد فى القدور لنفذ أمره حالا .

وقد لاحظت صحف الاشتراكيين نتائج نجاح ذلك الاعتصاب أيضاً ، فاليك ما جاء فى أهمها : « يمكن الصعاليك أن يشعروا من الان بقوتهم الناشئة عن كون وسائل المخابرات البريدية والبرقية والتلفونية بأيديهم لانى اعتصاب كالاعتصاب الحاضر الذى يعنى مطاليب خاصة أو عزل مستشار فى الوزارة بل فى تنازع عام يحدث لتحريرهم . »

ومتى سلك سبيل منح الامتيازات المنحدر عن جبن وجب التدرج الى أسفل نقطة فيه ، وهذا ما يقع : فلقد أشارت الصحف الى كبيرة يكاد العقل لا يصدقها وهى أن مجلس إدارة سكك الدولة الحديدية قرر أن يضم اليه أحد كاتمى أسرار جمعية اتحاد العمال الثورية الذى لم يكتم عزمه على تقويض دعائم المجتمع بعنف . وبهذا ترى ماذا يكون مصير رؤساء لا يتكلون على غير رحمة مرؤوسيهم .

ومع أن نجاح عصاة الموظفين موقت نرى له نتائج بعيـدة المدى ، وانى لا أبحث هنا فى غير أقربهـا :

نكاد نشـاهد استفحال الفوضى العامة التى أبصرنا وقوعها منـذ زمن طويل ، وعلى

ما فى سقوط مالية الدولة ومصالحها العامة من بطء لابد من تمام هذا السقوط ، والذى يتداعى اليوم تداعياً ظاهراً هو المقومات الادبية أى أركان المجتمع . وأمر مثل هذا لا يكون ابن يومه . فلم يقصر زعماء الاحزاب ورجال السياسة منذ كثير من السنين فى إفعام قلوب الناخبين بوعود لا تتحقق وفى امتداح أحط غرائزهم لنيل أصواتهم فى المعارك الانتخابية.

وهكذا أصبح أعضاء اللجان الانتخابية ومعلمو المدارس الابتدائية وأصحاب الحانات سادتنا الحقيقيين . وأى مثل أعلى ينشأ عن ذلك ؟ ينشأ عنه قضاء تدريجى على سلسلة المراتب والنظام والاخلاص للمصلحة العامة .

اذاً الفوضى التى نشاهد حدوثها أمر لا مناص منه . وقد أوشك الوقت الذى تفيدنا فيه عبر التاريخ أن ينقضى . ومنها أن الفوضى فى جميع البلدان تؤدى الى الحكم المطلق الجائر كما أدت اليه فى روما وأثينا والجمهوريات الايطالية .

☆

☆ ☆

لا ننكر أن ولاة الامور بحثوا عن دواء لمعالجة الحالة التى نشأت عن اعتصاب موظفى البريد ، غير أنهم لما كانوا مشبعين من الوهم اللاتينى القائل ان القوانين قادرة على فعل كل شىء رأوا أن يقاتلوا الفوضى بوضع الانظمة ، فأسرعت الحكومة فى سن قانون فى واجبات الموظفين يجازى من يعتصب منهم ، وبذلك دلت على بساطتها الداعية للاستغراب . والا فهل من الرأى أن يقال بامكان عزل عشرة آلاف موظف أو سجنهم عندما يعتصبون دفعة واحدة ؟ وبما أن الحكومة هددتهم بالعزل فى أثناء الاعتصاب الاخير ، فماذا كان تأثير التهديد فيهم ؟ لم يؤثر قط .

ولم يكن هذا التدبير وحده هو الذى اقترح ، فقد قيل فى أثناء المناقشة التى دارت فى البرلمان آراء سخيفة أيضاً ، أى إن نائباً بسيط القلب ذكر مؤكداً فى مجلس النواب أن الامور تجرى فى مجاريها والنظام يسود اذا حولت مصلحة البريد الى وزارة !

ولا نرى بعد الاعتصاب الثانى غير دواء واحد لمعالجة الحالة ، أى إن على الحكومة أن تسير حسب ما رأته فى اعتصاب عمال الكهرباء الذين شجع جبن مديريهم موظفى البريد على الاعتصاب

لا وسيلة للهرب متى تقابل الجيشان ، فيجب على أحدهما أن يختار أحد الامرين :

فاما أن يلقى السلاح و يقع أسيراً و إما أن يحارب . فاذا وقع أسيراً أصبح تحت رحمة الغالب الذى يملى عليه شروطه و إذا حارب فقــد يتم له النصر وقد يغلب على أمره مع إنقاذ شرفه .

إذاً القرار الشاق الذى كان واجباً هو أن تعارك الحكومة المستندة الى البرلمان جميع القوى المتحالفة ضدها ، نعم كان من الممكن أن ينضم الى موظفى البريد عمال الكهرباء ومستخدمو السكك الحديدية وغيرهم وأن يقع شىء من الهوش فى شوارع باريس التى قد تصيبها المجاعة بضعة أيام ، غير أنه لا بد من ظفر الحكومة فى ذلك ، وأما إلقاء الحكومة السلاح بنذالة وخنوع فقد جعل العراك فى المستقبل أمراً محتما ، ولا أحد يفهم من ينال النصر فيه . فالجيش و إن كان يؤيد الحكومة فى هذا الزمن قد لا يدعمها بعد قليل من السنين .

وعلى ذلك من الضرورى اجتياز فترة صعبة من الزمن لاجتناب فترات اكثرمنها حرجاً ، وهنالك مبدأان متناقضان لا يكونان فى آن واحد وهما : النظام والثورة ولقد عانت الشعوب انقلابات كثيرة . ولكننا لا تتذكر أنها عاشت ولو مرة واحدة فى دور ثورى مستمر كالذى يظهر أننا داخلون فيه

ولا فائدة من الاسهاب فى أمر صحيح لم تجرؤ على اتباعه حكومة أثار أكبر وزرائها اعتصابات عديدة وتواطأوا مع رجالها قبل أن يقبضوا على زمام الامور ، و إنا لنكتفى بايراد الملاحظات الفلسفية الخالصة و إن كان ذلك يذهب عبثاً .

أو-لا يؤلف بين ما تقابل من القوى الاجتماعيــة المتناقضة ؟ ذلك ممكن من الوجهة النظرية . ولا يمكن عملياً لانه لا سلطان للعقل على القوى المتزاحمة المشتقة من المشاعر . فالحقد والحسد وسحر الالفاظ والصيغ هى قوى لا يؤثر فيها المنطق .

والنفوس لا النظم السياسية هى التى يقتضى تعديلها . ولا عمل لنا فى هذه الاخيرة لصدورها عن مقتضيات الاقتصاد . وليس من السهل تغيير الصور النفسية المختلة التى تظنها الجماعات حقائق ، فنحن لا نزال بعيدين من اليوم الذى يفهم فيه المشتغلون بالسياسة أن المجتمع لا يقوم كما يرغبون وأن الحكومة ليست من القدرة بحيث تستطيع تحويل كل شىء وأن ترقى الامة يتم برقى أحوال الافراد النفسية الذين تتألف منهم.

والمذهب النقابى الذى نعد اعتصاب موظفى البريد أحد مظاهره خطر لا بمقاصده الوهمية بل بانتظام أمره ونشاطه اللذين لم يبد البرلمان ذو الاعتبار القليل أمامهما سوى الجبن وعدم الارتباط

وقد أثبتت تجارب الماضى أن العالم يخضع لاولى الجرأة حينما يكونون ذوى مثل أعلى مهما تكن قيمته ، فأصحاب العزم القوى والايمان الراسخ هم الذين قضوا على أعظم الدول وأقاموا ديانات كبيرة استعبدت النفوس .

إذاً مناقضة المذاهب الجديدة للعقل لا تحول دون انتشارها ، وتصبح هذه المذاهب بأولى العزم والنشاط الذين يناضلون عنها عظيمة الشأن كثيرة الخطر . ويكفى أن يستقيم أمرها لايجاد حق جديد ، فالحق ليس سوى قوة مستمرة .



الفصل الخامس

المزايدة الانتخابية ومقت النظام النيابي

كانت عادة قتل المعارضين للتخلص منهم غير متأصلة فى أوائل الثورة الفرنسوية. فكان الحليم (سان جوست) يتربص بـ (كاميل ديمولان) الدوائر دون أن يقدر على قطع رأسه ، وقد استفاد هذا الاخير — وهو أحد رجال الجدل المشهورين — من أيام عطلة منحها فكتب مذكراته الاخيرة بلهجة حماسية ونشرها فى جريدة (لوفيوكورديليه) .

لا ريب فى أنكم لم تقرأوا تلك الجريدة. وقد جهلتها حتى الايام الأخيرة حين ألقت المصادفة أمام عيناى نسخة اليوم العشرين من الشهر الثالث لسنة العهد الجمهورى الثانية . ومن مطالعة هذه النسخة يثبت لنا أن مبدأ المزايدة الانتخابية الذى هو آفة النظام الديموقراطي شديد الصولة منذ بدء الثورة الفرنسوية . وقد آلم هذا المبدأ (كاميل ديمولان) وأورث نفسه حزناً شديداً فدفعه الى بيان وسيلة لمقاتلته مأخوذة من قصة قديمة معروفة فى العهد الرومانى .

قال (كاميل ديمولان) : كان فى روما نائب اشتراكى ثقيل اسمه (غراكوس) فكان يعد العمال بوعود متعذر تحقيقها . وبهذه الوعود الخلابة أصبح محبوباً من الشعب على حساب مجلس الشيوخ . ولما ثاور القلق هذا المجلس استأجر فوضوياً اسمه (دروزوس) ليزايد (غراكوس) فى جميع اقتراحاته . فكان اذا طلب (غراكوس) بيع رطل الخبز بأربعة دوانيق مثلا اقترح (دروزوس) بيعه بدانقين ، وهكذا حتى أضاع (غراكوس) محبة الشعب له فقتله عباده السابقين غير آسفين عليه .

ذلك ما جاء فى جريدة (لوفيوكورديليه) . ولم يفقه أحد مغزى كلام (كاميل ديمولان) ، فهوى النظام الجمهورى بفعل المزايدات الانتخابية الى منحدر العنف والقسوة والفوضى فالى منحدر الحكم المطلق .

إن المزايدة الانتخابية أصدق وسيلة لقهر الخصوم . ومما لا مراء فيـــه أن النائب الاشتراكى الذى يعد كل ناخب بدخل ستة آلاف فرنك تلقاء عمل ساعة واحدة كل يوم ليس عليه أن يخشى مغبة مزايدته . و يمكنه بسهولة أن يفعل اكثر من ذلك فيعد كل ناخب بدخل اثنى عشر الف فرنك و بسيارة يقودها أحد أبناء الطبقة الوسطى . غير أن للمزايدة الانتخابية حدوداً لا يخلو تجاوزها من خطر .

ولما فى طريقة المزايدة من هون يفرط المشتغلون بالسياسة فى الرجوع اليها . وعند هذا الافراط تبدو لهم محاذيرها الكثيرة :

ليس الوعد بالامر الصعب . و يمكن تأجيل ساعة إنجازه وتحقيق أمره بحجة معارضة الاحزاب له ، إلا انه يجيء وقت على الناخب يدرك فيه أنه خدع بالاوهام ، والاوهـام لا تزول من نفس المرء من غير أن يسخط كما هو معلوم .

واليوم نرى الشعب يمقت كثيراً من رجال البرلمان لتضليلهم إياه بضروب المزايدات الانتخابية . ولا يعنى ذلك أن هؤلاء المشترعين لم يفعلوا جهدهم لتحقيق وعودهم . فقـد أتوا بمساع عظيمة فى سبيل تطبيقها . ولكن ما العمل وهم يعدون المستحيل والمستحيل يأبى أن يتحقق .

وما يسن من قوانين تصادم مقتضيات الطبيعة لا يفعل سوى زيادة الشرور التى زعم أنه وضع لمعالجتها . فقد وافق البرلمان بتأثير المزايدات الانتخابية على منح العمال رواتب تقاعد تكلف ثمانمئة مليون فرنك كل سنة ومنح موظفى السكك الحديدية رواتب تقاعد تكلف مئتى مليون فرنك . ولكن لما أدرك هؤلاء جميعهم استحالة تطبيق هذه الموافقـة تركوا مجلس الشيوخ يخفض تلك الارقام الى حد معقول .

والشعب بعد أن أضلته الوعود الخلابة أدرك أن الذى يبقى حياً فى قلوب قادته هو تصادم الشهوات وأن كل ما يسعى اليه هؤلاء هو قضاء هذه الشهوات . وقد رأى المرشحين الذين يكونون كثيرى التواضع أيام المعارك الانتخابية لا يلبثون أن يكونوا مردة مع الضعفاء مجردين من الايمان تجريداً لا يتأخرون معه عن رسم أشد البرامج عقماً والوعود استحالة .

والنائب اليوم عبد لجنتـــه الانتخابية مارد على من لا يعول على أصواتهم أيام

الانتخابات . أى يجب عليه أن يسير حسب منافع ذوى التأثير من ناخبيه وأحقادهم . ومن ينعم النظر يرأنه ليس فى مقامه مايوجب الحسد ، ويمكن تقدير ذلك من الكلمات الاتية التى صور بها الموسيو (ريمون پوانكاره) حياة كاتب عدل فى الاقاليم صار نائباً ثم وزيراً وهى :

« كان ذلك الكاتب مفعما بالاوهام فأضاعها بسرعة واليك البيان :

«عانى قبل كل شيء معاشرة اللجنة الانتخابية ومطاليبها . وبعد أن أصبح نائباً حاول أن يكون مستقلا فأفهم أنه يجب عليه أن لا يسلك هذا السبيل الوعر وأن من العقل أن ينتسب الى أحد الاحزاب » أو لا تلجئه الرسائل الكثيرة التى يطالبه فيها أصحابها بأوسمة ومعونة ومناصب ووظائف الى الاستعانة بحزب ؟

« ثم صار وزيراً . فلم يلبث أن أحاط به بضع عشرات من الشبان الحريصين على ركوب متن السعادة فجعل منهم رؤساء للديوان ومعاونى رؤساء ومساعدين وملحقين . ومع هذا أراد أن يظل قابضاً على ناصية الحكم بيده فصرفه مجلس الوزراء عن قصده سريعاً . وبعد أن سقط فى الانتخابات الجديدة رجع بخفى حنين الى مدينته الصغيرة ليباشر أمور حقله بنفسه . »

وعلى رغم ذلك نرى بين النواب من هم ذوو قلب سليم . ولكن هؤلاء بعد أن يجتمعوا ويكتسبوا ما للجماعة من صفات يعجزون عن عمل أى شيء . وقد أشار الموسيو (لابورى) أحد نواب أحزاب اليسار الى ذلك فى مقالة نشرها بعد أن عدل عن ترشيح نفسه مرة أخرى للبرلمان ، واليك ما جاء فيها :

« ليس ما يقترحه البرلمان من أعمال تفيد المصلحة العامة بشيء يستحق الذكر . والاعمال تنجز فى البرلمان على وجه بعيد من الاخلاص غير منظم . وليس فيه ما نسميه مراقبة بالمعنى الصحيح . فالنواب يداورون الوزراء لاحتياجهم اليهم فى تنفيذ مآرب الناخبين . فكأن البرلمان والحكومة يتراوحان بين رغبات الناخبين وأغراضهم المالية التى لا تلائم منفعة الدولة .

« يستحسن مجلس النواب القوانين حسب منافع الساعة الراهنة . وقد تعلمت فى أربع سنوات قضيتها فى البرلمان أن مساعى أولى الصدق والاستقامة تذهب عبثاً . »

٭
٭ ٭

إن المزايدة الانتخابية أحد الاسباب فى مقت كثير من أبناء الوطن للبرلمان ، فلنبحث أولا فى الطرق الحكومية التى أدت اليها :

تجعل المزايدة الانتخابية النائب كثير الاذعان إزاء الوعيد . فالنائب يسرع فى الاذعان خوفاً من أن يسبقه فيه زملاؤه . و بما أن الوعيد ذا الضجيج لا يصدر إلا عن طبقة العمال يشترع البرلمان فى سبيلها غير مبال بما ينشأ عن ذلك من الاحقاد بين طبقات الامة .

حقاً لقد بذرت تلك القوانين بذور الانقسام والشقاق وأثقلت كاهل ماليتنا وعاقت صناعتنا عن التقدم . وهى باكراهها أرباب الاعمال على الغاء التخرج جعلت مستقبل مشروعاتنا الصناعية محدوداً . وقد قذفت بألوف الاولاد الى الشوارع حتى أصبح الكثيرون منهم من الجناة الخطرين . ولم تفعل مساعدة الطاعنين فى السن سوى منح الناخبين النافذين تسعين مليون فرنك كل سنة كما جاء فى التقارير الرسمية الحديثة . واذا أضفنا الى ذلك مئة المليون التى يعطاها مصفو المسكرات ومئات الملايين التى تنفق كراوتب تقاعد للعمال أمكننا أن نقدر درجة أثقال المزايدة الانتخابية على الميزانية والصناعة .

وقلما يبالى المشترعون بنتائج قوانينهم . فقد جاء فى تقرير نشره أحد أعضاء بلدية باريس فى ٢ نيسان سنة ١٩٠٨ أن قوانين العمال الجديدة تكره بلدية باريس كل سنة على دفع زيادة ٦٠٠،٠٠٠ فرنك الى الشركة التى تجهز معاهد الماء بالفحم .

ولا يحق للبلديات أن تتألم ، فلا فرق بينها و بين أعضاء البرلمان فى سلوك طريقة المزايدة الانتخابية . وقد ذكرت الغلوب — احدى الصحف المالية — أن التدابير التى اتخذتها بلدية باريس باسم الانسانية كلفت مساهمى شركات الترام الباريسية اكثر من ٧٥ مليوناً . ولما رأت هذه الشركات رؤوس أموالها تخسر اضطرت الى العدول عن توزيع حصص الارباح على المساهمين . ولا شك فى أن ذلك يورث الاشتراكيين فرحاً . غير أنهم سيحزنون عند ما يرون المساهمين يعتصبون و يحملون البلديات على ضمان ارباح اسهمهم مما تجبيه من الضرائب المفروضة على جميع الناس . وحينئذ يدرك الاشتراكيون ما للسنن الاقتصادية من قدرة مهيمنة .

ولا يجدى العذل والعتاب نفعاً . فقد أصبحت المزايدة الانتخابية والمذهب الانسانى والخوف أدلاء سيرنا . ومصائب مثل هذه يشتد أمرها عند الامم التى لا استقرار فى مزاجها النفسى و يهددها الانقراض .

☆
☆ ☆

الان يمكننا أن نتصور أسباب مقت البرلمان : أوهام نشأت عن اسراف فى الوعود ، فسعى فى تحقيق هذه الوعود المستحيلة ، ففوضى فى الامور التجارية والصناعية والمالية ، فاضطهاد لطبقات من الامة فى سبيل انجاز تلك الوعود ، فخيبة آمال فى جميع المؤمنين بقدرة المذهب الحكومى .

ولنثابر بعد ذلك على البحث فى انتشار مقت مختلف الطبقات الاجتماعية للنظام البرلمانى :

لا فائدة فى الاسهاب فى بيان مقت الاكليروس للنظام المذكور . فهل ينتظر من أناس ساب البرلمان أموالهم وطاردهم وسامهم أنواع الخسف والاضطهاد أن يعطفوا على أعضائه الذين يناصبونهم العداء جهراً ؟

ولا يقل المعلمون وكثير من الموظفين عن اولئك مقتاً للنظام النيابى وإن لم يوجد ما يبرر ذلك . فلم تفعل حكومة للمعلمين ما فعلته حكومة الجمهورية الحاضرة ولم يمقت المعلمون حكومة مقتهم لهذه الحكومة . يؤيد ذلك انضمام نقابات المعلمين الى جمعية اتحاد العمال الثورية حديثاً .

وأما مقت الموظفين — الذين يقرب عددهم من ثمانمئة الف — للنظام المذكور فيزيد بنسبة تلبية مطالبهم . واذا لم يكبح جماحهم لا يبهظون الميزانية فقط بل يقيمون فى وسط الدولة دولا صغيرة مكان السلطات الاخرى . وهم يطيعون الحكومة ما دامت تجيبهم الى رغباتهم . ولكنهم لا يتأخرون عن قلبهم لها ظهر المجن عند ما يتعذر ذلك لسبب مالى . وما يطلبه الموظفون الان هو « القضاء على سلطة الوزارات وتوزيعها بين دواوين الادارة . » وبهذا يتم استبدادهم الذى ليس بأخف من استبداد (هليو غابال) و (تيبريوس) . فالتخلص من حكم مستبد قاهر ممكن . ولكن كيف نأمل الخلاص من ربقة استبداد رجال الدواوين الخفى ؟

ويكاد الامر كله ينتهى اليهم . فلقد قلب فى فرنسا منذ مئة سنة كثير من النظم ورؤساء الدولة والوزراء دون أن تمس سلطة الموظفين بشىء . وقد زادت هذه السلطة على الانقاض المتكدسة فصرنا نبصر اليوم الذى يكونون فيه وحدهم سادة البلاد .

☆
☆ ☆

ومع أن عطف المشترعين على طبقة العمال لا يقل عن عطفهم على طبقتى المعلمين والموظفين لم يخاصم المشترعين أحد خصومة ذات ضجيج كالعمال . ولا حاجة الى (ماكيافيلى) لشرح هذا الامر . فهو ناشىء عن أحوال الجماعات النفسية . فالجماعات لا تحترم سوى الحكومات القوية وهى لا تكون شاكرة لمن تنال منه رغائبها بقوة التهديد بل تحتقره وتنظر اليه شزراً .

لا شك فى مقت العمال لرجال البرلمان . وهم يحقدون على جميع الاحزاب ولا سيما الاشتراكيين ، واذا كانوا فى بعض الاحيان يتساهلون مع رجال الدين فلشبه بين مزاج الطرفين النفسى .

والعالم يحلم اليوم باقامة نظام شعبي مطلق ضد النظام اليعقوبى. وهو قانع بأن الصعاليك سيحققون ما لم يقدر على تحقيقه أبناء الطبقة الوسطى من سعادة عامة . وقد شعر الاشتراكيون ببغضاء العمال للجميع فحاولوا ان يتقوا شر هذه البغضاء بضروب المصانعة والتملق . ولكن ما لحقهم من الفشل جعلهم لا يجرؤون على الاشتراك فى مؤتمر العمال . وإذا وقع أن اشتركوا فيها فليستقبلوا بأسوأ وجه .

☆
☆ ☆

وكذلك أرباب رؤوس الاموال والصناعات أى منتجو ثروتنا الحقيقيون لا يعطفون على أولى الامر . وعلة ذلك لا لأن هؤلاء لا يحمون اولئك ضد تعدى العمال وحرقهم المصانع وإتيانهم بأنواع القسوة والعنف بل لانهم يقيدون صناعاتهم كل يوم بمختلف القوانين الاجتماعية الجائرة ريثما يستطيعون القضاء على ثروتهم بما يفرضونه عليها من الضرائب الظالمة .

وقد يذهب بعضهم الى عدم وجوب مداراة اولئك الارباب . قال الموسيو (يسار بودان) فى كتابه « السياسة الحقيقية » : « لا تحتاج المجتمعات الى صفوة الناس بعد الان » فكلام مثل هذا لا يلائم سوى الظواهر . وأما الحقيقة فهى أن المجتمعات لم تحتج الى الخواص احتياجها اليهم فى هذه الايام . وسوف يعظم شأنهم . فلولاهم لما قامت للعلم والصناعة وأى رقى مادى قائمة ولاستفحل أمر النظام الاشتراكى المنحط المؤدى الى مساواة الناس فى البؤس والاستعباد .

اذاً للنظام النيابى مبغضون كثيرون . فجميع الطبقات تكرهه حاشا الطبقة الوسطى التى لا تبالى به ولا بغيره . واليك ما قاله الموسيو (دورياك) الذى استشهدت بأقواله غير مرة : « لا تبالى الطبقة الوسطى الفرنسوية المؤلفة من مختلف العناصر والتى ضعضعتها الثورات بأى نظام حكومى . أى إنها ليست ملكية ولا امبراطورية ولا جمهورية . فهى تصوت للنظام الجمهورى لان الجمهورية قائمة . وهى تعاضد كل من يمنحها السلامة والطمانينة . فاذا سقط المنعم عليها لا تنظر اليه لعجزه بعد ذلك عن خدمتها . »

ومن أشد العوامل فى مقت النظام النيابى الاستبداد الذى يقوم به نواب الاقاليم ضد أبناء البلاد الذين لا ينتمون الى حزبهم . وقد أعرب الموسيو (لوبه) — الذى كان نائباً قبل أن يصير رئيساً للجمهورية — عن ذلك فى ملاحظات نشرتها جريدة (الجورنال) واليكها :

« كيف تريدون أن نحافظ على الطريقة القائلة بأن تنتخب كل دائرة نائباً واحداً عنها والطريقة المذكورة ذات عيوب لا تخفى على كل ذى بصيرة ؟ لا يعلم سكان باريس درجة الانحلال الذى أوجبته هذه الطريقة فى أخلاق أبناء الاقاليم والضغط الذى أدت اليه . فشعار كل مرشح فى الاقاليم هو أن الذى لم ينتخبه عدوه . والمرشح الذى ينجح فى الانتخابات لا يهتم بسقوط البرد على كروم خصومه وموت مواشيهم . بل يسعى فى منح نصاره تعويضاً عما لحقهم من ضرر وأذى شامتاً بخصومه الذين يرى فى عدم تعويضهم بشىء جزاء لهم على إعراضهم عنه أيام الانتخابات . وفى بلاد مركزية كفرنسا تدوم مثل هذه الاخلاق زمناً كبيراً . ولكن غريزة العدل النامية فينا لا تظل ساكنة بل تثور فى آخر الامر ، فياويل من يحرك مشاعر الحق فى فرنسا »

وقد آل الامر بذوى البصائر الى الحكم على مجلس النواب حكما قاسياً . يدلنا على ذلك

البيان الذى نشره أشهر رجال المجمع العلمى وكلية الصوربون ونقابة المحامين ونذكر منهم: كارنوو بوشار وكروازه وداسترو بنلفيه وهارمان وديهل وفرنان فور. فقد جاء فيه: « أن الطريقة القائلة بأن تنتخب كل دائرة نائباً واحداً عنها جعلت عاداتنا الانتخابية والسياسية أمراً لا يطاق وأدت الى الاجحاف فى سير الادارة وتطبيق القوانين وأحلت المحسوبية محل الحق والانصاف ونشرت الفوضى فى دواوين الدولة وأوجبت عجزاً فى الميزانية العامة. فقد حان الوقت الذى يجب فيه أن يحرر النواب من ربقة الاستعباد المكرهة إياهم على مداراة الشهوات فى سبيل كراسيهم. وقد حل الزمن الذى يقتضى أن يتصف فيه النظام النيابى بشىء من الكرامة والاخلاق وأن يقوم النضال عن المبادىء مقام المنافسات الشخصية. »

*
* *

وكيف لا يزال النظام النيابى عائشاً على رغم مقت كثير من طبقات الامة له؟ يظل باقياً لانه النظام الوحيد الممكن عند الامم المتمدنة. فلقد اعتنقته جميعها سواء أملك كان على رأسها كما فى انكلترة وبلجيكا وايطاليا أم رئيس منتخب كما فى فرنسا واميركا. والبرلمان فى هذه البلاد هو الذى يشترع والوزراء هم الذين يحكمون. وفى الايام الاخيرة اضطرت دولتا روسيا وتركيا المطلقتان الى قبول النظام النيابى عند ما رأتا أنه لا مناص منه.

وعند ما يصبح أحد النظم أمراً لا مفر منه يكون من الصواب قبوله مع السعى فى تعديله. والنظام النيابى يعدل بوضع طريقة فى الانتخاب تمنح النواب شيئاً من الاستقلال إزاء ناخبيهم. ويعدل بالتدابير التى يقتضى اتخاذها ضد جيش الموظفين كما ذكرت سابقاً. فمتى أصبح الموظفون كناية عن مساعدين لم تتعهد الحكومة لهم بشىء عند توظيفهم عدوا أنفسهم عمالا سهلا تبديلهم ولم يجرأوا على الظهور بمظهر السادة المتجبرين. ويعدل بعزم ولاة الامور على إبداء شىء من الحزم والنشاط وبعدم محالفتهم الغوغاء. وكيف لم يكتشف أصحاب الامر والنهى بعد كثير من التجارب المكررة أن ضعفهم المستمر وعفوهم الدائم لا يفعلان سوى زيادة جيش العصاة المتمردين الذى يستبيح الحرق والتخريب؟

وكلما زاد الصفح والعفو زادت الفتن . فسلوك الحكومة سبيل الصفح من البواعث الرئيسه فى اشتعال نار الفتنة سنة ١٩٠٧ فى مديريتين من مديريات الجنوب وتمرد احدى الفرق ، وفى عصيان (درافى) سنة ١٩٠٨ . وفى اعتصاب موظفى البريد ورجال البحرية والاعتصابات الثورية فى (ميرو) و (مازاره) واقتراف أنواع الهدم والتخريب واستعمال الديناميت لاغراق السفن سنة ١٩٠٩ ، وفى اعتصاب بحارة مرسيليا الجديد سنة ١٩١٠ الخ .

وضعف كالذى يبديه قادتنا لا يدوم طويلا . فاذا عظم أمر الفوضى واستمر حزب النظام فى ضعفه خرجت الفوضى ظافرة .

الفصل السادس

تفاقم الاستبداد

من مميزات الوقت الحاضر تطور الاشتراكية والنقابية على شكل استبدادى ، وقد اوردت إحدى الصحف الكبيرة المثال الاتى من بين ألوف الامثلة المتشابهة وهو :

« حدث فى (سيت) مظهر من مظاهر الاستبداد النقابى المستكره ، وهو أن النقابة جعلت اثنى عشر عاملا فى حال لا يقدرون بها على كسب عيشهم . وما هو ذنبهم ؟ ذنبهم استمرارهم على عملهم فى أثناء الاعتصاب الجديد الذى لم يستحسنوا وقوعه . »

« ولم يوجب الاستبداد النقابى خراباً وإتلافاً فى مكان إيجابه فى مدينة (سيت) المنهوكة بالازمة الاقتصادية التى وقعت منذ زمن قليل ، ولم يأل عمال هذه المدينة جهداً فى تقويض ما بقى من حياتها بما يأتون به من رغبات مفرطة واعتصابات مستمرة ، فالفقر فيها يزيد ، وكذلك الشقاء . وقد بلغت من البؤس مبلغاً أصبحت فيه لا ترى أكثر من باخرة واحدة تقصدها من وقت الى آخر مع أنها تعد مرفأنا الثانى على شواطىء البحر الابيض المتوسط . »

ولا يقع ذلك فى مدينة (سيت) وحدها بل فى جميع أنحاء فرنسا ، فبعد ان كان حدوثه أمراً شاذاً أصبح قاعدة ، ولهذا أسباب بعيدة :

أعلن خطباؤنا السياسيون منذ بدء الثورة الفرنسوية حتى اليوم حقدهم على الاستبداد وحبهم للحرية مع أن تاريخ هذا الدور يدلنا على مقت الناس للحرية وشوقهم الى الاستبداد ولم تتغير منذ عهد لويس الرابع عشر ، فالدولة كانت فى عهده تضطهد البروتستان وأنصار (جانسينيوس) فصارت اليوم تجور على من لم يفكر مثلها سالبة أمواله

إن جميع الاحزاب فى فرنسا مشبعة من الميل الى القهر وعدم التسامح ، وأول ما يتعلمه الاولاد فى البلاد هو كما بين (فاغيه) ازدراء طبقات من الامة والحقد عليهم ، وليست

الهمة التى يبذلها معلمو المدارس لادخال هـــذه المشاعر الى نفوس العامة بشىء مجهول .

ولما كان الشوق الى الاستبداد ومقت التساهل من المشاعر التى يبديها مختلف الطبقات فى الامة وجب احتمالها ومكابدة وطأتهما ، وقد تدرع الاشراف والملوك بالاستبداد فجاء أبناء الطبقة الوسطى وتدرعوا به أيضاً واليوم تتعاطاه صنوف العوام ، ومن الطبيعى أن يمازج تعاطى هـــذه الصنوف له ما تتصف به من العنف والقسوة ، ثم ان القسوة لا تغيظ الاشتراكيين . فهم لا يفتأون يتملقون سادتهم كارقاء الزنوج الذين كانوا يتملقون ملوكهم

يصغى باحترام الى المقررات التى يضعها بعض الزعماء فى الحانات وتطاع بخضوع ، و بما أن الزعماء والجموع التى تتبعهم شديدو الاندفاع لا يسهل إرضاؤهم ولو بالركوع أمامهم على الدوام ، فالنفوس الساذجة لا تعرف الحيف والعقيم والمستحيل ، ولا معدل عن مكابدة أوطار الجموع التى يعبر عنها عبادها لتألف أغلبية الامة من الجموع . و بتأثير الجموع يسن برلماننا اكثر القوانين تناقضاً و يجحد التقاليد و يستخف بمقتضيات الاقتصاد و يناهض نواميس الطبيعة ولا يذعن الا لمنافع الساعة الراهنة واندفاعاتها .

وتلك الاندفاعات هى عنوان عزائم النقابيين والشيوعيين الثوريين . ونرى بين أعظم الزعماء تأثيراً رؤساء جمعية اتحاد العمال ، فعلى مافى نفسيتهم من الانحطاط أضعفت سلطتهم المطلقة سلطة زعماء الاشتراكيين . وقد أبان الموسيو (ديشانيل) حقيقة تلك النفسية فى خطبة جاء فيها :

« أولئك الزعماء قيصريون أريستوقراطيون متدينون . هم قيصريون لازدرائهم النظم الدستورية ولادارتهم جمعية اتحاد العمال إدارة مطلقة ، وهم أريستوقراطيون لاحتقارهم الانتخاب العام والديموقراطية . وهم متدينون لاعتقادهم انقلاباً يخرج منه عالم جديد ، هم يفتخرون بانكارهم الاساطير مع تمسكهم بأسطورة من فصيلة أساطير القرون الاولى ، فالخوارق عندهم بدلت شكلها فقط أى انها تبدو لهم على وجه قادر على تغيير طبيعة البشر وتجديد المجتمعات فجأة . »

والمثل الاعلى لاولئك الرجال الفطريين عبارة عن قهقرة سياسية اجتماعية وعودة الى همجية القرون الخالية حيث كانت تسود شيوعية خالصة لم يتفلت البشر من حكمها الا بعد ان قاسى كثيراً من الصعوبات . وهنالك وجه شبه بينهم و بين قدماء النصارى من حيث

المزاج النفسى والمقاصد. فقد كان أنبياء بنى إسرائيل يتوعدون الاغنياء ويبشرون بملكوت العدل والمساواة. وكان آباء الكنيسة يقولون مع القديس (بازيل) والقديس (جان كريزوستوم) إن الاغنياء لصوص. والثروة عند القديس (جيروم) نتيجة الاختلاس والسرقة. وجميع هؤلاء يرون رد الاموال الى المجتمع وتوزيعها بين الناس على السواء.

☆
☆ ☆

الحاجة الى الاستبداد عاطفة قومية ملازمة لمزاجنا النفسى، ويسهل إثبات ذلك ببيان نتائج النظم الواحدة فى مختلف الشعوب. فلو نظرنا الى النظام النقابى الذى هو وليد طوائف العمال فى جميع البلاد لرأيناه أصبح فى فرنسا آلة عنف وتمرد وحقد وعدم اكتراث للوطن والتجنيد وانحلال اجتماعى مهدد حياة الامة. وأصبح فى انكلترة نظاماً سلمياً مفيداً فى تنظيم العلاقات بين أرباب العمل والعمال رادعاً عن الحقد والتمرد على أى إنسان وقد أثر هذا الامر فى وفد أرسله العمال حديثاً الى انكلترة ليدرس فيها نظام العمل فاليك بعض ما جاء فى تقريره:

« استوقفت الروح القومية فى زملائنا فى انكلترة نظرنا كثيراً. فكل فيها كان يحدثنا عما يغلى فى صدره من مشاعر الاخاء العام. ولم ير أحد هنالك ما يعبر به عن خصومة ضد الحكومة، وفى محال كثيرة ولا سيما فى مصفق العمل فى مانشستر شرب المنتسبون الى النقابات نخب الملك. »

ولا أعلم هل يشاهد الجيل الحاضر ظهور ديانة جديدة كما يدل على ذلك بعض الامارات. وستكون هذه الديانة محلا لاعجابنا إذا استطاعت أن تحبب الينا روح التسامح وتبغض الينا الاستبداد.

ولا تظهر نتائج استبداد زعماء العمال الا إذا تجلت على شكل اعتصابات وتمرد كما وقع فى (درانى). وأشدها خطراً لايبدو للعيان. فتجمع النتائج الخفية يؤدى الى انحلال المصالح العامة والصناعة وجميع عناصر الحياة الاجتماعية ببطء.

اليوم يسلم بعض الرؤساء والزعماء الذين لم تحمهم الحكومة بجميع رغبات العمال ويرضون بخفض انتاجهم خفضاً متصلا قائلين إن جماعة الموظفين وخزينة الدولة هما

اللتان تتحمـلان ذلك فى نتيجة الامر ، والذى يوجب نقص العمـل ومن ثم زيادة النفقة هو الخوف ، فالخوف قد استحوذ على فروع الكهرباء فى باريس ، وليس فى استطاعة أحد أن يتخذ تدبيراً فى هذه الفروع من غير أن يأخذ رأى أمين سر النقابة الذى اعتصب عمال الكهرباء بأمره . وقد صار الانتاج فى دور الصناعة من النقص بحيث يقتضى شغل خمس سنوات لصنع مدرعة يكفى لعمل مثلها فى انكلترة شغل سنتين ونفقة أقل .

وقد أصاب الوهن السلطة بتأثير العـــدوى . ولاعتقاد رؤساء السلطة عجزهم تراهم لا يبالون بالامور العامة ولا يفكرون إلا فى منافعهم الشخصية ، ومن وقت الى آخر تنشأ عن هـذا التخلى وتلك الفوضى نكبة جديدة ، فليس غرق سفن مهمة من أسطولنا الحربى مثل ينا وسوللى وجانبار وشانزى ونيف واللبرته فى بضع سنوات بأمر حدث عرضاً .

ويضاف الى الاستبداد الشعبى أنواع أخرى . فلم يكن استبداد الاشتراكيين اليعقوبى أقل حيفاً من ذلك ويزيد كل يوم تفاقماً ، ونعـد من نتائجه الاضطهاد الدينى الهمجى ونزع أموال طبقة من الامة والقوانين المتجبرة التى لا تلائم التجارة والصناعة الخ .

واليوم يهىء اليعاقبة آلة ظلم لا عهد لفرنسا بمثلها منـــذ قرون وأعنى بها ضريبة الدخل ، فقد أكد جميع علماء الاقتصاد وبين (پول دولومبر) فى كثير من مقالاته أنها ستضعف ماليتنا . ومع أن الاشتراكيين الحكوميين يعلمون ذلك تراهم فرحين من فرضها لسببين : أولهما كونهـا تؤدى الى اضطهاد من ليس من حزبهم . وثانيهما كونهـا توجب معرفة ثروات الناس حتى يتم نزعها إما بالتدريج وإما دفعة واحدة . وريثما يقع ما يرمى اليه الاشتراكيون يكون قانون ضريبـة الدخل واسطة لاثقال كاهل الخصـوم والتخفيف عن الاصـدقاء والاصحاب ، وما درى الاشتراكيون أن هـذا النظام الجائر لا يلبث أن يصبح ممقوتاً وينشأ عنه تمرد كثير لا ينتهى إلا بانتهاء الجمهورية . فالظن أن تخلع الطاعة فى آخر الامر . غير أن حب الاستبداد هو من الاستيلاء على بعض النفوس بحيث يعميها عن إدراك حقائق الامور .

*
* *

وإذا كان الميل الى الاستبـداد واحتقار الحرية عاماً فى فرنسا فاننا لا ننكر أن فيها عدداً من الاحرار الذين لا يشعـرون بحاجة الى اضطهاد من ليس على رأيهم . غير أن قلة

عددهم يجعلهم ضئيلي التأثير. وهنا نطرح هذه الاسئلة وهى : لماذا يتناقص عدد أولئك الخواص ؟ وكيف نجد بين النواب والناخبين أساتذة وأطباء ومهندسين اتصفوا بالحكمة والمسالمة فأصبحوا بعد انتخابهم مدافعين عن أشد المذاهب تخريباً وهدماً ؟ ولماذا تجمع مبادىء الشيوعية الثورية والمبادىء التى لاتلائم منافع الوطن ولا تستحسن نظام الجندية رؤساءها وأقطابها بين رجال الجامعات ؟

لا تكفى الاجابة عن هذه الاسئلة بأن يقال إن الذوق السليم ليس وليد التعلم فى كل وقت ، وإنما هنالك أسباب توجب حدوث تلك الحال الذهنية . ونعد منها الخوف ، والخوف قد صار فاعلا أصلياً فى الانتخابات البرلمانية كما أشرنا الى ذلك آنفاً .

فلما كان صراخ لجان الانتخابات يهول النائب يخشى النائب عدم الظهور بمظهر الجرىء الجسور أى بمظهر المستحسن لاوطار الجوع فيكد فى تحقيقها ، وهو لكى يصبح مسموع الكلمة يزعق أكثر من منافسيه ، ولا يلبث بفعل التكرار أن يعتقد صحة خطبه الخاصة .

ونعد بجانب الخوف سبباً آخر وهو : الوهم اللاتينى القديم القائل ان من الممكنات أن تتحول المجتمعات بفعل الشرائع والقوانين، ولما كانت جميع الاحزاب قانعة بأن المراسيم قادرة على معالجة الشرور والامراض الاجتماعية التى نقاسى أمرها يجد النائب فى الاتيان بعمل، وهو لجهله مافى مقتضيات الاجتماع من تعقد كما كان يجهل الاطباء تعقد البنية الجثمانية يداوى البنيان الاجتماعى كما كان الطبيب يداوى المرضى بالفصد والمسهلات على غير هدى . وقد مضى على الاطباء قرون كثيرة حتى اكتشفوا أن الافضل أن لا يتعرضوا للمريض وأن يتركوا السنن الطبيعية تجرى فى مجراها مجتنبين مس بنية معقدة معروفة قليلا .

ولم تستطع الادلة والبراهين أن تضعف الايمان الفرنسوى القائل ان الحكومة بوضعها القوانين قادرة على فعل كل شىء ، وقد أضحى ذلك الايمان من العقائد الدينية التى لا يجادل أنصارها فى صحتها .ومن هذا القبيل مادلت عليه مقالة الموسيو (بوردو) التى لخص فيها كتاب أحد أساتذة الجامعة . فعلى الحكومة عنده أن تتكفل بسعادة الامة وبنجاتها فى الحياة الدنيا وأن تسير سيراً مماثلا لسير الكنيسة فى القرون الوسطى . فما أشد خطر رجال التربية الذين ولدهم نظامنا الديموقراطى ! وما أشأم أولئك المعلمين الغائصين فى بحار الاوهام والبعيدين من الحقائق التى تقود العالم !

وقد تأصل مبدأ سلطان الحكومة المطلق فى نفوس الاشتراكيين تأصلا جعلهم يرون الحكومة غير مكلفة باحترام العهود والحقوق : ولم تشاهد هذه الذهنية حتى الان فى ملوك الزنوج فى أفريقية ، ومع أن هؤلاء الملوك كانوا يتمسكون بأقوالهم فى بعض الاحيان يعتبر الاشتراكيون الحكومة غير مكرهة على حفظ كلامها ، ولم يتردد رئيس الحزب الاشتراكى عن التصريح بذلك فى مناقشة دارت فى البرلمان ، إلا أن أحد الوزراء أجابه عن كلامه بما يأتى :

« كيف تريد أن تفسر الحكومة وحدها نصوص صك وقعت عليه مع إحدى الشركات ؟ وماذا يكون شرف الدولة اذا أنكرت العقود التى عقدتها باسم البلاد بعد توقيعها ؟ »

*
* *

وبديهيات مثل هذه من الامور التى لا تحتاج الى مناقشة ، فضرورة الدفاع عنها تثبت لنا درجة إغواء المذاهب الاستبدادية لكثير من النفوس .

تدلنا الملاحظات السابقة على نفسية المشترعين وتوضحها لنا . فمن أين أتت مناحى ابن الطبقة الوسطى الثورية ؟ بما أن هذا الابن عاجز عن التأمل والتمييز بوجه عام يسلم بفعل التقليد بضع صيغ دارجة يخفى بها سخافة أفكاره ، ومن هذه الصيغ : « على المرء أن يسير مع الزمن وعلى الرجل أن يتكيف بحسب الاحوال » وهلم جراً ، وهو لا يفقه ماذا ينطوى تحت الصيغ المذكورة ولا يدرك سامعوه لها معنى .

ثم ان ذلك الابن كجميع الافرنسيين حكومى من كل وجه . وهذا سر اتفاق أحزاب الطبقة الوسطى — اكليروسية كانت أم اشتراكية أم ملكية — على مطالبة الحكومة بوضع قوانين لتجديد العالم . والاشتراكية لكونها خلاصة هذه الرغبة العامة تنتشر بسرعة بين أبناء الطبقة الوسطى وان كانت عبارة عن رجوع الى طور الهمجية الاولى وكانت تهددنا باستبداد لا عهد للتاريخ بمثله .

ويضاف الى الاسباب التى ذكرناها كره أبناء الطبقة الوسطى الظاهرى للتقاليد . فما من طبقة حنت التقاليد ظهورها كهذه الطبقة وما من طبقة أبغضتها مثلها وهى فى بغضائها للتقاليد كبغضاء الرقيق لسيده الذى لا مفر له من إطاعته .

ولتلك الاسباب نرى أناساً متعلسين على قدر الامكان يركعون أمام زعماء الكنائس الجديدة بذلة كركوع البطائن أمام ملوك الشرق المطلقين ، ومع هذا كله نشاهد بعض ذوى الاستقلال الفكرى يعدلون عن خدمة أمثال أولئك السادة . فاليك مايقوله الموسيو (إدمون بيكار) أحد أعضاء مجلس الشيوخ فى بلجيكا عن ارتداده عن الحزب الاشتراكى : « إننى لا أترك حزب العمال بل حزب المتعصبين الكثيرى الشغب والعربدة والذين تجرى المزايدة الانتخابية حكمها عليهم فيخافون من الظهور بمظهر العاقل المتأنى . إنى أمقت عدم التسامح وأرفض الاذعان للمبادىء المتجبرة فلتبحث الاشتراكية عن عباد لها غيرى . »

ولا يحتاج قساوسة الاشتراكية الى عناء كبير لايجاد من يعبد مذهبهم . فتطور الاحوال النفسية فى الوقت الحاضر يسهل أمر ظهور أناس مستعدين لمعاناة استبداد أشد من استبداد قدماء الملوك ، نعم ان للحرية أنصاراً من أصحاب العلوم النظرية ، ولكن الاستبداد هو الذى يستهوى الجماعات وقادتها .

الباب الرابع

الأوهام الاشتراكية والأوهام النقابية

الفصل الأول

الأوهام الاشتراكية

يجب أن يفرق بين الاشتراكية التى نمارى فى مذاهبها و بين حركة التضامن الاجتماعى التى نرى انتشارها فى كل مكان . فحركة التضامن الاجتماعى ليست وليدة نظريات الاشتراكية . بل إن انتصار هذه النظريات يعوق سيرها .

إذاً لا نكون بمناهضتنا نظريات الاشتراكية مقاومين لحركة التضامن الاجتماعى التى لا يدور فى خلد أحد أن يحول دونها . فتقدم طبقات العمال مادة ومعنى من المسائل التى تهم جميع الناس . والدليل على ذلك ارتياح الكل لمشروعات التأمين ضد مصائب العمل و إنشاء بيوت للعمال ومنح العمال رواتب تقاعد وتعليم العمال والاعتناء بصحتهم وفتح اعتمادات مالية للمزارعين وتنظيم أمور التعويض الخ .

للاشتراكية مذاهب مختلفة لا يصل بينها سوى الحقد الشديد على النظام الحاضر . و يظهر أن الاشتراكية الحكومية ستحل محل تلك المذاهب . فهى ذات صوت مسموع فى البرلمان وتملى عليه كثيراً من مقرراته . على أن نجاحها لا يستمر طويلا . فقد أخذ ينتشر بين العمال فى ألمانيا وفرنسا و بلدان أخرى مذهب جديد اسمه المذهب النقابى . فهذا المذهب يحول قلوبهم عن الاشتراكية الحكومية .

نرى بين المذهبين فرقاً واضحاً . ولا يكتم أنصار المذهب النقابى هذا الفرق مع أن الاشتراكيين الحكوميين يخفونه لعلمهم مناقضته لنظرياتهم ولشعورهم بتحول روح

الشعب عنهم . وعلى ما يبدونه من التذلل للنقابيين لا يفتأ هؤلاء يذكرون فى الجرائد والمؤتمرات الفوارق التى يبتعدون بها عن اولئك . ففى مؤتمر (أميان) الذى اشترك فيه اربعمئة ممثل لالف نقابة « اقترح أن تكون النقابات على صلة بالحزب الاشتراكى فرفض ذلك بما يقرب من الاجماع . »

ويهتم النقابيون ببيان ما فى الاشتراكية الحكومية من الاوهام والخيالات . ففى مؤتمر سنة ١٩٠٧ خاطب أحد أعضاء المذهب النقابى النافذين رئيساً من رؤساء الاشتراكيين فى فرنسا بما يأتى : « مبادئكم وهمية لأنها تعزو الى قوة الحكومة القاهرة ما ليس فيها من قدرة على الخلق والتكوين ، فأنتم لن تستطيعوا إحداث مجتمع جديد ولن تقدروا على منح العمال أهلية يديرون بها أمور الانتاج والمقايضة . نعم ستصبحون سادة حيناً من الزمن وستقبضون على السلطة التى هى فى ايدى أبناء الطبقة الوسطى وستكثرون من وضع المراسيم ولكنكم سوف لا تأتون بالمعجزات فتجعلون العمال مستعدين للقيام مقام أرباب رؤوس الاموال . قولوا لنا كيف يوجب قبض بضعة رجال على أمور الدولة تغييرمزاج الجموع النفسى وتبديل المشاعر وزيادة القابليات وإبداع قواعد جديدة للحياة ؟ »

ولم يقع انفصال النقابيين عن الاشتراكيين الحكوميين فى فرنسا وحدها بل وقع فى المانيا أيضاً . ففى مؤتمر (مانهايم) الذى عقد سنة ١٩٠٦ رأى الاشتراكى (بيبل) وحزبه أنفسهم أمام رجال من أنصار المذهب النقابى فاضطر (بيبل) — للمحافظة على نفوذه — الى الاذعان للمطاليب النقابية على رغم تصريحاته السابقة .

والنقابيون يرفضون محالفة الاشتراكية . فقد كتب أحدهم : « أن الاشتراكية تسعى فى توسيع نطاق النظم الادارية . فهى مبدأ ضجر وضعف يود أن يحمل الحكومة على القيام مقام الافراد فى العمل . وهى وليدة شعوب شائخة تنحط اقتصادياً . »

لم تكن تلك الحقائق معروفة منذ بضع سنوات الا عند قليل من علماء النفس فأصبحت اليوم معروفة عند كثير من العمال . ثم إن بعض الاشتراكيين المتنورين اطلعوا على كلام الخطباء الفارغ فى حكم الصعاليك المطلق وحلولهم محل أبناء الطبقة الوسطى . قال (برنستاين) : « إن حكم الصعاليك المطلق هو بالحقيقة حكم خطباء الاندية وفرسان البيان »

وما يوجهه النقابيون الى الاشتراكيين من السهام يورث هؤلاء جنوناً فيجعلهم

يقبلون على أشد المبادىء تطرفاً كالمبادىء غير الوطنيـــة . فقد نشرت إحدى جرائدهم الرسمية فى الصفحة الاولى صورة رمزية تمثـل العمال وهم يمزقون أعلاماً محتوية على أسماء أعظم رجالنا فى التاريخ ، ولم يصن ذلك الاقبال الشائن الاشتراكية من الانحلال . فهى اليوم تفترق لى فرق متشائمة تظن كل واحدة منها أنها على الحق المطلق .

تئن جرائد الاشتراكية من هذا الانشقاق . ولم يسعها غير بيانه ونشر أمره . فقد جاء فى عدد جريدة « الحركة الاشتراكية الصادر فى ١٥ كانون الثانى سنة ١٩٠٨ ما يأتى : « تتورط الاشتراكية فى أزمة مستعصية . ونرى سيرها المجيد الذى أفعم القلوب فى القرن الماضى بأطيب الامال يتدرج إلى الافلاس المحزن . إذ يظهر بجانب الاشتراكية الثورية أنواع اشتراكية غريبة كالاشتراكية الحكومية والاشتراكية البلدية والاشتراكية الماسونية والاشتراكية الوطنية الخ . فمتى تظهر الاشتراكية الرأسمالية يا ترى ؟ . »

إذاً يبدو الوهم المتسرب فى الاشتراكية الحكومية لكثير من الناس . ولا يمنعها ذلك من أن تكون قوية فى البرلمان فتؤدى الى سن كثير من القوانين المضرة . فلذا نرى الاشارة الى أخطارها لا تخلو من فائدة . وسوف نفصل فى فصل آت المذهب النقابى الذى هو اكثر أهمية من الاشتراكية الحكومية لصدوره عن مقتضيات الاقتصاد الحاضرة لا عن الوهم والخيال .

*
* *

إن من مقاصد الاشتراكية القضاء على التفاوت الطبيعى بالتسوية بين الناس فى المعايش . وترجو الاشتراكية أن تصل الى ذلك بالغاء الملكية وثروة الافراد و بادارة الصناعات من قبل الحكومة . فهذا المذهب من مظاهر النزاع الأزلى بين الغنى والفقير وبين القوى والضعيف وقد عرفه البشر منذ أوائل التاريخ . وما شذت أمة عن ورود سنته . فبه أضاع الاغريق استقلالهم و به غاب النظام الجمهورى وقام مقامه النظام الامبراطورى فى روما .

وقد كانت الثورة الفرنسوية غير ملائمة للاشتراكيين . فهى وإن قالت بالمساواة أعلنت بعد أن جردت الاشراف والاكليروس من أموالهم أن حق التملك مقدس وأنه دعامة النظام الاجتماعى ثم قضت على كل نزوع الى الشيوعية بقصل رقاب أنصارها .

وكيف ظهرت الاشتراكية الحديثة ثم انتشرت فأصبحت ديانة حقيقية؟ بما أننا أجبنا عن ذلك فى كتابنا « روح الاشتراكية » لا نسهب فى بيانه الان .

للصيغ المبهمة الوجيزة فائدة كبيرة فى عالم السياسة كما فى عالم الدين . فكل يفسرها حسب هواه . وليس بينها ما هو مستغلق كصيغة الاشتراكية فى الزمن الحالى . فهى فى نظر من هم راضون بنصيبهم معبرة عن شوقهم الى تحسين معايش طبقات الشعب الخطرة . وهى عند الساخطين عنوان سخطهم . وهى عند النظريين كناية عن نظام اجتماعى ملائم لاحلامهم جدير بأن يحل محل النظام الاجتماعى الحاضر .

والصفة الرئيسة للاشتراكية هى الحقد على جميع الافضليات : أفضلية النبوغ وأفضلية الثروة وأفضلية الذكاء . والاشتراكية عند أتباعها حلت محل الالهة القديمة وأضحت قوة ذات أسرار قادرة على إزالة حيف الطالع . فهى فى نظرهم ستقيم على أنقاض المجتمع الشائخ عالماً جديداً ينال كل الناس فيه سعادة أبدية .

وما فى المذهب من مستحيل لا يعوق انتشاره . فالاستحالة تلائم اكثر غرائز الناس ، ثم ان المذاهب تستحوذ على النفوس بما تحييه فيها من الامال لا بما تدعو اليه من المعقول . وهى بعد أن توجب فى النفوس تحولا تنتصر على رغم مخالفتها للعقل والمنطق . وفى ايجاد هذه التحولات ينحصر شأن الرسل ، وقد تيسر للمذهب الاشتراكى عدد غير قليل منهم .

ويذكرنا انتصار الاشتراكية بانتصار المسيحية فى بدء أمرها . فلقد انتشرت المسيحية أيضاً مع ما فى مبادئها من منطق ضعيف ومع ما أتى به الفلاسفة من انتقاد لها . وما لبثت بفعل التلقين والعدوى النفسية أن اعتنقها اصحاب النفوس النيرة واولو العقول الراجحة .

وأهم سبب فى نجاح الاشتراكية ظهورها فى وقت يكفر الانسان فيه بآلهته القديمة باحثاً عن آلهة أخرى . فالانسان لا يقدر على العيش من غير دين أى من غير أمل .

ولا فرق بين الطبقات الاجتماعية كلها من هذه الجهة . فاذا كفرت الطبقات بالالهة فلتؤمن بالاصنام . وبهذا نفسر السبب فى انتشار الاشتراكية بين الخواص كانتشارها بين العوام . وقد أصبح هذا المعتقد من القدرة على سحر الناس بحيث يجعل الطبقات المتعلمة تضيع كل يقين بعدل قضيتها ولا تدافع أمام أوقح الخطباء . فكأنه ران على قلوبها الخوف

وحب الانسانية المبهم الذى هو بالحقيقة مظهر مبهم حقير للأثرة وعلامة انقراض كما لاحظ (رينان) .

ولا تنتشر الاشتراكية لما فى مثلها الاعلى المادى الذى تقترحه من قيمة بل على رغم هذا المثل الاعلى . أى إنها تنتشر لما تبذره فى النفوس من أمل دينى فى جنات دنيوية يتمتع فيها جميع الناس بسعادة سرمدية . وقد أتيح لى مرات كثيرة أن أثبت أن الناس اقتتلوا فى غضون التاريخ فى سبيل المبادىء اكثر مما فى سبيل قضاء حاجاتهم المادية . فالامل بالعمل تحت سيطرة حكومة اشتراكية لكسب العيش لا يستهوى أحداً . وقد توصل الموسيو (دافنيل) فى كتابه « اكتشافات الاقتصاد الاجتماعى » الى مثل هذه النتيجة ولكن على طريقة أخرى ، فانظر كيف يعبر عما فى نفسه :

« ليس لرغد العيش غير مكان ضئيل فى تاريخ الامم . فما رأوا أن يفكروا فيه إلا بعد دهر طويل . وقد جدوا زمناً كبيراً فى نيل أطايب هى من نوع آخر . أى إن الحضارة فى القرون القديمة والقرون الوسطى بحثت عن الجميل قبل أن تبحث عن المفيد فبرعت فى إقامة المعابد والتماثيل قبل أن تبرع فى صنع المصابيح والمظال وتعلم الناس فيها الكتابة قبل أن يطلعوا على أصول التدفئة واكتشفوا المنقاش قبل اكتشاف الشوكة .

« عاش الناس للمبدإ والخيال اكثر مما للمادة . فقد مجدوا رجال الحرب الذين أتوا بضروب البطولة وأحيوا ذكريات قادة الفكر وأرباب الفن الذين لم تكن لآثارهم فائدة عملية . وأما الذين أتوا بالمخترعات التى لا غنية للناس عنها فيظهر أن أسماءهم طمرت فى عالم النسيان . فكأن الناس ما عاشوا وما ماتوا الا لاجل المبادىء .

« واليوم نرى الذين هم اكثر الناس تمسكا بالاموال والملاذ يركضون وراء نعيم خيالى اكثر مما وراء قضاء حاجة جثمانية . »

*
* *

لم أبدأ بادراك ما فى أقوال علماء اللاهوت فى القرون الوسطى من الهذيان الا بعد أن قرأت هذر الاشتراكيين فى تكوين المجتمع القادم . فما أشبه هؤلاء بأولئك فى جهل طبيعة البشر ومقتضيات الاقتصاد وفى الاوهام والخيالات وفى الميل الى القضاء على الحال لتحقيق ما تصوروه .

حقاً لقد ترك علماء اللاهوت وارثين لمزاجهم الذهنى . فالاوهام لم تفعل سوى تبديل اسمها . ولا فرق بين ما توجبه الان من التعصب والتخريب وبينه فى الماضى . والاشتراكية لانها ديانة ذات رسل فيهم ما فى علماء اللاهوت من عدم التسامح نراها ذات مبادىء ولهجة وعقائد وطرق فى النشر والاذاعة مماثلة لما يقابلها فى دين اولئك العلماء .

قال (ساجيره) : « لم نطفىء نجوماً خيالية الا لنضىء نجوماً خيالية أخرى أى لا فرق بين المدنية المقبلة وبين اورشليم المقدسة . فكلتاهما لا هوتيتان . »

إن فى نصرانية الاجيال الاولى التى نرى بينها وبين الاشتراكية شبهاً كبيراً عامل نجاح لا يوجد فى الثانية . فالنصرانية تقول بثواب فى جنات الاخرة . وأما الاشتراكية فبما أنها تعد منذ ستين سنة بسعادة دنيوية لم تتحقق بعد تتضعضع يقين الناس بها وأخذ يحل محلها المذهب النقابى الجديد الذى لا يدانيها فى الوهم والخيال .

تقوم الاشتراكية الحكومية على كثير من الاوهام التى أخذنا نبصر بطلانها . ويمكن إرجاعها الى المقترحات الاتية وهى : اولا إقامة مجتمع جديد بمراسيم تمليها الثورة ثانياً إلغاء رؤوس الاموال التى هى مصدر كل شر وشقاء لنشر ألوية السعادة العامة ثالثاً استيلاء الحكومة على الاملاك والصناعات وإدارتها على يد جحفل من الموظفين وتوزيع المنتجات بواسطتهم على أعضاء المجتمع .

ويسهل تصوير مجتمعات وهمية على الورق قائمة على مثل تلك النظريات التى لا تبالى بالعواطف والمشاعر ومقتضيات الاقتصاد وحقائق الامور . فمجتمعات مثل هذه جنات اولى النفوس الساذجة .

لا تزال تلك الاوهام ذات قدرة فى فرنسا على الأقل . فهى تورث النفوس اعتماداً تاماً على أصحاب القهوات وعلى صغار الباعة الذين يتألف منهم كثير من لجان الانتخابات وتصدر عنهم القوانين الشديدة الخطر . ولا أحد ينكر أن ابتياع بعض السكك الحديدية المهمة تم كضريبة الدخل بفعل المبادىء الاشتراكية . فأما ابتياع تلك السكك فالغاية منه احتكار الحكومة جميع الصناعات . وأما ضريبة الدخل فلا ترمى الى غير الوقوف على أحوال أبناء البلاد المالية حتى يصبح أمر نزعها من يد أصحابها ممكناً فى المستقبل . ويعلم الاشتراكيون أن مثل هذه الضريبة لا يستقيم الا بشىء من الجور والاضطهاد ، أى بما يزيد النظام الجمهورى أعداء والمجتمع تقويضاً .

و يحتمل أن أشد أوهام الاشتراكيين بطلاناً هو حكمهم بالقضاء على الطبقة الوسطى مع أن كفاءة هذه الطبقة وذكاءها و رؤوس أموالها أوجبت إيسار الصناعات التى يعيش العمال منها . فلنفرض أن رب عمل يستصنع فى مصنعه ألف عامل و يربح كل سنة اربعمئة الف فرنك وهب مصنعه لعماله فان أجرة هؤلاء العمال تزيد عشرة سنتيمات كل يوم من جراء توزيع ذلك الربح عليهم . غير أن هذه الزيادة لا تلبث أن تنقص كثيراً لقلة من يقدر على إدارة الصناعات الكبيرة ولان الارباح تقل بنسبة ما فى كفاءة رؤساء الصناعة من الضعف . هذه حقيقة ساطعة لا يود الاشتراكيون أن يعترفوا بها وأن يعلموا أن أصحاب الاهلية فى الصناعات الحاضرة عبارة عن آلات ثمينة لا تكافأ بما تستحق .

وفضلا عن ذلك لنفرض أن النصر تم للاشتراكية و بوشرت التسوية بين الناس فى الاجور ، حينئذ نرى جميع أصحاب الذكاء — من علماء وأرباب فن ومخترعين وعمال ماهرين — يهاجرون الى البلدان المجاورة حيث يستقبلون بحماسة . إذ النبوغ يجزل لصاحبه الاجرة فى كل مكان . وهكذا لا تظل الاشتراكية سائدة إلا لمجتمع مؤلف من أشخاص كثيرى الانحطاط .

ومما يحسن الالماع اليه أنه ليس على الفاتح الذى يود أن يستولى على بلاد أصبحت شتراكية الا أن يرفع أصبعه لينال ما يتمنى . و يجيبنا الاشتراكيون عن ذلك بأنه لا فرق فى نظرهم بين رب العمل الافرنسى و بين رب العمل الالمانى . فكلاهما عنوانان لشىء واحد . و إنا حرصاً على إزالة هذا الوهم نحيلهم على كتب التاريخ ليروا ماذا كان مصير الامم التى أوقعها الشقاق تحت نير الاجنبى . ومن الامثلة على ذلك ما وقع لبولونيا التى يجلد الالمان أبناءها و ينزعون أملاكهم من أيديهم والتى يرمى الروس رجالها بالرصاص عند ما يرفعون عقيرتهم حاظرين عليهم تعلم لغتهم القومية . فعندى أن ما صارت اليه بولونيا جدير بأن ينقش بحروف من ذهب على قاعات كل مؤتمر يعقده الاشتراكيون حيث يأتون بمقررات منافية لمصالح الوطن العامة .

على أن الاشتراكية قصيرة الاجل بعد أن يتم لها النصر . فسرعان ما يسلم الشعب مقاليد الامور إلى مستبدين منقذين بحماسة كالتى سلم بها زمام الحكم الى من عانت فرنسا حكمهم منذ الثورة الفرنسوية . و ريثما تستقر الاحوال على هذا الوجه يصيب البلاد مالا يتصوره العقل من سلب وتخريب . وانى أشاطر (لا فيلى) رأيه القائل : « ان

الاشتراكية المنتصرة تقضى على رؤوس أموالنا بالديناميت و زيت البترول . أى بهمجية لم تر باريس مثلها فى عهد (الكومون) سنة ١٨٧١ . »

وقد بحث (فاغيه) عن الكيفية التى تنتصر بها الاشتراكية فتوصل مثلى الى أنها قد تنتصر بفضل ما يلحق الجيش من ضعف فى قوته الادبية ، وما حدث أيام (الكومون) يثبت لنا إمكان سقوط الحكومة بغتة . وقد يتم هذا السقوط على وجه أبسط بفعل بعض التدابير الاشتراعية . فعند المؤلف المشار اليه « يكفى قرار اشتراعى كقرار سنة ١٧٩٠ أو إسقاط البرلمان من قبل الشعب لنزع أموال الطبقة الوسطى ومعاملتها بما عومل به الاكليروس والاشراف أيام الثورة الفرنسوية والجمعيات اليسوعية فى السنين الاخيرة . »

و يظهر أن نفحة جنون أعمت بصائر أبناء الطبقة الوسطى فى أيامنا . فانك تراهم يكدحون فى تقويض أركان المجتمع الذى يحميهم ولا سيا ركن المالية و ركن الجيش . أى إنهم يضعضعون بالتدريج كل نظام و يستحسنون أسوأ التدابير المالية والعسكرية التى يقترحها الاشتراكيون غير عالمين أن انتصار الاشتراكية يؤدى الى استبداد أشد من استبداد الملوك .

إذاً أبناء الطبقة الوسطى واهمون لاتباعهم التيار الذى يدفعهم والذى يقدرون على تحويل وجهته إن لم يستطيعوا منعه . وهم قدفقدوا كل شعور بأفضليتهم وقدرتهم وقيمتهم وصاروا لا يدركون أن المجتمع لا يعيش من غير نظام وتقاليد وسلسلة مراتب . ومما يجهلونه على الخصوص هو فن مخاطبة الجماعات وحقيقة روحها البسيطة وأن خيال العامل هو أنه مستثمر من قبل رب العمل وأن على الحكومة أن تزيد أجرته .

قال الموسيو (بوردو) : «ليس للجماعات رأى خاص صريح فهى تشاطر رأى الخطيب الذى يخطب أمامها سواء أجمهورياً كان أم إكليروسياً أم وطنياً أم دستورياً أم نقابياً ثورياً . »

حقاً تنظر الجماعات الى الامور بحسب مايؤثر الخطباء فيها . وهى لا تنظر الى مايقيمونه من الادلة والبراهين بل تتحزب كالنساء للاشخاص دون أن تعى ما يجىء فى خطبهم . وهى تسلم بجميع الحقائق إذا كان قائلها يروقها . والخطيب يروقها إذا كان متحمساً نشيطاً . فقد شوهد فى إحدى مديريات الشمال التى تعد حصن الاشتراكية المنيع مرشحاً محافظاً انتخب نائباً عنها مكان رئيس كبير للاشتراكية لا بما ادلى به من المعقولات

بل لانه عرف كيف يحبب نفسه الى الجماعات و يجعلها ترى فيه السيد الذى تبحث عنه على الدوام .

والجماعات على رغم غرائزها الثورية الظاهرية لا ترى الا أن تطيع . والتاريخ حافل بما يؤيد ذلك ، فأشد العمال عنفاً يخضعون غير مجادلين لاوامر اللجان الثورية فيعتصبون دون أن يفكروا ولو قليلا فى نتائج الاعتصاب . وما كان لويس الرابع عشر أو بونابارت ليجسر على إصدار أوامر جائرة كالتى تصدرها تلك اللجان الغامض أمرها .

☆
☆ ☆

ذكاء كثير من الاشتراكيين يمنعهم من الاعتماد على مبادئهم عندما يصلون الى دائرة السلطة ، فهم لانتسابهم وقتئذ الى الطبقة الوسطى يطلعون على ما فيها من المزايا والصفات ومن ذلك قول الوزير الاشتراكى الموسيو (فيفيانى) : « يعيش حول الصعاليك أبناء من الطبقة الوسطى ذوو أعمال ومصالح وعزم ورغبات ، ومن قلة الانصاف تعريضهم لغضب العمال واستخفافهم . فهم الذين أثبتوا بمن ظهر منهم من المفكرين والفلاسفة أن ملكوت السماوات وهم . »

ولو لم يبد أبناء الطبقة الوسطى كثيراً من الاوهام ما استحقوا هذا الاعتراف . ولا اعلم عن ملكوت السماوات أوهم هوأم لا كما أننى أعتقد أن الموسيو (فيفيانى) لا يعلم ذلك أيضاً . ويقوم إنكار ملكوت السماوات على فرضية لا يسلم بها أكثر الفرنسويين فعلى الرجل السياسى الحقيقى أن يعرف كيف يحترم جميع المعتقدات وأن يحكم الامة بمبادئها لا بمعتقداته الخاصة . وإذا كانت فرضية ملكوت السماوات لا تزال مشتبهاً فيها فلم تتم مبتكرات الحضارة الا بفضل أبناء الطبقة الوسطى ، فمن هؤلاء ظهر أرباب الفن والصناعات والفلاسفة والعلماء فى كل زمن .

وقال الموسيو (كليمانسو) فى إحدى خطبه : « ليست الديمراطية حكومة الجموع ، فكل تطور يقع فى المجتمع يكون بجهود المفكرين الشخصية . ولا يكون الرقى الا بملاءمة الجموع أفكاراً اختبر صحتها بعض أولى العبقرية . »

ولا تقل إن هذه الحقائق مبتذلة معروفة لدى الناس جميعهم ، فرجال السياسة

لا يفقهونها الاعند تربعهم على دست الاحكام . وهى لا تؤثر فى الاشترا كيين الثوريين الذين يعللون أنفسهم بنقض المجتمع الحاضر . نقول ذلك ونحن نعـــلم أن هؤلاء الرسل المشاغبين يدركون بقليـل من إنعام النظر أنه لا ينالهم شىء من تبـديل الحكومة التى يلعنونها . أى إن الذين يبقون منهم أحياء بعد المذابح التى تحدث لا يلبثون أن يروا طرز الحكم لم يتبدل الا قليـلا فيصبحوا من الرجعيين . وهذا ما شوهد فى كل مرة جاء فيهـا القياصرة ليقضوا على الفوضى .

وعلى الثوريين المنتصرين أن يختاروا إحدى الطريقين . إما أن يبقوا ثوريين رافعـين أعلام الفوضى وحينئـذ تتفق جميع الاراء ضدهم فلا يدوم سلطانهـم . و إما أن يحكموا البلاد بأسلوب مماثل لحكم الماضى . وهذا ما يفعله جميع المشاغبين المنتصرين ،فكل من يدعو الناس قبـل أن يقبض على زمام الحكم الى التمرد والاعتصاب العام واستعمال العنف والقسوة لا يلبث أن يحارب هذه المنازع عندما يصير سيداً لا لخيانة يخون بهـا مبادئه بل لاكتشافه أن حياة الامة قائمة على محافظة بعض القواعد التقليدية .

والخطر الحقيقى فى ضعف أولى الامر منا ، لافى صـولة رجال الثورة . فمتى تصبح بلاد مشبعة من الفوضى ومصالح مهددة بالاعتـداء عليها ومتى أضحى لا يرى فيها غير خطب هذرية ووعود كاذبة وقوانين عقيمة يبحث سكانها عن حاكم مطاق قادر على إعادة النظام وحماية العمل . على هذا الوجه غاب كثير من النظم الديموقراطية عن الوجود .

نعم ان الحكم المطلق يوطد النظام حيناً من الزمن . الا أنه مؤد لمعركة كمعركة (واترلو) و (سـيدان) ثم إلى افتتاح الاجنبى للبلاد . ولم يأسف الرومان على تسـلم (أغسطس) مقاليد الامور . غير أن حكم (أغسطس) جعل ظهور أمثال (تيبريوس) و (كاليغولا) ثم الانحطاط التدريجى وانقراض روما على يد البرابرة أموراً ممكنة

لقد تطلبت إعادة العالم الذى قضى عليه البرابرة الف سنة لم تهدأ فى أثنائهـا الحروب والثورات ، واليوم نرى البرابرة داخل أسوارنا تاركـين إياهم يمعنون فى تقويض بنيان اجتماعى لم يبلغ ما بلغ اليه الا بمصاعب عظيمة ، ففى بعض الاحيان يزول المجتمع سريعاً . ولكنه يجب مرور قرون كثيرة لاعادته

الفصل الثانى

الأوهام النقابية

أصبح تضامن المصالح المتجانسة سنة الجيـــل الحاضر . وليس هذا التضامن وليد الصناعة الكبرى ، بل إنهـا أوجبت نموه ، فلقـد عرفت جميع البلاد أشكال التضامن ، ومنها الجمهوريتان (فلورنسا) و (سيان) الايطاليتان اللتان كانتا فى القرون الوسطى عبارة عن اجتماع نقابات كثيرة . وكذلك طوائف العمال التى قضت عليها الثورة الفرنسوية كانت نقابات حقيقية

وفائدة هذه الجمعيات هى أنها تمنح منتسبيها قوة لا تكون للرجل وهو منفرد ، ثم أنها تعفيه من ملكة الاستنباط وملكة العزم الشاقتين اللتين قل من يتحلى بهما

نرى رابطة النقابة تصبح الرابطة الوحيدة بين الناس ، فبينما تصـير الانظمة السياسية غير محترمة وبينما يضعف المبـدأ الوطنى وتضمحل العقائد الموروثة نشاهد المبدأ النقابى يعظم شأنه ، وقد دخل فى الطور الذى يوجب به حقوقاً جديدة ، ومنهـا العقود الجامعة التى يعقدها رب العمل مع النقابة لا مع العامل

والعامل فى النظام النقابى يكسب على أن يسلم باستبداد صارم ، وهو إذا استطاع أن يحافظ فى النظام المذ ور على وهمه فى قوته فلا يحافظ على وهمه فى حريته أبداً .

ولنا فى التاريخ النقابى دليل ساطع على الحقيقـة القائلة بأنه لا مزية فى الانظمة ذاتها وبأن تأثير هذه الانظمة يختلف باختلاف الشعوب التى تعتنقها

للنقابية شكلان يختلفان باختـلاف الامم : النقابية السلبية والنقابية الثورية ، فالاولى تشاهد عند الانغلوسكسونيين الذين لا تهتم نقاباتهم بغـير المصالح الاقتصادية ولا تعرف منازعات الطبقات ، وتشاهد الثانية عند الامم اللاتينية التى أصبحت نقاباتها فوضوية لاهم لها سوى تقويض المجتمع . وهذه الاخيرة هى التى سنبحث عنها الان .

فى فرنسا بضع نقابات تقتصر كما فى انكلترة وألمانيا على النضال عن منافعها ولم يبد منها

حتى اليوم ميل الى الهدم والتخريب . إلا أن عددها القليل يجعلها عديمة التأثير ، وللنقابية الثورية التى تمثلها جمعية اتحاد العمال المشاغبة شأن غير ذلك ، وقد بينا آنفاً درجة بغضائها للاشتراكية التى أصابت فى عدها مظهراً من مظاهر الحكومية .

ولم يمض على تأسيس جمعية اتحاد العمال سوى بضع سنوات حتى رأيناها تزعم أنها نقابة النقابات وإن كان لا ينتسب اليها غير خمسة فى المئة من عمال فرنسا . وبهذا نستدل على أن قوة المذهب ليست بعدد أنصاره . كانت تلك الجمعية فى بدء الامر تتراوح بين الضعف والقوة . وما أخذت تكون قوية الا بعد أن صار على رأسها بضعة ثور بين أذكياء عالمين أن سلطة خفية نشيطة متحلية بعدد قليل من المبادىء الثابتة لا بد من أن تصبح عظيمة بفضل ضعف الحكومة والفوضى العامة .

ونرى تاريخ تلك النقابة عظيم الفائدة من الوجهة النفسية والوجهة السياسية ، فهو يثبت لنا أن عدداً قليلا من الرجال الحازمين يقدرون على تأسيس هيئة تفاوض الحكومة حسب قاعدة المساواة وتكره البرلمان على الاسراع فى سن قوانين تمليها عليه بتجبر .

والنفوذ فى عالم السياسة أمر ذو قيمة ، ويكفى الزعيم فى بعض الاحيان جعله الناس يعتقدون حيازته له ، فلقد استمر نفوذ السحرة الف سنة ، ولم يكن لهذا الاستمرار سبب غير اعتقاد الناس صحة سحرهم .

وتأسيس المرء لنفسه نفوذاً شخصياً أمر كثير التعقيد ، ويسهل إذا قامت به جماعة . فالناس يجادلون فى نفوذ الشخص ويعانون نفوذ الجماعة . وبهذا نفسر احترام الناس للجان الانتخاب التى هى صاحبة القول والفصل فى البرلمان . وقد بين القطب السياسى (ريمون بوانكاره) فى خطبة ألقاها حديثاً أن النواب الهائمين يصوتون وكل واحد منهم ينظر الى دائرته الانتخابية الصامتة سائلا : « هل تصويتى يرضى اللجنة ؟ » فأكثر نواب الاشتراكيين شغباً وأشدهم مقاطعة للوزراء هم صغار أذلاء أمام لجان الانتخاب المؤلفة فى الغالب من مدمنى الخمرة المشاغبين ، ومن يستند الى لجان الانتخاب والى جريدة والى عدد كاف من باعة المسكرات لا يمنعه مانع من أن يكون أحد سادة البلاد .

على أنه يحيط باللجان الانتخابية شىء من الاخطار ، فلما أكرهت هذه اللجان النواب على وضع قوانين منافية لرقى صناعتنا اضطر التجار الى تأسيس جمعيات دفاع ، وقد جعلت جمعية تجار المفرق مجلس النواب يتردد أمام فرض كثير من الضرائب .

ومهما كان الامر فان مستقبل المصالح السياسية والمصالح المهنية غير منوط بالمؤثرات الفردية بل بلجان يقودها زعماء وما غابت هـذه الحقائق عن بال جمعية اتحاد العمال، فبرنامجهم وان كان يقول فى الظاهر بتأليف نقابة شاملة تديرها لجنة مجردة من سلطة منظورة يقصد بالحقيقة إلزام الجمعيات المؤتلفة أوامر مطلقة لا يجادل فيها.

وهنا يبدو أول محذور: أفلا يدعى العمال الى انتخاب تلك اللجنة قبل أن تتمتع بالسيطرة على شؤون العمال؟ لم يثن هذا المحذور الذى يثبط بسطاء الساسة عادة مؤسسى جمعية اتحاد العمال، فلما أيقن هؤلاء بان الاكثرية لم تكن فى جانبهم أقاموا مقام سلطة الاغلبيات سلطة الاقليات، وهم لكى يبرروا عملهم قرروا على رغم المبادىء الديموقراطية والمبادىء الاشتراكية أن الاقليات وحدها هى التى يحق لها أن تلزم الناس رغباتها، قال أحد زعماء المذهب النقابى: «الفرق بين النقابية والديموقراطية هو أن الديموقراطية تسلم بالانتخاب إدارة الامور إلى فاقدى الشعور غير مكترثة للاقليات التى يتوقف عليها أمر المستقبل وأن النقابية تحمى بالعكس أرباب الشعور المتطرفين.»

وإلى ماذا تستند كفاءة أقلية متطرفة؟ تستند الى الغريزة وحدها. فرؤساء الجمعية يؤكدون «أن أقل واحد منهم يخوض غمار المعركة يبلى فيها أحسن من أى متمذهب»

والمشورات التى تعطي ذلك المنتسب هى كالتى تعطى أحد الملوك المطلقين الذين لا يبالون بالقوانين. قال أحد زعماء تلك الجمعية: «إن العامل الفرنسوى المنتسب الى الجمعية فوق كل سلطة وحرمة ورتبة، فهو لا يسأل قبل أن يسير عن سماح القانون له بالسير أى إنه يسير غير مبال بشىء.»

وأما جموع العمال فلم يزدرها ملوك آسيا المستبدون ازدراء الولاة الجدد لها، ويصيب هؤلاء بقولهم إنها تؤمن بكل ما تلقنه لعجزها عن التأمل والتفكير. ففى أيام الثورة تميل الى الجهة المتصف أفرادها بالجرأة والاقدام وفى الايام الاعتيادية تلزم جانب السكوت

«وأولو الشعور وحدهم هم الذين يحق لهم أن يتكلموا باسم طبقة العمال» ومن الطبيعى أن يكونوا كناية عن مديرى جمعية اتحاد العمال. فهؤلاء لادراكهم نذالة الجموع يعاملونها كقطيع من الارقاء، وقلما يعتنى مفوضوهم بايضاح الاوامر — كامر الاعتصاب مثلا — للعمال. فاذا أبدى عامل شيئاً من المقاومة يقتله زملاؤه الذين يطيعون أوامر اللجنة. فكأن أمر المفوض قام مقام سوط العريف الذى كان يراقب الزنوج ساعة غرس الاشجار والنباتات

وأشد الاهواء مخالفة للمعقول تستحوذ على تلك الأعتصابات فى الغالب ، وقد أتى الموسيو (فيكتور غريفول) أحد أعضاء جمعية اتحاد العمال بدليل على ذلك فى كتابه الذى سماه « سياحة ثورى » فاسمع ماذا يقول : « كان أمام كل معمل من المعامل المجاورة لأرصفة مرسيليا مفوض للنقابة . وقد كان هذا المفوض ذا سلطة واسعة ، فلما صرخ فى أثناء العمل صرخـــة الاعتصاب اعتصب العمال دون أن يعرفوا هم وأرباب العمل أسباب الاعتصاب »

و بمثل هذا الاقرار نطلع على السهولة التى بها يستعبد الزعماء الجموع عند ما يكونون ذوى نفوذ . وقد تؤدى إطاعة الجموع زعماءها الى إنكار ذاتها إنكاراً لم يطلبه اليها أشد المستبدين . فكل يعلم قصة صاحب معمل الطوب فى احدى ضواحى باريس . فقد أراد هذا المستصنع الذى لا وارث له أن يعتزل فعرض على عمـاله أن يحول معمله إلى شركة مساهمة وأن يوزع أسهمها عليهم على أن يظل مديراً للمعمل مـدة من الزمن حتى تسير الأمور فيه كما ينبغى ، رضى العمال بذلك شاكرين ، ولكن ماذا جرى ؟ خشيت جمعية اتحاد العمال عاقبة اتفاق رب عمل مع عماله فاشارت الى العمال برفض ما عرضـه عليهم صاحبهم فأطاعوها صاغرين ، وقد شفى رب العمل بذلك من عاطفته فأغلق باب معمله .

وليست أساليب التحكم التى يتخذها رؤساء النقابات أمراً حديثاً . فعليها سار جميع الملوك السابقين ، واليوم ذوو الاعتماد الكبير على نذالة الجموع هم الذين يجرؤون على تطبيقها .

وكيف يستقيم أمر تلك السلطة الجديدة التى تزعم أنها تقوم مقام السلطات الأخرى ؟ بما أن النقابيين الثوريين لا يعبأون بعزيمة الشعب وبالقوانين التى أخذت تسلس لهم هان عليهم حل المعضلة . فهم بمـا يوجبونه من وعيد وتخريب واعتصابات عنيفة ينالون كل ما يتمنون ، ومتى يحدث فى أحـد الأمكنة اعتصاب سلمى ترسل اللجنة فى الحال بضعة مفوضين مجربين لدعوة المعتصبين الى استعمال العنف والقسوة ، وبعد أن يوقدوا نار الفتنة يذهبون الى مكان آخر ليكرروا عملهم .

وتوغر هـذه الأساليب صدور الاشتراكيين الذين لا يزالون يؤمنون بالانتخابات العامة وبشفاء القوانين ، قال أحدهم فى مؤتمر (نانسى) المنعقد فى سنة ١٩٠٧ : « تتذرع النقابية للوصول الى أغراضها بالمقاطعة والتخريب والأعتصاب الجزئى ، وهى بهـــذه الأسلحة تزعم أنها قادرة على تحويل الملكية والمجتمع وعلى تسلم أمور الدولة وإسكات مدافعها ، فياللهزوء والسخرية ! »

و مما يلاحظه الاشتراكيون أن النقابة لا ينتسب اليها سوى عدد قليل ، فنحن لا نرى فى ذلك ما يقلل أهميتها . فالمذهب لا يحتاج فى تأسيسه الى زيادة فى عدد الانصار ، واكثر الناس انتقاداً لأساليب جمعية اتحاد العمال هو الزعيم الاشتراكى الموسيو (غيسد) ، فقد قال : « أرجو أن تبينوا لى كيف يمكن تحويل الملكية بكسر المصابيح و قتل الجنود وحرق المصانع ، فأرى أن يوضع حد لهذه الترهات الثورية ، لأنى أرى كل عمل تأتى به النقابة مهما بلغ من العنف و مهما أوجب من الأعتصابات لا يحول الملكية أبداً . »

و يجيب النقابيون الثوريون عن ذلك بقولهم إن أساليبهم جيدة لما ينشأ عنها من من النتائج المفيدة ، و يبرهنون على ذلك بكثير من الامثلة ولا سيما مثال مكاتب الاستخدام « فلقد ألقت المظاهرات الشديدة المكررة رعباً فى الحكومة ، فعرضت وزارة (كومب) على البرلمان لائحة قانون اقترع لها فى ثلاثة أيام . وهل فى فائدة هذا الدرس ما يحتاج الى إيضاح ؟ »

فائدته واضحة جلية . ولكن لو بذل هذا الوزير فى مقاومة تهديد النقابة ربع ما بذله من النشاط فى تجريد الرهبان والراهبات من أموالهم وطردهم من فرنسا لما زادت الفوضى الاجتماعية هذه الزيادة .

حقاً لا تستند سلطة جمعية اتحاد العمال الى غير ضعف الحكومة . و هى لا تنمو إلا فى بلاد مثل فرنسا ، و لا تعرف انكلترة و أميركا نظير الحادثات التى ألمعنا اليها آنفاً ، ففى الولايات المتحدة يحكم على مقترفيها بسجن سنوات كثيرة لا يصيبهم فى أثنائها رحمة عفو و فى انكلترة لما كانت النقابات مسؤولة عن الضرر الذى يوجبه أعضاؤها مسؤولية مالية لا عهد لها بسياسة الهدم و التخريب .

و جمعية اتحاد العمال لاعتقادها أنها مصونة من الجزاء تجاوزت أيام اعتصاب (درانى) الحدود كثيراً ، فلما علمت المحاكم أن المعتصبين فى أثنائه يخربون الالات و ينهبون أبناء السبيل و يهجمون على العربات لم يسعها سوى مقاضاتهم ، فهددت جمعية اتحاد العمال الحكومة بأعلان الاعتصاب العام إذا لم تمنع القضاء عن الحكم ، و بما أن نهب العربات وحرق المصانع أمران لم ينص عليهما قانون العقوبات قضت المحاكم على بعض المعتصبين بأحكام خفيفة لم يمض على تنفيذها بضعة أسابيع حتى عفا البرلمان عمن حكموا بها .

غير أن الحكومة و إن لم تدافع ضد جمعية اتحاد العمال ترى هذه الجمعية نفسها أمام

عدو أشد بأساً من الشرطة و الجيش ، فلقد اجتمع بجانبها جمع الفوضويين ، و ليس فى إمكانها إنكارهم لما بين برنامجهم و برنامجها من الشبه فى تقويض المجتمع و إقامة الشيوعية .

لا يعرف الفوضويون طريقة معقولة غير طريقة التخريب و الحرق ، و يود هؤلاء المجاذيب أن يقضوا على المجتمع دفعة و احدة و أن يقتلوا ما يقدرون على قتله من الملوك ربثما يمكنهم ذلك

و أما العمال الذين هم أرقاء كثيرو الخضوع فلا شيء ير بحونه فى السبيل الذى يساقون اليه وانما ينالهم فيه خسران كبير، وبيان الامر أن أجورهم تكون بحسب الاحوال الصناعية فى البلاد ، فاذا لحق تجارة البلاد نقصان لا ينفعهم انتسابهم الى نقابة فى زيادة أجورهم دانقاً و احداً . وقد أخذ هـذا النقصان يحدث . و سيزيد عندما يلجيء الخوف رؤوس الأموال الى الهجرة الى بلاد لاتذعر فيها باعتصابات شديدة وتخريبات عنيفة و قوانين ظالمة كالتى مافتيء البرلمان يسنها .

و يجتنب مدافعو طبقات العمال الاعتراف بهذه الحقائق . وهم يعلمون على الخصوص أن العمال لايحسنون حالهم بامتلاكهم ثروة الغير بل باتقان معرفتهم الفنية . فالكفاءة هى قوة الجيل الحـاضر و لا شيء يعادلها ، فليزد العامل قيمته المهنية و ليسع فى الصعود الى مستوى زملائه الاميركيين الذين — كما قال (پول آدم) — يجيئون الى المصنع فى كل صباح مرتدين ثيابهم الانيقة فيلبسون فيه دراعة والذين يغتسلون بعد أن يقضوا نهارهم بالشغل فيذهبون فى المساء الى المنتدى حيث لا تجد بينهم و بين اكابر الناس فرقافى الاوضاع و بجانب هؤلاء العمال الذين ينال كل و احد منهم خمسة وعشرين فرنكا أجرة يومية فعلة أغبياء جاهلون ذو و أجور يومية لا تتجاوز أربعة فرنكات . فهل مقصد الحضارة الأسمى أن ترفع الفاعل البسيط الى درجة النبيل أو أن تخلق مجتمعاً مصنوعاً يخفض النبيل الى مستوى الفاعل البسيط ؟ أعلم ما ذا يجيب الاشتراكيون عن ذلك ولكننى أعلم أيضاً ماذا يكون جواب العقل الرشيد . فلنحتقر الكلام المبهم الباحث فى الانسانية والذى لم يملله بالحقيقة سوى الحسد ، ولتكن جهودنا متجهة الى تقوية مزاج الأمة النفسى لا إلى خفض هذا المزاج . فليس الرقى بالحقد على الطبقات كما يدعى المتمذهبون بل باتحاد الطبقات .

و الاشتراكيون الان يرون النقابات قلبت لهم ظهر المجن بعد أن كانوا من أهم العوامل فى تأليفها ، وما أتوا به من المساعى لاتقاء خصومتها ذهب عبثاً . فعلى ما يبدونه

من تذلل نرى جمعية اتحاد العمال ترفضهم بازدراء . وقد امتنعت فى مؤتمراتها الحديثة عن قبول نائب اشتراكى واحد فيها

ولا يزال مقصد النقابيين الاسمى مبهماً بدليل أنهم لم يسعوا حتى الآن فى غير التخريب ، على أن كتابهم صوروا لنا المجتمع النقابى فى المستقبل فقالوا إنه سيتألف من نقابات انتاج ذات مصالح متبادلة . فهذا النظام يفوق النظام الحكومى الذى يبشر به الاشتراكيون . وكلا النظامين من التباين بحيث يتعذر التوفيق بينهما .

*
* *

يقول كثير من الناس إن النقابية فجر الازمنة الحديثة . ويظهر أنهم لم يدركوا أن هذا الفجر عبارة عن قهقرة نحو نظام قديم تركه الناس لشدته . فقد ظلت النقابية نظام جمهوريات ايطاليا قروناً كثيرة . أى إن تلك الجمهوريات لم تكن سوى اتحاد نقابات صناعية كان يديره مجلس منتخب من قبل هذه النقابات .

وصف الموسيو (رينار) — وهو من أساتذة كلية فرنسا (كوليج دو فرانس) — نتائج النظام النقابى فى ايطاليا بما يأتى : « كانت جمهوريات ايطاليا ومنها جمهورية فلورنسا الجميلة كناية عن خصام بين مدينة ومدينة وبين حى وحى وبين عشيرة وعشيرة وعن حركات انتقام وفتن وحرق وقتل ومتاريس ونفى ونزع أموال . وقد تفاقم أمر هذه النوائب فصار الناس يعتقدون مع (دانتى) أنهم ينحدرون الى مناطق جهنمية حيث يهيم الجن والعفاريت والمجرمون . »

وبين الموسيو (كنتان بوشار) فى كتابه « الاشتراكية فى البلدان الاجنبية » أن النظام النقابى فى ايطاليا كان كثير الجور فكان العامل يرى من السعادة أن يتخلص منه ولو سلط عليه حكم عسكرى مطلق . وقد ظهر رجال الثورة الفرنسوية أنهم جديرون بالشكر لالغائهم طوائف العمال التى هى أقل حيفاً من نقابات الجمهوريات الايطالية المتجبرة .

ولا ريب فى أن الحضارة تسعى — ومن سعيها ظهر دستور الدول الكبيرة — فى إقامة المصلحة العامة مكان مصلحة الفرد والطوائف المتخاصمة . وهذا ما يجعلنا نعتبر النقابية نظام رجوع لا نظام تقدم . ومن الطبيعى أن تتعاون المصالح المتجانسة على شكل

نقابات . فذلك ما يشاهد في كل مكان . ففي المانيا نرى النقابات لا يحصيها عد . فرجال الدولة وموظفوها والقصابون والاساتذة والقضاة ونزاحو البلاليع الخ ينتسبون فيها الى نقابات سلبية . والامر هنالك خلاف ما عليه فى فرنسا التى تود نقاباتها قلب الدولة لتصبح سيدة البلاد ولتعيد اليها نظاماً قضى تقدم الحضارة عليه منذ عهد طويل .

و إذا تم النصر للنقابية فى أحد الايام فاننا نرى فتح باب للفوضى لا يقدرعلى مقاومته أى تدبير اجتماعى . ومتى تثر الشعوب على قوانينها تكابد أهواء بعض الظلمة المستبدين الذين يظهرون أيام الفوضى ثم تقاسى غزو الاجنبى بلادها . فلجهل هذا السر دخلت الامم الكبيرة القديمة فى خبر كان واستعبدت بلاد اليونان التى كانت مصدر النور فى القرون القديمة وغابت بولونيا عن التاريخ .

ولا يكون نجاح تلك الحركة سوى نتيجة انحلال نفسى ، و إننا نعد تمرد موظفى البريد دليلا مخيفاً عليه . فقد دعا هؤلاء الى عدم التجند والفوضى ويثبت لنا اعتصابهم الذى وقع أيام كانت مشاكل البلقان تدفع فرنسا الى خوض غمار حرب طاحنة درجة ترجيح كثير من النقابيين مصالحهم الفردية على المصلحة العامة واعتبارهم النقابة أنها الوطن .

و يزيد الخصام بين النقابية الثورية والاشتراكية الحكومية . ولا فرق فى فساد هذين المذهبين ، ولربما كانت النقابية أخف وطأة من الاشتراكية الحكومية لتأديتها الى تأليف طوائف مستبدة صغيرة متوازنة .

وكلما ذهبت أخلاقنا وابتعدنا من فهم نواميس الكون العامة دنونا من معاناة أحد الاستبدادين . فلنتدبر عواقب الامور .



الفصل الثالث

تطور النقابية الفوضوى

كانت النبوة فى القرون الغابرة هبـة شاذة تمن بها الالهة . و لم تذكر التوراة سـوى عدد قليل من الانبياء فأسهبت فى تعظيمهم وتقديسهم . ولا ريب فى أن نمو خلق التدين فى الوقت الحاضر هو الذى يجعـــل أمر التنبؤ بالمستقبل عاماً . فقلما نصادف أناساً لا يستعملون قابلية التنبؤ فيهم مرات عديدة فى اليوم الواحد . ولا أشير هنا الى الاشتراكيين الذين هم انبياء بطبيعة الحال لتصريفهم جميع الافعال على صيغـة المستقبل بل أشير الى الناس جميعهم ، فالناس قد تعودوا البحث طويلا فى أمور لا يعرفونها . و يصعب عليكم أن تكلموا أى انسان عشر دقائق من غير أن يتخلل فى اثناء الحديث شىء من التنبؤ . واذا كان ذلك التنبـؤ لا يتعلق بفرنسا أو الدو ل الاخرى فانه يتعلق بمصير جار مخاطبكم مثلا .

اذاً ليس لاحد أن يباهي الاخرين بأمر يزاوله الناس أجمعون فى الوقت الحاضر . وانى تبعاً للعـــادة العامة أجيء فى بعض الاحيان بنبوءات . وهذه النبوءات تتعلق فى الغالب بمستقبل بعيد خوفاً من أن أرى عدم تحقيقها .

على أننى خاطرت بالامر فتنبأت بأشياء تعود على المستقبل القريب . ومنها ما نشرته فى اليوم الثانى من اعدام (فيرير) فى إحدى الصحف الكبيرة حيث تنبأت بأن هذا الحادث الذى أوجب ضجيجاً فى باريس لا يؤدى الى هيجان فى إسبانيا . وكذلك تحققت نبوءتى القائلة بأن جمعية اتحاد العمال لا تلبث أن تبتلعها العناصر الفوضوية التى ضمتها الى نفسها برفل وغباوة . فاليك ما قاله بعد بيان ظنى بسنة الموسيو (نيال) الذى استعفى من سكرتيرية جمعية اتحاد العمال :

« أدت جهودنا فى عدم تسرب السياســـة فى المذهب النقابى الى النتيجة الاتية وهى أننا ما أوصدنا الباب دون سم الاشتراكية الا لنفتحه لسم الفوضوية . فلقد أدخل الساسة الفوضويون الفوضوية الى النقابية حتى صارت النقابية والفوضوية كلمتين مترادفتين . »

وقد احتاج مؤسسو المذهب النقابى الى زمن غير يسير لادراك تلك الحقيقة . ولربما يدرك العمال فى آخر الامر أن الفوضوية ليست مذهباً سياسياً بل مذهباً نفسياً خاصاً بأناس منحلين منحطين فيعلمون أن طريقة تخريب الالات وحرق المصانع وقتل الجنود من عمل المجانين الذى لا يتحسن به نصيب أحد .

والفوضويون الذين أغوتهم اندفاعاتهم لا يبالون بتحسين معايش العمال كما تحسنت فى فى أميركا وانكلترة على يد نقاباتهما الرشيدة . وقد أعطى رئيس جمعية اتحاد العمال الاميركية المستر (صموئيل غومبرس) نقابيى فرنسا درساً مفيداً فذكر أنه ينتسب الى هذه الجمعية مليونا عامل مع أنه لا ينتسب الى جمعية اتحاد العمال فى فرنسا سوى ثلاثمئة الف عامل و بين أن اولئك العمال ذو و ثروة كبيرة وأن ثلاثمئة جريدة تنطق باسمهم .

وازدراء النقابيين فى أميركا لحركات النقابيين الفرنسويين العقيمة يبدو لكل من ينعم النظر . فهم يعدون مبادىء هؤلاء صبيانية الى الغاية . قال المستر (غومبرس) فى خطبته: « لقد كان بيننا أيام كنا مثلكم فى دور الطفولة عدد غير قليل من الشيوعيين والفوضويين والمحتالين فكنا عاجزين عن الاتيان بأقل عمل . ثم أدركنا أن النقابة لا يجوز أن تكون آلة تخريب وهدم بل يجب أن تكون عامل صلاح و بناء . فمن الضلال تقويض الصناعة الوطنية بسلاح الاعتصابات الطائشة . وكأنى بصعاليك فرنسا لم يدركوا ذلك فظلوا شديدى الاندفاع . »

واكبر كلمة قالها رئيس جمعية اتحاد العمال فى أميركا فأوجبت غيظاً شديداً فى قلوب نقابيى فرنسا هى الكلمة القائلة : « لاتظنوا أن من الرقى الغاء رأس المال . فينطوى تحت هذا الالغاء رجوع الى دور الرق والاستعباد . »

و يسمع نقابيونا نظير هذه النصائح فى انكلترة والمانيا لو كانوا ذوى نفسية تسمح لهم بادراكها . والعامل القدير وحده هو الذى يعلم أن الاجور تكون بحسب قيمة أرباب المصانع .

لم يسلم بهذا المبدأ رجال النقابات فى البلدان اللاتينية ، فلو سئلوا عن مقصدهم الذى يسعون اليه لاجابوا : « مصانع بلا أرباب »

تلك أوهام رجال النظر الذين لم يترددوا الى المصانع و لم ينظروا الى ما فيها بدقة ، فلو فحص هؤلاء الامر عن كثب لرأوا أن المصنع بصاحبه ، و بعد ما أتى الحلم فى الوقت

الحاضر بمبتكراته المعقدة صار أصعب شيء في الصناعات ايجاد رؤساء لها لا جمع عمال يقومون بها . فسرعان ما يخرب المصنع الذي تم نجاحه على يد مدير ماهر إذا تولت أمره أيد غير مجربة . فالمصنع بلا رئيس كالسفينة بلا ربان . أي يقع اليوم في فوضى وغداً في انهيار .

وبيان هذه الحقائق لا يفيد الفوضويين الذين قبضوا على زمام النقابات . فهم لا يتوخون غاية غير نقض المجتمع وإقامة نظام شيوعي مبهم مقامه . وهم بدلا من أن يظلوا شاكرين للقوانين سماحها لهم بالبقاء تراهم اليوم يقاتلونها . ومن السذاجة احتمالهم اكثر مما سبق .

وقد بحثت في فصل سابق عن مساوىء بعض القوانين التي يصر المشترعون على الاكثار منها دون أن يدركوا ما تجر اليه من النتائج . ونذكر بجانبها قانون النقابات المهنية الذي أوجب وضعه سنة ١٨٨٤ وزير يجيد الخطابة على ما فيه من علم قليل بأمور النفس . وماكانت الانذارات التي أنذر بها هذا الوزير قليلة . غير أنه وقتما قال أحد أعضاء مجلس الشيوخ « إنه يخشى يوماً يصبح فيه البرلمان مسوداً من جمعية عمال مطيعة أوامر نقابة عالية » اكتفى بالاستخفاف « بما يعزى الى مجلس النقابات العام من قوة تفوق قوة اكبر الجبابرة ! »

ومن العبارات النفسية التي قيلت في الخطر الذي ينجم عن ذلك القانون قول عضو آخر في مجلس الشيوخ « إنه لا بد من السيطرة المطلقة . فلا شيء يقال له مرحلة متوسطة . أي إما أن لا تتألف جمعية نقابات وإما أن يتكون اتحاد ذو سلطان مطلق بين هذه النقابات . فلا نجهل الكيفية التي يتسلط بها الزعماء على العمال » وقد ذكر أن لائحة القانون تؤدي الى مقت الوطن ونظام التجنيد فلم يجد ذلك نفعاً ، إذ استحوذ عمى القلب على أعضاء البرلمان فاقترعوا للائحة القانون الذي تزيد نتائجه كل يوم خطراً . وبفضله أصبحت جمعية اتحاد العمال تحارب الوطن والجيش والمجتمع ورأس المال دون أن يصيبها عقاب .

ويعيش اولئك المتعصبون شديدي الوهم . ففي حفلة افتتاح المدرسة الاشتراكية بين الموسيو (جوريس) عندما فحص كتاب اثنين من رجال النقابية الثورية أن اولئك المشاغبين المتمردين لا يقترحون سوى إقامة ما سوف يهدمونه بثورة عنيفة . وقد نشر في

عدد جريدة (الاومانيتـــه) الصادر فى ٣٠ تشرين الثانى سنة ١٩٠٩ مقالة جاء فيها ما يأتى : « إن من أوصاف الثورة المقبلة التى تقص علينا هو السهولة التى لا حد لها . ففيها تغيب الحكومة كطيف و يزول البرلمان كالدخان و ينضم الجيش الى الشعب فيلقى كل إنسان سلاحه . وفيها يترك للفلاح حقـــله وللبائع الصغير دكانه . و إذا قبض على المصارف فليعطى المودعون حوالات جديدة . ثم تبعث الدولة من مرقدها فيظهر البرلمان على شكل مؤتمر اتحاد حيث لا تحل مشاكل العمال وحدها بل مشاكل الزراع ومشكلة النقود ومشاكل كثيرة أخرى أيضاً . وحينئذ تعود عناصر المجتمع الى حيث كانت وتسود سنة الديموقراطية »

☆
☆ ☆

و ربما تمثل جمعيـة اتحاد العمال دورها فى المستقبل تأتى اليوم بضروب التخريب . وهى ترمى الى تقويض كثير من الصناعات غير مبالية ببؤس العمال الذين يعيشون منهـا . ولقد كان تأثيرها من العوامل التى أوجبت انحطاط بحريتنا التجارية .

ولقـد بين الموسيو (ميلين) فى خطبة القاها فى مجلس الشيوخ ونشرتهـا الجريدة الرسمية فى عددها الصادر فى ١١ مارس سنة ١٩١٠ نتائج الفوضى الاشتراعيـــة وحالة العمال النفسية بأوضح أسلوب . ومما جاء فيها : « اننى ممن يعيشون فى عالم الصناعة . فاسمحوا لى بأن أبين لكم أننى أرى فيه ملـكة النشاط وملـكة الاستنباط فى حالة داعية لليأس . ومن موجبات ذلك الوعيـد المسلط على رأس المال والاعتصابات المستمرة والاعتـداء على حرية العمل والضرائب المفروضة على أصحاب الاموال وكل من يجمع مالا بطريقة الادخار .

« فالثوريون الذين يسوقوننا الى هذا السبيل غافلون . فلو تدبروا الامر لرأوا أن العالم بلا أغنياء يصبح فقيراً وأن الفقراء يزيدون فقراً . وفى ذلك البؤس كله . »

وأما ميزانيتنا التجارية الباعثة على الارتياح فى الظاهر فلم يجد ذلك الخطيب صعوبة فى بيـان أوهام ولاة الامور الذين يحتجون بها . فقد أشار الى أن تجـارة كثير من البلدان كالمانيا والولايات المتحدة و بلجيكا تضاعفت فى عشرين ســـنة مع أن تجارتنا نزلت الى الدرجة العاشرة فى نموها وتقدمها . وبينما نتمهل على هذا الوجه تزيد الشعوب صناعة

فتلقى صعوبة فى ايجاد أسواق لبيع سلعها » ولربما يجيء يوم يخرج الامر فيه عن طوره الاقتصادى فيؤدى الى وقوع حرب طاحنة بين الامم . »

ومن العوامل التى تزيد بعض البلدان الاجنبية قوة هو أنها بدلا من جيش المنحطين الذين نشأوا فى جامعاتنا « تشتمل على شبيبة نشيطة عديدة تنتشر فى أقطار العالم لتكدح فى إسعاد بلادها الاصلية » . و يرجو الموسيو (ميلين) أن يكون عندنا نظير تلك الشبيبة يوم نشفى من داء التوظيف . وعندى أن داء الجامعة أعظم . فداء التوظيف من نتائج ذلك الداء .

*
* *

وعندما يتألف حزب سياسى و يكون من مقاصده تخريب الالات او « غرس الراية الوطنية فى المزبلة » ينضم اليه جحفل من ناقصى العلم العاطلين غير ناظرين الى ما فيه من مبادىء أخرى . فتربيتنا المدرسية تربى أناساً عاجزين عن عمل شيء آخر .

ولما كان تخريب المصانع وقطع أسلاك البرق من الاعمال التى يجتنب الايصاء بها جهراً خوفاً من سلطان القوانين اكتشف أساتذة الفوضى فى نهاية الامر فلسفة يستنبط منها بحيل لغوية أعمال النقابات الفوضوية . و إنا لنعجب من أن المبادىء التى يدرسها فى كلية فرنسا (كوليج دوفرانس) اكثر الفلاسفة دعة وحكمة — وأعنى به الموسيو (برغسون) — تصبح انجيل المذهب النقابى الثورى . فالى الموسيو (برغسون) يعزى ذلك المذهب كما قال الاستاذ (بوغله) . و به ينتفع المجددون وأصحاب الكثلكة الحديثة وأنصار كثير من المذاهب الاخرى . « وكل ما يطلبه هؤلاء الى استاذهم المنتحل هو أن يدرسهم دروساً روحانية » أى أن يستبدل بالاستدلال العقلى « إلهامات تقدر بها على الحياة ونعتمد بها على صولة العمال التى هى بنت صولة الحياة . »

لم أفهم ذلك مثلكم وكذلك أنصار المذهب النقابى . وليس فى هذا ما يضير المذهب ، فقوة المذهب بما فيه من غموض وتعذر . و إيضاح الامر أن الجماعات ذات كلف بما لا تفهمه ، ففى دور مذهب (جانسينيوس) قلبت نظرية الغفران او ر با رأساً على عقب مع أنه لم يستطع أى عالم لاهوتى أن يوضح ما يتفرع منها وأن يرى ما فيها من مخالفة للادب والذوق .

شعر نظريو النقابيـــة بفائدة الفلسفة للمذهب النقابي . وقد انتفع بفلسفة (هيجل) و (اوغوست كونت) كثير من الاحزاب الشائخة فوجب اختيار فلسفة جديدة يتمكن بها الفوضويون حينما يحرقون المصانع من القول « إن الهامات الغريزة رائدنا . »

وبهذا نستدل على شوائب فلسفة تستخف بالعقل وتقول باقامة الغريزة مقامه . فقد غاب عن تلك الفلسفـة أن البشر سعى قروناً لا يحصيها عد للخروج من الطور الغريزى والدخول فى طور العقـل . ولم يترق البشر فى سلم الحضـارة إلا بتحرره بالتـدريج من اندفاعاته الغريزية . فالحضـارة فى قهر المعقول للغريزى والهمجية فى انتقام الغريزى من المعقول .

وعليه إذا كان الاستاذ (بوغله) يقول ان الفلسفة الغريزية تؤدى الى القضاء على مبتكرات العقل فاننا نقول إن اليوم الذى تنتصر فيه هذه الفلسفة هو اليوم الذى يهبط فيه البشر الى أسفل دركة فى التوحش . فالمتوحشون واللصوص هم الذين اتخذوا فلسفة الغريزة دليلا لهم فى كل زمان . فلنتركها لهم .

يكمن تحت النقابية الثورية وضعف الحكومة انقلابات عنيفـــة . ولربما ينجم عن الانقلابات فى نهاية الامر بعض الفوائد . فروح الشعوب فى بعض الاحيان هى من الثبات بحيث يتطلب أقل تغيير فيهـا مرور زمن طويل أو نشوب ثورة عنيفة الى الغاية نعم تكلف الثورات ثمناً غالياً وتنتج قليلا غير أنه يبقى منها شىء على كل حال . فقد استلزم نيـل الفرنسويين بعض الحقوق ومسـاواة أمام القانون حدوث دور الهول وحروباً استمرت فى اوربا عشرين سنة وقتل ثلاثة ملايين من الرجال . وما كان ذلك ليفوت الفرنسـويين من غير ثورة . فالقاطرة مسوية اكثر من المقصـلة ، ولكن أنى للفرنسويين الصبر ولم تمن به الالهة على الشعوب اللاتينية ؟

*
* *

البحث فى شأن النقابية فى العالم الاقتصادى لا يتحمله صدر هذا الفصل . فلذا نقتصر على القول بأنهـا لو تخلصت من الفوضويين لاصبحت أداة صالحة لمناهضة الاشـتراكية الحكومية التى تتورط فيها كل يوم والتى تدعو بلسان المقـال الى البؤس فى المساواة والاستعباد . فلا يغيبن عن بالنا أن النقابيـة هى كما بينت سابقاً عدوة الاشـتراكية . فضم

الكلمتين احداهما الى الثانية هو كنعت إنسان بمسلم نصرانى او ملحد متدين . و إنى أنصح الذين يجهلون هذا الفرق الذى يصر الاشتراكيون على إنكاره أن يطالعوا الرسالة المفيدة التى دبجها يراع النقابى الموسيو (ادوار بيرت) . إذ يرون فيها الفرق الشديد بين الاشتراكية التى هى عنوان الحكومية و بين النقابية التى ترفض كل مداخلة من قبل الحكومة . وقد اعتبر هذا المؤلف انتشار الاشتراكية نتيجة لانحطاط الطبقة الوسطى . ثم حارب الفوضى التى عدها مناهضة للرقى أو مانعة له . وأما رأس المال الذى يمقته الاشتراكيون فالنقابيون يدركون شأنه إدراكا تاما .

قال الموسيو (بيرت) : « النقابية تعتبر نظام التمول ساحراً عجيباً استطاع بمعونة الجرأة وملكة الاستنباط الفردية والتعاون أن يخرج من العمل الاجتماعى جميع وسائل الانتاج »

ومع ما تقدم يعلم الاشتراكيون الذين ينكرون أنفسهم بالتدريج أمام مزاحميهم أن النقابية « تكدح فى حرمان الحزب الاشتراكى ناخبيه من العمال . » . ومزاحمات مثل هذه نذيرة بوقوع نزاع كثير . فلا تخافن ذلك النزاع المقدر الذى لم تجد الطبيعة وسيلة للرقى غيره . وهل يخلو مكان من نزاع ؟ فالنزاع واقع بين أنواع الحيوان و بين الامم وبين الافراد و بين الجنسين و بين خليات الجسم الواحد . وما على المرء الا أن يجيد الدفاع فى أثناء هذه المنازعات التى لا مناص منها . ويسير العالم معنا أو علينا بحسب ما نكيف به أنفسنا . ولا بد من معاناة مقتضيات الطبيعة على رغم لعننا لها .

الباب الخامس

أغلاط روح السياسة فى مادة الاستعمار

الفصل الاول

مبادئنا الاستعمارية

سيكون النزاع الاقتصادى بين الشرق والغرب من أشد ما يهتم به البشر فى القرن العشرين . فسيؤدى حتما الى تخريب وسفك دماء اكثر مما أدت اليه حروب الماضى . ولما سيكون للمستعمرات من الشأن العظيم فيه لا يجادل فى فائدة محافظتنا على مستعمراتنا .

تقوم إدارة ما لمختلف الامم الاوربية من المستعمرات على بضعة مبادىء معينة . ومع أنه يجب أن تكون هذه المبادىء التى هى بنت التجربة عامة . فانها تختلف باختلاف الامم .

ولربما كان فى القول بأن هذه المبادىء تختلف باختلاف الامم شىء من المبالغة . فيمكن تمييز نوعين بين دول اوربا من حيث مبادىء الاستعمار . فالنوع الاول يشتمل على فرنسا وحدها تقريباً . ويشتمل النوع الثانى على اكثر الامم الاخرى .

تبنى هذه الامم لنفسها مستعمرات كى تستفيد منها . وأما نحن فلما كنا نترفع عن مثل ذلك وكنا لا ننسى أن شأننا فى العالم هو أن نحمل الى أمم الارض نعم الحضارة نود أن نحكم الشعوب بأنظمتنا ومبادئنا . ومع أن تلك الانظمة والمبادىء لم تلبث أن ردت بالاجماع يدفعنا اعتقادنا أننا على الحق الى الاستمرار على سيرنا حتى يثبت لنا مختلف المصائب أن مبادئنا الاستعمارية عبارة عن أغلاط محزنة نظرياً وعملياً .

ولقد بينت فى كتابى « حضارة الهند » المبادىء التى سارت عليها انكلترة لفتح

مستعمراتها وادارتها وكيف أنها دوخت الهند بمال الهند ورجال الهند ودرجة الحكمة التى أدارت بها هذه المستعمرة العظيمة وأنها ربما تخسرها يوماً ما لتطبيقها عليها فى الاونة الاخيرة مبدأ نفسياً مختلا .

وسأقتصر لضيق المجال هنا على البحث فى المبادىء التى تسير عليها فرنسا لادارة بلاد الجزائر التى هى أقرب مستعمراتنا وفى ما قد ينشأ عن تطبيقها من النتائج .

وما كتب عن الجزائر من المباحث فكثير الى الغاية . إلا أن اثنين منها كتبهما مؤلفان جديران بالموضوع فتجلى فيهما محدل الافكار التى قيلت فيه . والمؤلفان هما الموسيو (لروا بوليو) وهو من العلماء المدرسين فى كلية فرنسا (كوليج دو فرانس) والموسيو (فينيون) وهو من القناصل السابقين .

ولا أتوخى فى هذا الفصل أن أبحث مفصلا فى نتائج استعمارنا فى بلاد الجزائر بل أرى أن أبين قيمة المبادىء النفسية الاساسية التى سيرت إدارتنا والتى ستسيرها زمناً طويلا على ما يظهر . إذاً أنتقد المبادىء لا الرجال الذين يطبقونها . فمقتضيات السياسة لا النظريات هى التى تسوق ولاة الامور ،ومقتضيات السياسة هى بنت المبدإ كما هو معلوم . وعلى ذلك فالمبدأ هو الذى تجب مؤاخذته لا الاشخاص الذين ليسوا من القدرة بحيث يستطيعون أن يحكموا بدونه . ومن الصعب تبديل ذلك المبدإ . فاذا كان الشعب الفرنسوى اكثر الامم نزوعاً الى الثورات فى الظاهر فهو بالحقيقة أشدها محافظة .

إن الجزائر التى تعدل فرنسا مساحة قليلة السكان . فيسكنها خمسة ملايين من المسلمين المخلصين لأنظمتنا كما يجيء فى التقارير الرسمية و إن كان إثبات هذا الاخلاص يحتاج الى جيش مؤلف من ستين الف جندى أى الى جيش قريب من الذى يستعين به الانكليز على اخضاع ٢٥٠ مليوناً من الهندوس وخمسين مليوناً من المسلمين الذين يفوقون سكان الجزائر خطراً وصعوبة فى الانقياد (١)

---

(١) إن كثيراً من مسلمى الهند من العرب الخُلّص . وأكثر ما يشاهدون فى دولة نظام حيدر آباد . وقد بلغ تعصبهم وخطرهم فى حيدر آباد مبلغا جعل الحكومة الانكليزية تحظر على الأوربيين اجتياز شوارعها بدون جواز وحرس . على أن منع اختلاط الهنود بالأوربيين أمرٌ عام . فكل مدينة فى الهند تحتوى على حيين منفصلين فى الغالب بكثير من الكيلومترات : أحدهما حىّ الهنود والثانى حىّ الفرنج

ونرى فى الجزائر ما عدا المسلمين اوربيين بلغ عددهم ٨٠٠،٠٠٠ شخص نصفهم افرنسيون والنصف الاخر من الاسبان والطليان والمالطيين الخ . فهذه العناصر الاوربية المختلفة بأنسابها المتوالدة فيما بينها لا تتوالد والمسلمين . وليس اليوم الذى ينشأ فيه عن ذلك التوالد شعب ذو أخلاق ومنافع تختلف عن أخلاق فرنسا ومنافعها ببعيد . والان أخذت فرنسا تبدو لهؤلاء الاوربيين مثل (ميسين السخى) دولة معدة لمنح الجزائر مجاناً سككا حديدية ومؤسسات خيرية وكثيراً من المساعدات الاخرى .

إن مسلمى الجزائر — ومنهم تتألف الاغلبية الساحقة فى بلاد الجزائر — من ذرية جميع الفاتحين الذين افتتحوا شمال أفريقية ، ولو نظرنا اليوم الى الاساس لرأينا ثلثيهم من البربر وثلثهم من العرب . والفرق بين القومين ضئيل جداً . فأحسن فارق لمسلمى الجزائر هو تقسيمهم الى سكان بدو وسكان حضر . وسنرى خلافاً لاحد الاراء السائدة أنه لا فرق فى انتساب العرب والبربر الى هاتين الطبقتين .

ويمكن تلخيص كتاب الموسيو (لروا بوليو) بكلمة واحدة وهى « حمل المسلمين على التفرنس » وبهذه الكلمة يعبر عن الاراء السائدة لفرنسا فى أمر الجزائر . فالنهج السياسى الذى اتبعناه حتى الان لحمل المسلمين على التفرنس يشبه فى همجيته النهج الذى اتخذ من قبل الاميركيين الاولين لابادة أصحاب الجلود الحمراء . فقد كان اولئك ينزعون من أيدى هؤلاء أراضى الصيد تاركين لهم حرية الموت جوعاً .

هذه هى سبيلنا الادارية فى دحر المسلمين . وقد أجاد الموسيو (فينيون) فى وصفها حيث يقول :

« كان حكام الجزائر ينزعون قسما من أراضى القبائل عند كل عصيان ويسلمونه الى المستعمرين ويطردون أبناء البلاد الاصليين الى الصحراء . وكلما كان العنصر الاوربى يزيد عدداً كان يحرم اولئك الابناء تراث آبائهم وتقصى القبائل من البقاع القاطنة فيها ، فكانت نتائج هذه السياسة التى اتبعت ثلاثين سنة : أن العربى الذى كان يدحر الى الصحراء ويشك فى اقتطافه ثمرة عمله صار لا يفكر فى تحسين زراعته وإصلاح أرضه وأنه لما صار العربى الذى حرم أراضى قبيلته الصالحة للفلاحة والتمتع بالوصول الى مجارى المياه عاجزاً عن مقاومة القحط واليبوسة أصبح لا يحصد القمح الضرورى لغذائه وأضحى يرى مواشيه تقل أو تزول . وأن ألوف الالام والمحن التى هى من هذا النوع زادت

ابن الجزائر الاصلى حقدا على المستعمرين وجعلت الهوة بين العرقين ابعد واعمق .

« ولم يقض مرسوم سنة ١٨٦٣ الذى صرح بأن القبائل مالكة للاراضى التى تتمتع بها على طريقة « الدحر » وإنما بدل شكل هذه الطريقة واسمها فصارت تسمى « طريقة التملك لاجل المنفعة العامة » ، وتتصف الطريقة المذكورة بصفتين : أولا أنها لا تجود على المستعمرين بأرض إلا من أرض العرب . ثانياً أنها تؤسس دوائر للاوربيين محرمة على العرب المحكوم عليهم بالفقر والبؤس . ويعوض بحسب هذه الطريقة على مالك الارض بمبلغ تقدره المحاكم . ويتراوح هذا التعويض عادة بين ٥٠ فرنكا و ٦٠ فرنكا تلقاء كل هكتار ، فالجزائرى الذى يملك ثلاثين هكتاراً أو أربعين هكتاراً أى ما يقوم دخله بعيشه وعيش عائلته طول الحياة يعوض عليه بمبلغ متراوح بين ١٫٥٠٠ فرنك و ٢٠٠٠٠ فرنك أى بمبلغ لا يكفيه سوى سنة أو سنتين . »

ومن أغرب ما رأيناه فى مداخلة الحكومة مداخلة مطلقة فى بلاد الجزائر هو الاستعمار الرسمى . فعلى القارىء أن يطالع الكتاب الذى أشرت اليه آنفاً ليطلع على قصة ذلك الاستعمار المحزنة . إذ يرى فيه نتائج توزيع الاراضى مجاناً على زمر المنحطين الذين هم أقرب أن يدرسوا لغة البراهمة المقدسة من أن يحسنوا حرثاً أو زرعاً ويرى فيه كيف أصبحت القرى الرسمية مقفرة دارسة المعالم . ولم تكف تلك التجربة الخطرة وما أدت اليه من النفقات العظيمة لتنوير رجال إدارتنا . فلقد طلب حاكم الجزائر العام إعطاء خمسين مليوناً من الفرنكات لنزع أملاك العرب وإيجاد قرى غير التى نالتها يد الاخفاق فلحسن الحظ رفض البرلمان هذا الاقتراح الذى لو تم أمره لثار المسلمون فى الجزائر وجشمنا ذلك إنفاق كثير من الملايين . ويثبت لنا الاقتراح المذكور والمناقشة فيه ثم احتمال قبوله درجة سذاجة الفرنسويين فى مادة الاستعمار .

ولا نعجب من أن تلك التجارب تجعل الجزائر تكلفنا ثمناً غالياً ، ويقدر العارفون أننا أنفقنا عليها اكثر من أربعة مليارات ماعدا دخلها الذاتى . فهل بعد هذه التضحية أخمدنا ثائرها ووطدنا فيها دعائم السلام ؟ ذلك ما نرجوه ، ولكن لا يغيبن عن بالنا أن حفظنا للنظام فى تلك الربوع حفظاً نسبياً استلزم — ولا يزال يستلزم — جيشاً عظيما

*
* *

لقد سرنا منذ فتحنا الجزائر على ميدأين سياسيين احدهما نزع أملاك العرب ودحرهم

الى الصحراء والثانى حملهم على التفرنس باكراههم على قبول انظمتنا . ولم نفلح فى دحر العرب الى الصحراء حيث لاشيء يغتـــذون به . ولا ريب فى أن ملايين كثيرة لاترضى بالموت جوعاً قبل أن تبدى شيئاً من المقاومة . وكذلك لم يقبل العرب أن يتفرنسوا . فما استطاعت أمة أن تبدل مزاجها النفسى لتعتنق مزاج أمة غيرها .

إذاً فالمبدآن فاسدان . ولم يوجب انتقالنا من احدهما الى الاخر رغبة فى تعديلهما . فسنواظب على تجاربنا الخطرة حتى يجيء اليوم الذى يدرك فيه قادتنا أن تركنا للبلاد المفتتحة نظمها وعاداتها وطرق معايشها ومعتقداتها — كما تفعل دول الاستعمار ولا سيما انكلترة وهولندا — أبسط الاساليب الاستعمارية وأكثرها حكمة وأقلها نفقة .

ويتعذر اتخاذ هـذا الوجه فى الزمن الحالى لمخالفة الرأى العـام له . يؤيد ذلك سير رجال إدارتنا وما ينشر فى الجرائد والكتب من الاراء .

وما كدنا نتخلص فى الغرب من تأثير المعتقدات الدينية حتى ظننا أن الأمر كذلك فى انحاء العالم . والكتاب الاوربيون الذين أدركوا أن مسئلة الدين فى الشرق فوق جميع المسائل قايلون الى الغاية . فالدين عند أتباع محمد (صلعم) كما عنـد أتباع (سيفا) أو (بوذا) يسيطر على النظم المدنية والسياسية وعلى الحياة العامة والخاصة . وليست أمور الأكل والشرب والنوم والزرع والحصاد عند الشرقيين سوى أعمال دينية ، وقد أدرك الانكليز ذلك على ما فى بروتستانيتهم من تشدد فأحيوا معابد الهند وحافظوا على كهنة (سيفا) و (فيشنو) ولم يندفعوا فى ترويج مبشريهم ، ومن يبحث تحت سماء انكلترة لا يجد محامين يقولون إنه أجدر بالمستعمرة أن تبيد من أن يبيد أحد المبادىء

كان على سياستنا أن تسعى فى حماية الدين الاسلامى وأن تستند الى أصحاب الطرق عند المسلمين وأن تقوى علماء المسلمين وشيوخهم بدلا من أن تناهضهم وتضعف شأنهم . وقد دل المفوض الفرنسوى الأول فى تونس على مقدرته وعلى معرفته أمور الشرق عندما كان يدفع باى تونس الى إصدار مراسيم دينية يبرر بها تدابيره فى عيون المسلمين . ولكن ما العمل وقد كافأناه باستعجالنا فى عزله من وظيفته .

ومن يود أن يحترم عادات العـرب الدينية فليحترم جميع أنظمتهم ، لأن هـذه تشتق من تلك . ويستهجن الموسيو (لروا بوليو) هذه السياسة التى يسميها « سياسة التمنع » ثم

يقول : « إن احترام عادات ما يسمونه القومية العربية و تقاليدها وطبائعها يتضمن ترك جيشنا ومستعمرينا أفريقية . »

و لماذا يؤدى احترام طبائع العرب وعاداتهم الى انسحاب جيشنا ومستعمرينا ؟

فلقد سها ذلك المؤلف أن يجيبنا عن ذلك . و إنى لأراه يعجز عن دعم رأيه بسبب معقول . وأما السياسة التى اناضل عنها فهى السياسة التى يتخذها الانكليز نحو مسلمى الهند ولم يتركوا بها تلك الامبراطورية العظيمة

تلائم التدابير التى يشير اليها الموسيو (لروا بوليو) مبادئنا فى المساواة العامة ، فهى تقول « بادغام العنصر العربى فى العنصر الاوربى » . والادغام عبارة عن « إخضاع جيلين مختلفين من الادميين لنظام اقتصادى واحد ونظام اجتماعى واحد وقوانين عامة واحدة وطرز إنتاج واحد . »

و يرى المؤلف المذكور فى سياسة الادغام بعض الموانع . غير أنه يقتحمها بسهولة فهو يزعم « أن البربر لا يختلفون عن الاوربيين الا بالدين » . فياله من خطاء فاضح ! و يكون الامر أقرب الى الحقيقة إذا قلنا إن الفرق بين الاوربى المتمدن و بين البربرى فى هذا الزمن كالفرق بين الغولوى أيام (برينوس) و بين الباريسى فى أيامنا .

ولما كان البربر عند الموسيو (لروا بوليو) مماثلين للاوربيين اوصى بحمل عرب الجزائر وحدهم على التفرنس . ولا يرى صعوبة فى ذلك . فهو يقول : « يجب للوصول إلى هذا الغرض أن نبدل نظام القبيلة والملكية المشتركة وتعدد الزوجات . وما يبقى من التفرعات فيعالج بتعاقب الزمن . »

وقد بدا للمؤلف المشار اليه أن تحقيق تلك التبدلات — التى تسر الاشتراكيين الخلص — من الامور السهلة . و إنى بالعكس أعتقد ككل إنسان درس مزاج العرب النفسى أن ذلك التحقيق لا يقل صعوبة عن تحويل زنجى أوسترالى الى أستاذ فى كلية فرنسا (كوليج دوفرنس) أو تعليم الضفادع الطيران .

وليس الموسيو (لروا بوليو) رؤوفاً فى حكمه على العرب الذين يظهر أنه يعدهم جمعاً من الهمج . فنظامهم عنده « كنظام شعوب الرعاة الاقدمين » و يعتقد أن العرب سكان بدو وأن البربر سكان حضر . وقد ضل فى اعتقاده . فكلا الشعبين فى الحقيقة

أهل بدو وأهل حضر. ومن يقرأ ما كتبه ابن خلدون فى القرن الرابع عشر يعلم أن تقسيم البربر الى أهل بدو وأهل حضر لا يختص بزماننا (١) .

وما أتى به بعض المؤلفين من التفريق بين العرب والبربر فى الاستعداد للتمدن فيستند الى ملاحظات سطحية لا يعتمد عليها فى الوقت الحاضر. فبين البربر كما قلت أهل حضر وأهل بدو كما بين العرب . وبما أن طرز المعايش يكون بحسب البيئة يصدر ذانك الطرزان عن طبيعة الارض لا عن العرق . ففي الصحارى الكثيرة الرمال نرى العرب والبربر أهل بدو وفى البقاع المخصبة نراهم أهل حضر . ولا فرق بين عرب الجزائر وبين عرب مصر وسورية وجزيرة العرب من هذه الجهة .

ولا أرى أى الرجلين يفوق الثانى فى الرقى العقلى : العربى الحضرى أم البربرى الحضرى ، ولو اقتضى أن نميل الى أحدهما لملنا الى العربى ذى الحضارة الرفيعة فى التاريخ لا الى البربرى الذى لم تتفق له سوى حضارة ابتدائية (٢)

وأهم اصلاح يراه الموسيو (لروا بوليو) هو تحريم تعدد الزوجات ، وقد أسهب فى بيان فوائد الاقتصار على زوجة واحدة فقال : « ان تدبير المنزل يقوم على الزوجة الواحدة فقط . فبتعدد الزوجات تزول روح العائلة وهناء البيت وينحط المجتمع العربى »

ولا أريد أن بين هنا الاسباب التى جعلت الشرقيين يقولون بتعدد الزوجات وأن أذكر أن تعدد الزوجات الشرعى عند الشرقيين خير من تعدد الزوجات الخبيث المؤدى

---

(١) قال ابن خلدون عندما بحث فى البربر : « هذا الجيل من الآدميين هم سكان المغرب القديم . ملأوا البسائط والجبال من تلوله وأريافه وضواحيه وأمصاره . ويتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخوص والشجر ومن الشعر والوبر ، ويظعن أهل العزّ منهم والنابة لانتجاع المراعى فيما قرب من الرحلة لا يجاوزون فيها الريف الى الصحراء والقفار الأملس ، ومكاسبهم الشاء والبقر . والخيل فى الغالب للركوب والنتاج . وربما كانت الأبل من مكاسب أهل النجعة منهم . شأن العرب ، ومعاش المستضعفين منهم بالفلح ودواجن السائمة ، ومعاش المعتزين أهل الانتجاع والاظعان فى نتاج الابل وظلال الرماح وقطع السابلة . »

(٢) البربرُ دون العرب أخلاقاً . فلقد اشتهروا منذ القرون القديمة بالختر ، ولا ريب فى أن كثرة عددهم فى جيوش قرطاجه اوجب اشتهار حروب البون بالغدر. وعند ما سأل أحدُ خلفاء بنى آمية موسى ابنَ نصير فاتحَ اسبانيا العربى عن البربر القاطنين فى الأقاليم التى يتألف منها قطر الجزائر الآن اجابه انه ليس من يدانيهم فى الخديعة والخيانة ونكث العهود .

الى زيادة اللقطاء فى أوربا . فعلى القارىء أن يطالع كتابى « حضارة العرب » . ففيه يجد إيضاحاً كافياً لهذه المسائل وغيرها ويرى أنه ظهر أيام سلطان العرب نساء فاضلات عالمات كما يظهر عندنا فى هذه الازمنة .

وقد ثبت فى أيامنا أن توقف المسلمين لم ينشأ عن تعدد الزوجات . وهل من الضرورى أن أذكر أن العرب وحدهم هم الذين أطلعونا على العالم الاغريقى الرومانى وأن جامعات أوربا ومنها جامعة باريس لم تعرف فى ستة قرون لها مورداً علمياً غير مؤلفات العرب وتطبيق مناهجهم ؟ فحضارة العرب هى إحدى الحضارات التى لم يعرف التاريخ ما هو أكثر منها نضارة . ولا ننكر أنها ماتت ككثير من أخواتها . غير أننا نرى من السذاجة أن نعزو الى مبدإ تعدد الزوجات نتائج صادرة عن عوامل أكثر أهمية .

ولا ندرك السبب فى حقد ذلك الاستاذ الفاضل على مبدإ تعدد الزوجات وهو الذى يخبرنا باقتصاره على عائلات العرب المثرية وبأن ظله يتقلص بالتدريج . واذا كان الرجوع اليه نادراً فلماذا يراد إلغاؤه وكيف يكون « من الاسباب الكبيرة فى انحطاط المجتمع العربى » ؟

ويعد المسيو (لروا بوليو) تربيتنا اللاتينية من أحسن الوسائل للتأثير فى العرب . وقد بقيت من أنصار هذا الرأى حتى جعلتنى سياحاتى العديدة وتأملاتى الكثيرة أضرب به عرض الحائط . ومع أننى لا آمل أن أبدل عقيدة أحد من قراء كتابى أرى من الصواب أن أقول رأيى فى الموضوع لاهميته وسأشرحه فى فصل آت . فهنالك يرى القارىء أن التربية الأوربية بدلا من أن تحسن أحوال أبناء المستعمرات تزيد شقاءهم الادبى والمادى

ولا يتعذر علينا إدراك الاسباب النفسية لتأثير التربية الاوربية المحزن فى الشعوب المتأخرة أو التى تختلف عن شعوب أوربا اختلافاً تاماً . فهذه التربية التى لاءمت مشاعرنا واحتياجاتنا بعد تحولات استمرت قروناً كثيرة لا تناسب مشاعر واحتياجات تختلف عن تلك . ومن نتائجها الاولى تجريد العربى أو الهندى أو أى شرقى بغتة من مبادئه الموروثة التى تستند اليها نظمه ومعتقداته أى مقومات حياته . ولو أن حلم الموسيو (لروا بوليو) وجميع المؤلفين الذين يقولون بتربية العرب تربية أوربية تحقق لاصبحت الجزائر بالنسبة الينا كما كانت البندقية بالنسبة الى النمسا وكايرلندا بالنسبة الى انكلترة وكالالزاس بالنسبة الى ألمانيا

وفى بعض الاحيان يتلهف مؤرخونا فى مؤلفاتهم على فقدنا الهند التى افتتح

(دو بليكس) الكبير قسما منها فى الماضى . وعندى أنه لا شىء يوجب الاسف فى ذلك . فلو بقيت فى أيدينا لتسلطنا عليها بما نتسلط على (پونديشيرى) وغيرها من المستعمرات أى بالمبادى التى ذكرها الموسيو (لروا بوليو) ولما لبثت من جراء ذلك أن تخلصت منا بعد ثورات عنيفة .

وقد ارتكبنا فى الهند الصينية (١) نظير تلك الزلات التى تجعل حكمنا فى كل مكان مخرباً لا يطيقه أحد . فنحن نرسل الى الشرقيين الذين القيت مقاليد أمورهم الينا مفوضين سياسيين كى يديروا أمورهم بواسطة جحفل من الموظفين الفرنسويين الذين لا يفقهون شيئاً من عادات الشرقيين وطبائعهم . ومع أنه يجب على تلك المستعمرة الكبيرة أن تعود على فرنسا بمئتى مليون فرنك كل سنة كما يقول الموسيو (هارمان) لا نزال مثابرين على إرسال كثير من المال والرجال اليها غير نائلين نتيجة سوى إيقادنا فيها نار الحقد علينا وضياعنا فيها كل نفوذ و إتياننا بدليل آخر على عجزنا عن إدراك حاجات الشعوب الاجنبية ومشاعرها وأفكارها ومن ثم عن حكمها .

*
* *

إذاً الخطر كله فى عزمنا على إلزام أبناء المستعمرات أناظيم ومبادىء واحتياجات تختص بأمم مختلفة عنهم . ثم إن تلك الجهود غير مجدية فقلما يبدل طلاء التربية الاوربية شيئاً من جوهر أبناء المستعمرات . حادثوا قليلا أدباء الهند الذين تخرجوا على المدارس الانكليزية الهندية لتروا درجة الهوة الموجودة بيننا و بينهم على رغم معلوماتهم التى تعادل معلومات خريجى المدارس العالية والثانوية فى أوربا . فلقد احتاج البرابرة الى قرون كثيرة ليقيموا على أنقاض العالم الرومانى حضارة ولغة وفنونا ملائمة لاحتياجاتهم و بهذا أعنى أن الزمان وحده هو الذى يقدر على إتمام الانقلابات الكبيرة .

والتاريخ يثبت أن حضارتين متباينتين لا تمتزجان عند المصاقبة . فالامم الفاتحة التى

---

(١) نشر الدكتور (كولين) بضع مقالات بحث فيها عن بلاد السنغال والسودان فأثبت فيها نتائج عزمنا على إلزام جميع الشعوب انظمتنا حيث قال : « إننا بهجومنا قبل الأوان على نظام المجتمع الزنجى سنخوض غمار حرب طاحنة يحاربنا فيها مسلمو الزنوج ووثنيوهم . »

قدرت على التأثير فى الامم الاخرى هى التى لا تختلف عن هـذه كثيراً فى المشاعر والافكار والنظم والمعتقدات

بذلك نفسر تأثير العرب العظيم فى الشرق أيام دولتهم وتأثيرهم الان فى أفريقيا والهند والصين. فقـد أفلح العرب فى جعل الامم التى اختلطوا بهـا تعتنق مقومات حضارتهم أى دينهم ولغتهم وفنونهم . ويظهر أن الحضارة العربية ترسخ أينما حلت ، فأمامها تقهقرت أديان الهند القديمة وجعلت مصر الفراعنة التى لم يؤثر فيها الفرس والاغريق والرومان بلاداً عربية من كل وجه . والان نرى فى الهند خمسين مليونا وفى الصين عشرين مليونا من المسلمين . ويزيد هذا العدد كل يوم . ومع أنه يصيب زمر المبشرين الاوربيين اخفاق عظيم فى أفريقية يفتتحها الاسلام برمتها ، فالسائح الاوربى الذى يصل بشق النفس الى وسط افريقية يرى قوافل العرب ناشرة خلفها دينها ولغتها .

قد يكون الاوربيون مستعمرين ماهرين . ولكن الامة التى استطاعت بعد الرومان أن تمدن الشعوب الاخرى هى الامة العربية . فالعرب وحدهم هم الذين استطاعوا بالحقيقة أن يجعلوا شعوباً أخرى تعتنق عناصر حضارة أمة غريبة عنها أى دينها ونظامها وفنونها .

وقد يسهل على الاوربيين أن يحكموا شعباً متأخرا كما يسهل ذلك على الانكليز فى الهند . غير أنه لا يخطرن بالهم أن يبدلوا مزاجه النفسى ، والاختلاف بين مشاعرنا واحتياجاتنا وبين مشاعر الشرقيين واحتياجاتهم عظيم الى الغاية . فلذا يتعذر تذليله فجأة . وحضاراتنا المطابقة لاحتياجاتنا لا تلائم احتياجاتهم . فهم لا يفتنون بحياتنا المفتعلة وهمومنا الدائمة وثوراتنا الكثيرة وحاجاتنا المصنوعة وبما توجبه من عمل مستمر ولا بعيش عمالنا الموثقين فى عمل صعب والذين لا يعرفون من الحرية غير اسمها . ومما استمال نظرى فى أثناء سياحاتى أن شاهدت متعلمى الشرق أقل الناس افتتانا بحضارتنا حينما يزورون أوربا . ورأيت الجميع يعدون الشرقى اكثر سعادة واكبر شرفاً وأحسن أخلاقاً من الاوربى ما دام بعيداً منه والنتيجة الوحيدة التى تنجم عن تأثير حضارتنا فى الشرقيين هو أنها تفسدهم وتجعلهم تعساء

ولا أسهب فى بيان الحقائق التى عرضتها آنفاً . ففى هـذا الفصل لا يمكننى سوى إيجاز أفكار يتطلب تفصيلها مجلداً كبيراً . وانى لارجو أن ينعم الموسيو (لروا بوليو) النظر فى الامر فيعترف معنا أن مبدأ حمل شعب متأخر على التفرنس بواسطة تربيتنا

لا يليق بعالم مثله أن يدافع عنه . فلنترك أمثال هذا المبدإ للاشتراكيين المشاغبين ، ولا يحق لاى مفكر فى الوقت الحاضر أن يجهل أن نظم الشعب الواحد مرتبط بعضها ببعض ارتباطاً ضرورياً وأن هذا الشعب لا يقدر على اختيارها حسب مايريد بل عليه أن يعانى أمرها . ومن اللغو أن يبحث عن الحضارة التى هى نظرياً أفضل حضارة يتخذها الشعب بل يجب البحث عن التى تلائم مزاج هذا الشعب

وما فتئت منذ عشرين سنة أكرر بيان تلك الحقائق ، وقد أخذت تصير معلومة وإن كان ذلك على مهل . ففى كتاب مهم وضعه السفير (جول هارمان) — وهو من الثقات المطلعين على أمور الشرق — وسماه « الاستيلاء والاستعمار » جاء ما يأتى :

« ان من الاغلاط الكبيرة المشؤومة على الفاتح ورعيته أن لا يعترف بوجود شعوب ومجتمعات راقية بطبيعة الامر وتأثير الاحوال وبوجود شعوب متأخرة وبأنه كلما كان الفرق بين الطرفين عظيما تعذر التقريب بينهما بقوانين مشتركة وثقافة واحدة .

« ينبغى أن تكون هذه القواعد دليلا للاوربيين فى توسعهم الاستعمارى واستيلائهم على الامم المختلفة عنهم ، فاذا طبقها المستعمرون فابتعدوا من سياسة الادغام والتمثيل واحترموا مزاج الشعوب النفسى وأنظمتها السياسية والاجتماعية الناشئة عن احتياجاتها المادية والادبية عاد عليهم وعلى رعاياهم خير عميم . »

ولا يزال ساستنا بعيدين من تلك الافكار . فلا يكل رجال إدارتنا فى البلدان المتأخرة التى يحكمونها من ترجمة « بيان حقوق الانسان » وإعلانه فيها ليجعلوا أبناءها يقدرون نعم أناظيمنا . وبهذه النفسية الصبيانية نقف على عجزنا فى مادة الاستعمار .

***

يضاف الى سياسة الادغام الالزامى التى تتخذها طرق استبدادية شديدة نلجأ اليها فى مستعمراتنا القاصية . وبهذه الطرق نجعل الاقامة فيها أمراً لا يطيقه الاوربيون ، ففيها يظن أصغر موظفينا أنه حاكم مطلق فيسير كانه من ملوك آسيا المستبدين .

واليك ما جاء فى رسالة أرسلها أحد السياح فى (الكونيان) الى جريدة (الماتن) فنشرتها فى عددها الصادر فى ٢٩ مارس سنة ١٩١٠ :

« لا يلبث كبار موظفينا الذين يرسلون من فرنسا أن يصيبهم هوس الاستبداد المطلق فينشرون مراسيم طائشة ويقبضون على الناس ويسجنونهم ويطردونهم من البلاد حسب

أهوائهم ، وهم بذلك يهولون السكان فيدفعونهم الى التحفز والاستيفاز . ومتى يطفح الكيل تستدع حكومة فرنسا أولئك الموظفين لتعينهم لمناصب فى أمكنة أخرى .

« وأما الكولون أى المستعمر فلا شىء يوجب طمأنينته . إذ هو يعامل معاملة جورية فى أموره التجارية . فالحكام بتفسيرهم تعريفة الجمارك تفسيراً متحولا يهلكون بطرس فى سبيل بولس . ولا ضمان لاى مشروع يقام هنالك . فاذا اشتريتم أرضاً لتزرعوها لوزاً هنديا ووعدتم باعطاء ثمانين سنتيما مكافأة على كل مقدار تنتجونه ثم جئتم بعد ان أتممتم مشروعكم تطالبون بالمكافأة ترون نسبة المكافأة نزلت الى ثلاثين سنتيما . وحينما تجىء ساعة الدفع يقال لكم إن الميزانية ليست فى حال تقدر بها على إنجاز ما وعدتم به وان الادارة لم تبحث عنكم فى فرنسا . فلماذا أتيتم الى هنا ؟ . »

بينت فى فصل سابق — عندما نقلت عبارات من منشور حاكم (شاطىء العاج) الحالى — همجية أساليبنا الاستعمارية ودرجة إيغارها صدور السكان . وقد أصابت جريدة (أفريقن ميل) الانكليزية فى قولها إنه لا بد من عصيان أولئك السكان الذين نود إلزامهم قسراً نعم حضارتنا . فاليك ماجاء فيها :

« آلت المعارك التى وقعت منذ سنتين فى شاطىء العاج الى حال لا نظير لها فى تاريخ أفريقية الغربية الحديث . وقد نستنبط مما يقع الان فى شاطىء العاج عبراً كثيرة أهمها خطل فرض الضرائب على قبائل الغابات الذين لم يفدهم الفتح الاوربى شيئاً . فسياسة مالية مثل هذه لا يتم تطبيقها الا باساليب ظالمة كحرق القرى والامعان فى الغزو والقتل وكل عمل فاضح . »

« وإننا لانعجب من تأهب أبناء المستعمرات للتضحية بكل عزيز لديهم كى يخلعوا نير الاجنبى الممقوت عنهم عندما يرون رجال الادارة المتمدنين يعرضون على رؤوس الرماح هامات زعمائهم ويرتهنون محاصيلهم حتى يؤدوا الضرائب المفروضة عليهم . »

وإننا على سبيل إزالة الغم الذى استحوذ علينا من جراء فشلنا فى الاستعمار نقول إن الالمان ليسوا أسعد منا فى ذلك . وقد اتخذت البلجيك طرقاً جائرة فى الاستعمار كطرقنا . غير أن إتقانها للامور جعلها تبتز من مستعمرة الكونغو الكبيرة ثروات وافرة ، وهى لبعدها من مثل زعمنا الكاذب الذى ندعى به أننا نحسن الى الانسانية تحسن الى نفسها . وإحسان الشعب الى نفسه لا إلى غيره هو أصلح منهاج فى مادة الاستعمار .

الفصل الثاني

نتائج تطبيق التربية الأوربية على الشعوب المتأخرة

بحثنا فى الفصل السابق فى مبادئنا الاستعمارية . والان ننظر الى المسئلة من جهة معينة فنبحث فى تأثير حضارتنا الاوربية ونظمنا وتربيتنا فى أبناء المستعمرات .

كان هذا الموضوع محلا للمناقشات الشديدة فى فرنسا . وكل يعلم السبيل المشؤوم الذى سلكه الرأى العام وسلطات الدولة لايجاد حل له .

لم نهتم فى ذلك بغير حمل عرب الجزائر وسكان الهند الصينية الصفر وزنوج المارتينيك على التفرنس وإكراه هذه المستعمرات على عاداتنا وشرائعنا حتى تصبح بلاداً فرنسوية من كل وجه .

على أن فرنسا ليست الامة الوحيدة التى اهتمت بدرس تلك المعضلة . فهى أهمية لا تزال تشغل بال جميع الامم التى لها مستعمرات اى جميع أوربا .

لم يقبل على المبادىء التى أناضل عنها أناس كثيرون فى فرنسا . والكاتب لكى يثبت فى الدفاع عنها يجب أن يكون ذا اعتقاد ناشىء عن سياحات عديدة دلته على أن تطبيق هذه المبادىء منح المستعمرات الانكليزية والمستعمرات الهولندية رخاء مستمراً . ولما كنا نحكم مستعمراتنا بمناهج تختلف عن تلك اختلافاً كلياً أضحت قليلة البركة كما تدل عليه احصاءات ممثليها وشكواهم والاعباء التى تثقل بها كاهل ميزانيتنا .

*
* *

سأبحث الان فى التربية لانها أكثر عوامل الحضارة أهمية :

إن نتائج تطبيق التربية الاوربية على أبناء المستعمرات لا تكون مقنعة الا اذا عبرت عن تجارب أتى بها مدة طويلة فى أمم كثيرة . ولو ذكرت منذ الان التجارب التى أنجزناها فى مستعمراتنا الخاصة كبلاد الجزائر مثلا لاعترض على بأنها طبقت على أقطار قليلة فقط .

ولذا وجب علينا أن نستند فى اختبارنا أمر التربية فى مستعمراتنا الى اختبارات أتى بها فى مستعمرات أخرى ، فسنتكلم أولا عن تجارب التربية الاوربية التى أتمها الانكليز فى الهند .

تجارب الانكليز فى الهند طبقت على ٢٥٠ مليوناً من البشر . ولا تزال مرعية فيها منذ سبعين سنة . وقد بدأ أمر التربية الانكليزية فى الهند سنة ١٨٣٥ بتأثير اللورد (ماكولى) الذى كان آنئذ أحد أعضاء مجلس الحكومة العام فى كلكتا . فلما بدا لذلك القطب السياسى أن كتب الهند وعلومها حقيرة بالنسبة الى التوراة والمؤلفات الانكليزية رأى وجوب اقصائها من برامج التعليم . وقد قررت بفضل نفوذه حكومة اللورد (بنتنك) أنه سوف لا يدرس فى مدارس الهند الانكليزية سوى آداب الانكليز والعلوم الاوربية .

وما فتئت التجربة مستمرة منذ ذلك التاريخ . فالهند تحتوى اليوم على أربع جامعات أوربية و١٣٠٫٠٠٠ مدرسة وثلاثة ملايين طالب . وينفق على تلك المدارس اكثر من خمسين مليوناً ثلثها على المدارس الابتدائية والبقية على التعليم الثانوى والجامعات .

ولا جدال فى فائدة تلك المؤسسات إذا نظر اليها أنها تلائم المصلحة الراهنة أى أنها تربى ألوفاً من صغار الموظفين ليساعدوا الانكليز على ادارة البلاد تلقاء رواتب قليلة الى الغاية . وإلا اضطر الانكليز الى جلب موظفين من أوربا لا يقومون مقام الهنود إلا برواتب تفوق رواتب هؤلاء عشرين مرة .

ولكن ماذا يجاب عن هذين السؤالين : هل يكون الاشخاص الذين تشبعوا بالتربية الانكليزية أعداء أم أصدقاء للدولة التى منحتهم إياها ؟ ثم هل ترفع التربية الاوربية مستوى ذكائهم وتنمى فيهم قوة التميز ؟

الجواب النظرى عن هذين السؤالين لا يحتاج الى كبير عناء . ويتجلى على الشكل الاتى : ألم يعتبر التعليم ترياقاً عاماً ؟ واذا كان التعليم عميم الفائدة فى أوربا فما أحرى به أن يأتى بفوائد جليلة فى بلاد الهند ذات الحضارة الراقية القديمة ، غير أن التجربة أدت الى نتائج مناقضة لما تدل عليه النظريات . فقد أوجبت التربية الاوربية اختلالا فى الهندوس ونزعت منهم قابلية التميز وخفضت مستواهم الخلقى .

ولا يسع أنصار التربية الاوربية أن ينكروا ذلك . وتلخص أفكارهم فى الموضوع

بالعبارات الآتية التي أنقلها من كتاب أستاذ لغة البراهمة المقدسة السابق فى جامعة اكسفورد.
أعنى به المستر (مونيرو ويليم) الذى ساح مثلى فى جميع أنحاء الهند :

« أعترف بأن نتائج تربيتنا لم ترق فى عينى . فقد صادفت أناساً كثيرين ناقصى العلم قليلى الثقافة وإن شئت فقل ضعيفى الاخلاق فاقدى الموازنة فى مزاجهم العقلى ، ورجال مثل هؤلاء قد يتعلمون كثيراً فى الكتب . ولكن تفكيرهم فى الامور لا ينم على شىء من الثبات وصدق من العزيمة . ولو نظرت اليهم لرأيتهم لا يعرفون لغير الهذر والثرثرة باباً ولايدركون للسعى المستمر سبيلا . فهم يسيرون مستقلين عن كل مبدإ مناقضين لما يقولون وما يكتبون .

« هم يتركون لغتهم وآدابهم ودينهم وحكمتهم وتقاليد قومهم وعاداتهم المتاصلة منذ قرون كثيرة من دون أن ينتفعوا بعلومنا ومذهبنا فى الشك وديننا .

« ونحن نصنع بعد كثير من المجهودات ما نسميه ابن المستعمرات المتعلم . الا أن هذا الابن لا يلبث أن ينقلب علينا . فبدلا من أن يشكر لنا ما بذلناه من المساعى لتهذيبه تراه ينتقم لنفسه على ما بدر منا من التصدى لسجيته . »

ويمكن الاطلاع على نقص ابن المستعمرات المتعلم من طرز حديثه . فهو عندما يقابل الاوربى أول مرة يسأله برزانة هل يرجح (شكسبير) على (بونسون دوتراى) وهل يصطاد ملك انكلترة النمر فى لندن وكم عدد زوجاته .

وما فى أفكار ابن المستعمرات المتعلم من عدم المطابقة يشمل النظر . ففى خاطره يجول (فيشنو) و (سيفا) و (جوبيتر) والتوراة وولى عهد انكلترة وأبطال اليونان والرومان والجمهوريات القديمة والملكيات الحديثة كرقصة السراباند المخيفة وهو لا يتأخر عن عد ملك انكلترة وولى عهده ورئيس وزرائه ثالوثاً مشابهاً لثالوث براهما وفيشنو وسيفا ولا يتأخر عن تفسير ذلك الثالوث بما يراه فى هذا من معان تمليها عليه مبادئه الموروثة التى يرجع اليها فى كل حين على رغم ما اكتسبه من التربية الانكليزية .

* * *

إن الفقرة الاخيرة من قول (مونيرو ويليم) تصلح لتكون جواباً عن هذا السؤال

وهو : هل التربية الاوربية تجعل ابن المستعمرات الذى يمنحها عدواً أم صديقاً للامة التى تمنحه إياها ؟

ليس فى الهند موظف انكليزى لا يعتقد أن جميع الهنود الذين تخرجوا على المدارس الانكليزية أعداء أشداء على السلطة الانكليزية وأن الذين درسوا فى المدارس الهندية لا يضمرون لها أى عداء . فهؤلاء يقدرون أمر السلم الذى تم لهم بفضلها و يعدونها أخف وطأة من النير المغولى الذى كانوا رازحين تحته .

ومن يود أن يطلع على رأى الهندوس الذين تخرجوا على الطريقة الاوربية فليطالع جرائدهم . هنالك يراهم يحملون على الحكومة الانكليزية حملات أشد من حملات الفوضويين . ومما يفيد الاطلاع عليه أن الهندوس المشتهرين بحلمهم لا يلبثون أن يصبحوا أشداء مفترسين عندما ينالون قسطاً من التربية الانكليزية . واذا كانت انكلترة محافظة على نفوذها إزاء تلك الحملات فلأنه لا يسمع صدى لاولئك بين أفراد الشعب الذين اكثرهم أميون .

شعار الهندوس الذين علمهم الانكليز هو « أن الهند للهنود » ولا معنى له فى بلاد كالهند مؤلفة من شعوب كثيرة متكلمة بمئتى لغة لا وحدة سياسية واجتماعية فيها سوى وحدة القبيلة والقرية . ولكن اذا كانت طبقة المتعلمين فى الهند قليلة الخطر فى الوقت الحاضر لقلة عددها فانها ستهدد السيطرة البريطانية عندما تكثر .

٭
٭ ٭

تكفى الامور التى ذكرناها سابقاً للاجابة عن هذين السؤالين وهما : هل ترفع التربية الاوربية مستوى الهندوس العقلى ؟ وهل تجعله صديقاً للامة التى تغذيه بها ؟ والان بقى علينا أن نوضح الامر الاتى وهو : هل تنمى التربية الاوربية مزاج الهندوس الخلقى ؟

إن التربية الاوربية بدلا من رفعها مستوى الهندوس الخلقى تخفضه خفضاً يطلع عليه كل من يعاشرهم فهى تحول صلاحهم وفضلاءهم الى أناس خبثاء طمعاء فاقدى الضمير جبابرة مع أبناء بلادهم أذلاء نذلاء أمام سادتهم . واليك ما قاله ذلك الاستاذ الانكليزى الذى استشهدت بأقواله آنفاً :

« لا ننكر ان للاوربيين نقائص كما أن لهم فضائل وأن الهندى الذى قلما يكتسب مزايانا كثير الاستعداد لالتقاط معايبنا . فلقد قص على كثير من الضباط الذين حنكتهم التجارب وشاهدوا اتساع ملكنا فى الهند بالتدريج أنهم لم يروا فى أبناء البلاد المفتتحة حديثاً شيئاً من الغش والمداجاة وحب التقاضى والبهتان والبخل وغير ذلك من المساوىء التى يرونها فيهم بعد أن يختلطوا بنا . »

ويتجلى ذلك الانحطاط الخلقى عند النظر الى موظفى الهندوس الذين تخرجوا على المدارس الانكليزية . فلما اطلعت الادارة الانكليزية على حقيقة أمرهم اضطرت الى اتخاذ كثير من الاحتياطات الدقيقة والامعان فى المراقبة لتتقى شر سلبهم فى السكك الحديدية ودوائر البريد

ولماذا لا تصادف تلك النقائص الخلقية الا فى من تخرج على الطريقة الاوربية من الهنود ؟ لان تربيتنا التى لا تلائم مزاج الهنود النفسى تؤدى الى تقويض ما أوجبته المؤثرات الارثية فيهم من النتائج والى زعزعة معتقداتهم القديمة الباعثة للسير فيهم ، واستبدالها بنظريات مجردة . ثم إنها تزيد احتياجاتهم من غير أن تمن عليهم بوسائل قضائها ، ولما كانوا لهذا السبب لا يجدون فى المجتمع مكاناً لهم ينقلبون أعداء على من منحوهم تلك التربية .

وليس التعليم نفسه وانما التعليم الذى لايلائم مزاج الامة النفسى هو الذى يوجب تلك النتائج . نطلع على ذلك عند المقايسة بين نتائج التربية الاوربية وبين نتائج التربية الهندية التى ثبتت بفعل العصور . فالهندوس الذين تخرجوا على الطريقة الهندية أناس مهذبون أعفاء جديرون بالاحترام خليقون بالاشتراك فى مجالس أوربا العلمية ذوو سير مملوء بالوقار المناقض لما فى أوضاع الهندوس الذين تخرجوا على المدارس الانكليزية من قحة ودناءة .

وليس أمر حقد الذين درسوا فى المدارس الاوربية على أسيادهم مختصاً بالهند وحدها . فلقد ارتكبنا مثل تلك الخطايا فى الهند الصينية وحصدنا نظير تلك النتائج ، أثبت هذا بالعبارة الاتية التى اقتطفها من تقرير لحاكم الهند الصينية الموسيو (كلوبوكوسكى) نشرته

جريدة (الجورنال) فى عددها الصادر فى ٢٧ كانون الثانى سنة ١٩٠٩ ، فبعد أن ذكر الموسيو (كاوبوكوسكى) درجة بغضاء الانامين لنا قال :

« يحرض المتعلمون ذوو المبادىء المتطرفة فى سياق مناقشاتهم ومحاوراتهم سكان الارياف على الحكومة الفرنسوية والولاة المحليين الذين يساعدوننا على أعمالنا . ونرى بجانبهم طبقة من حملة الشهادات العالية أغضبها إقصاؤها عن الوظائف فأخذت تثير الناس ضدنا متذرعة بالنعرة الطائفية . ويمتاز من بين هؤلاء شبان ناقصو العلم ذوو شهوات كثيرة طامحون حسب زعمهم بالصعود الى مستوى اليابان ! »

وقد هدت التجربة الموسيو (كلوبوكوسكى) الى قيمة مبادئنا اللاتينية فى الادغام فقال متحسراً :

« إذا أخذنا احدى الكور الانامية التى هى أساس نظام الانامين الاجتماعى مثلا نرى تدخلنا فى أمورها مباشرة يوجب بلبلة فيها ويعوق سيرها . فمن الحكمة أن لا نمس عمل الاجيال المتعاقبة الا مساً خفيفاً معتبرين بالزمان . فانه بدلا من أن يقوض دعائم ذلك البنيان العجيب الصنع — وأعنى به موئل عادات الشعب واشتراعه — يوطد أركانه ويثبت أساطينه . ومن الصواب أن لا نرتكب خطيئة الإسراع والمفاجأة فى ابتكار المراسيم السياسية والادارية المناقضة للطبائع والعادات المتأصلة . »

*
* *

لندع تلك البلاد النائية ولننظر الى بلاد الجزائر التى هى أهم مستعمراتنا . حينئذ نرى أغلبية ساستنا متفقة على حملها على التفرنس بواسطة التربية . نعم إن أهل الجزائر يختلفون عن أهل الهند عرقاً . ولكن هل التجارب التى أتينا بها فى الجزائر مما يجعلنا نأمل أن ننال فيها نتائج أفضل من التى نالها الانكليز فى أمبراطوريتهم الهندية ؟

يصعب أن نحقق بالتجربة قيمة تأثير تربيتنا فى مسلمى الجزائر . لانهم لا يؤمون مدارسنا أبداً ومع أن دائرة اختبار الامر ضيقة يكفى ما عثرنا عليه لاعطاء حكم فيه . فاليك ما رواه الموسيو (پول دوما) فى كتابه « فرنسيس افريقية » :

« أيام ضربت المجاعة أطنابها سنة ١٨٦٨ فى بلاد الجزائر رأى مطران الجزائر الموسيو

(لا فيجيرى) أن الفرصة حانت لتطبيق أسلوبه فى التبشير فجمع عدداً كبيراً من صبيان الجزائر المتروكين لاطعامهم وتربيتهم ، وقد نلنا من هذا العمل الخيرى درساً محزناً مفيداً فى آن واحد : فلما عدت منذ مدة قريبة من مدينة الجزائر الى مدينة قسطنطين صادفت فى القطار قسيساً وجيهاً فكلمته فى أحوال الجزائر فرأيته قانطاً من إصلاح العنصر العربى التعس . وقد دعم ادعاءه بذكر مسئلة أيتام الموسيو (لافيجيرى) حيث قال : « لقد جمع ذلك المطران أربعة آلاف صبى فعادوا الى الدين الاسلامى ماعدا مئة منهم ظلوا نصارى . ولهؤلاء أسوأ سمعة فى الجزائر . فقد اضطر كرام المستعمرين الذين استخدموهم الى التخلص منهم بسرعة لاتصافهم بالاختلاس والخمول وادمان المسكرات . ثم خطر على البال أمر زواجهم فأحلوا قرى خاصة وأقطعوا أطياناً وجهزوا بأحسن جهاز . وقد أتوا بعد ذلك كله بأفظع الاعمال ، ففى سنة ١٨٨٠ قتلوا فى إحدى تلك القرى قسيسهم ، فتأمل ! »

إن هذه التجربة التى يعرفها سكان الجزائر من التجارب البارزة . فلقد طبقت على أربعة آلاف صبى وضعوا فى أحوال ملائمة للتأثير فيهم بتربيتنا أى فى بيئة بعيدة من نفوذ آبائهم، وسواء كانت التربية بمزاولة كتب المدارس أم كانت بالاختلاط فانها لا تؤدى إلا الى مثل تلك النتائج . فما من تربية تقدر على قهر النفوس اكثر من نظام الجندية . ولا شىء عندنا نستطيع به أن ندغم العرب فى الفرنسيس أحسن من جمع الفريقين فى كتائب واحدة . وقد جربنا ذلك فعلا فجندنا العرب فى كتائب الجزائر وجعلناهم تحت إمرة ضباط فرنسويين . فهل تفرنسوا بعد هذا الاختلاط المديد ؟ كلا . وإنا مع اعترافنا بأنهم جند بسلاء نراهم يتخلصون من الطلاء الاوربى الضعيف دفعة واحدة بعد أن يخلعوا اللباس الرسمى عنهم .

قال ذلك المؤلف : « بعد أن نسرح الجندى الجزائرى يلبس برنسه ويرجع الى حوائه أو قريته ويقبل على أكل المفتول (الكسكسو) ويتزوج ما يطيب له من النساء مؤمناً بأن الله واحد وأن محمداً رسوله وأن النصارى كلاب أبناء كلاب وأن المرأة من الدواب . فالجزائرى أقل الناس تفرنساً . وإذا اقتبس منا شيئاً فنقائصنا ولاسيما نقيصة معاقرة الخمرة . »

لم أتفرد بالرأى القائل باستحالة صب الحضارة الاوربيــة فى قلوب عرب الجزائر بواسطة تربيتنا : فلقد قاله جميع الذين بحثوا عن أمور الجزائر بحثاً بعيداً من المنافع

الشخصية ، وليس رأى متعلمى العرب غير ذلك فى الموضوع . فما خاطبت مسلما فى اى قطر من أقطار المسلمين الممتدة من مراكش حتى قلب آسيا الا رأيته على ذلك الرأى. فكل منهم يقول إن تربيتنا تجعل المسلمين شديدى العداوة للاوربيين الذين ينظرون اليهم قبل نيلها بعدم المبالاة والاكتراث وقد اكد لى جميع متعلمى العرب الذين أخذت رأيهم فى الامر أن تربينا لا تؤدى الى غير افساد أبناء وطنهم وخلق احتياجات جديدة لهم دون أن تمن عليهم بما يقضونها أى لا تؤدى الى غير مقتهم سوء طالعهم وجعلهم عصاة متمردين . وبما يتعلمونه فى مدارسنا كون المسافة التى تفصلنا عنهم كبيرة وأنه لا شىء أشد عاراً على الامة من أن ترضى بسيطرة الاجنبى عليها من دون أن تثور فى وجهه ثورة عنيفة . ولا ريب فى أنه اذا أصبحت التربية شاملة فى مستعمراتنا الافريقية يصير شعار مسلمى الجزائر : « بلاد الجزائر لابنائها العرب » كما صار شعار الهندوس الذين أشبعوا من الحضارة الانكليزية : « بلاد الهند لابنائها الهنود . »

ولما تماثلت تلك النتائج فى الهند والجزائر وبلدان أخرى جاز لنا أن نقول بتعذر تحويل أية أمة بفعل التربية . ومن المخاطرة أن نثابر على تجارب كتلك فى بلاد أمة لا نستطيع أن ندعى أن السلم شملها بدليل اضطرارنا الى إبقاء جيش كبير فيها درأً لها من العصيان .

ولا تستخرجن مما تقدم أننى عدو التعليم ، فانى لم أحاول سوى إثبات كون التربية التى تناسب الاوربى المتمدن لا تناسب رجلا ينتمى الى حضارة أخرى أو رجلا لا حضارة لأمته بالمعنى الصحيح .

ولا أبحث هنا فى التعديلات التى لا بد للتربية الاوربية منها كى تفيد الشعوب المتأخرة وإنما أذكر على سبيل العرض أن برامج تعليم هذه الشعوب يجب أن تقتصر على علوم عملية كعلم الحساب وعلى تطبيقات زراعية وصناعية وممارسات يدوية تختلف باختلاف البقاع . فمعلومات كهذه أفيد لها من تاريخ ملوك فرنسا وحرب مئة السنة . واذا سألتنى عن السبب فى عدم وضعى برنامجاً مفصلا فى الموضوع أجبتك بأن كل ما يكتب فيه لا يجدى نفعاً .

الفصل الثالث

نتائج تطبيق أنظمة أوربا ومبادئها الدينية

على الشعوب المتأخرة

بينا فى الفصل السابق أن التربية الاوربية تؤدى الى فساد فى أخلاق أبناء المستعمرات وتحويلهم الى أعداء شديدين للاوربيين من غير أن ترفع مستواهم العقلى . والان أترك فحص نتائج التربيـة الاوربية فى أبناء المستعمرات — على أن أعود اليـه مرة أخرى — وأبحث فى عامل آخر فى سياسة الادغام أى فى تأثير الانظمة الاوربية فى أولئك الابناء .

إن المبدأ القائل بامكان تحويل أمة بتبديل أنظمتها منتشر متأصل فى فرنسا الى الغاية ، ونحن لميلنا الى جعل الامور جميعها تجرى على نمط واحد يلوح لنا أن أنظمتنا هي أكمل النظم فنرى أن نوجبها على الشعوب الاخرى . ثم إننا لما كنا نبنى مبادئنا السياسية والاجتماعية على المجردات والعقل النظرى تبدو لأعيننا كحقائق منزلة . وحينئذ نشعر فى أنفسنا كجميع الرسل باحتياج الى نشرها فى سبيل سعادة البشر .

ولما رأينا الأمم المتمـدنة قليلة الاكتراث لدروسنا اضطررنا الى الاقتصار على مستعمراتنا لنحملها على الافراط فى التفرنس ، وما اتفق لنا فى هذه السبيل من النتائج جدير باهتمام الفلاسفة .

وقد حملتنا مبادئنا على اعتبار مستعمراتنا ولايات فرنسوية ولم ننظر فى ذلك الى أحوال سكانها الاصليين . بل رأينا أن يتمتع الزنوج والصفر والعرب حتى الهمج بنعم « بيان حقوق الانسان » أى بحق الانتخاب العام وبتأليف المجالس البلدية والمجالس العامة وبسلسلة من المحاكم وبالاشـتراك فى مجلس النواب ومجلس الشيوخ . وهكذا يطفر الزنوج الذين لم يكادوا يتحررون والذين يشبهون فى نشوءهم العقلى أبناء الدور الحجرى الى نظامنا الادارى المعقد .

وقد مضى على الطريقة المذكورة زمناً كافياً لتقدير عواقبها . فقد أوجبت دخول كثير

من مستعمراتنا الزاهرة فى طور الانحطاط . ولو نظرنا الى الاحصاءات لرأينا هذه المستعمرات أصبحت فى حال تحتاج فيها الى معونة من ميزانية فرنسا .

وعلى رغم ما أوجبته سياسة الادغام من الافلاس فى مستعمراتنا ترانا لا نفتأ نطالب بتطبيقها على وجه أجمع وأكمل . ولا تظن أن رعايانا فى ما وراء البحار سليمو الطوية كما تنم على ذلك لهجتهم . فاذا طالبونا بها فليس لاعجابهم بنظامنا الادارى القضائى المعقد بل ليستفيدوا منه ماليًا دون أن يدفعوا مثل ما ندفعه من الضرائب . وكأنى بهم يأملون أن ننشىء فى بلادهم طرقاً ومرافىء وترعاً من ميزانيتنا لا من أموالهم كما فى المستعمرات الانكليزية .

حقاً تدل سياسة الادغام فى نفوسهم على أن يكونوا عالة على فرنسا ذات الكنوز التى لا تفنى . وتتلخص هذه الامانى فى العبارة الاتية التى قالها رئيس المجلس العام لمستعمرة (الرينيون) واليكها : « نتمنى إدغام مستعمرتنا بالتدريج فى فرنسا حتى تصبح مديرية فرنسوية . ولكن من غير أن يؤدى ذلك الى إثقال كاهلنا بنظير الضرائب التى تدفع فى فرنسا . »

*
* *

سياسة الادغام التى تستهوى الافئدة لبساطتها النظرية شديدة التعقيد بالحقيقة . فلو دققنا فى نظمنا الادارية والقضائية لعلمنا انها مركبة الى الغاية وأن ذلك ناشىء عن احتياجاتنا المركبة التى أورثتنا إياها حضارة قديمة جداً . نحن مع أننا لم ننشأ ولم نترعرع إلا تحت حكم تلك الانظمة ترانا ننتقد بطوءها وشدة اسلوبها فى الادارة والمرافعات . وهل تظنون أن عدد أبناء فرنسا الذين يعلمون وظائف المجلس البلدى والمجلس الادارى والمجلس العام وواجبات حاكم الصلح والمحكمة الابتدائية ومحكمة الاستئناف الخ كثير حتى رأيتم أن الاجمل بالزنجى أو العربى او الانامى أن يطبق عليه مثل هذا النظام المعقد دفعة واحدة ؟ فكروا فى جميع الواجبات التى لا يحق له حسب النظام المذكور أن يجهلها من غير أن يحكم عليه بغرامة نقدية وفكروا فيمن يجب عليه أن يراجعه من الموظفين الذين يراقبون حركاته وسكناته واعلموا أنه لا يجوز له أن يبيع أو يبتاع قطعة أرض وأن يطالب جاره بدين من دون أن يراعى أشد المراسم تعقيداً لتروا أن نظامنا لم يخلق لاجله

هو لا عهد له بغير الانظمة البسيطة التى تلائم احتياجاته . ومن مقتضيات تلك الانظمة أن يكون القضاء بسيطاً رخيصاً سريعاً وأن تكون الضرائب بعيدة من المباغتة وإذ إنه لا يعرف القيود والموانع فى الحياة يعتبر الحرية التى نزعم أننا نمنحه إياها عظيمة الاستبداد .

ولا تعوق هذه الملاحظات سير اصحاب العلوم النظرية الذين يرون من الواجب أن يمنوا على أبناء مستعمراتنا بأناظيمنا على رغم أنوفهم . ونحن لتطبيق هذه الاناظيم نرسل اليهم كتائب كثيرة من الموظفين . و يظهر أنهم أهم صادراتنا . فلنا فى المارتينيك التىيتألف ٩٥ فى المئــة من سكانها من الزنوج ثمانمئة موظف . ولنا فى قرانا الهندية الاربع التى لا يسكنها غير الهندوس نائب وعضو فى مجلس الشيوخ ومئة موظف منهم ٣٨ قاضياً ، ولنا فى الهند الصينية جحفل من الموظفين .

يغادر هؤلاء الموظفون اوربا مشبعين من تلك النظريات . ولكن سرعان ما يعترفون بأن إكراه أمة على ترك نظمها لتعتنق نظم أمة أخرى كناية عن خيال يتعذر تحقيقه فى غير الكتب . وعند ما يصاقبون أنواع الصعوبات يسعى كل منهم فى ابتكار طريقة للتوفيق بين المصالح جميعها و إن كانت هذه الطريقة لا ترضى أحداً بحكم الطبيعة .

ومن وقت الى آخر يجيء الى المستعمرة حاكم نشيط ذكى الفؤاد فيستغنى عن كثير من اولئك الموظفين فتستريح تلك المستعمرة حيناً من الزمن . وذلك كما وقع فى الهند الصينية حيث ألغى الموسيو (كنستان) كثيراً من الوظائف فاقتصد ثمانية ملايين فى سنة واحدة ، غير أن هذا الحاكم ما لبث أن عزل .

ولا يجوز أن نعزو فشل موظفينا الى نقص فى كفاءتهم بل إلى عقم الوظيفة التى يحملونها . يغادر هؤلاء فرنسا على أن يطبقوا أنظمتنا على أمم لا ترضى بها ولا تريد أن تفهم مضمونها . ولا يرون ما هو أسهل من تطبيقها قبل أن يصلوا الى المستعمرات ، ولكنهم لا يكادون يتسلمون وظائفهم حتى يشعروا بعجزهم و يعترفوا باخفاقهم . ولم يشذ الحكام عن ذلك . فلقد أرسلنا فى ست سنوات خمسة عشر حاكما الى الهند الصينية — أى حاكما واحداً فى كل خمسة أشهر — دون أن يستطيع واحد منهم أن يسير على تلك السياسة . واذا كانت مدة الحاكم اليوم أطول منها فى السابق فلأن راتبه صار من الضخامة بحيث لا يختار له سوى أناس نافذين .

وكل حاكم جديد يعتبر باخفاق الحاكم السابق فيبتدع طريقة جديدة للحكم لا تؤدى من حيث النتيجة الى غير الفوضى . وهو لا يطبق وجهة نظره الشخصية على الدوام بل يطبق فى الغالب ما يأمره به وزراؤنا . ففى خطبة مفيدة ألقاها فى مجلس النواب الحاكم الذى استشهدت به آنفاً قال انه اضطر فى أثناء حكمه الذى استمر ستة أشهر الى أن يخضع لاوامر أربعة من الوزراء يناقض كل منهم الاخر .

وسياسة مثل تلك تؤدى الى النتائج الاتية وهى : فوضى فحقد فثورة . ومن دواعى الاسف أن جميع الشواهد متحدة المآل على هذه النتائج . جاء فى كتاب نشر حديثا .

« ليس المبدأ الوطنى علة اللصوصية والانتقاض وكل تمرد علينا فى الهند الصينية وإنما نحن الذين نوجب هذه الحادثات باقلاقنا راحة سكانها وتسخيرهم وإقصائنا مزارعيهم عن الحقول وحرقنا قراهم واستبدادنا بهم وبفرضنا عليهم ضرائب باهظة تساوى ثلاثة أضعاف محاصيلهم . »

ولا تؤدى سياستنا الفاسدة الى مثل تلك النتائج المحزنة فى الهند الصينية وحدها بل إن الاخفاق يصيبنا فى جميع مستعمراتنا الحديثة والقديمة لمحاولتنا إدغامها فى فرنسا ، ولا أريد أن أذكركم الان بأن سبب الانقلاب الاخير الذى أوشك أن ينزع بلاد الجزائر من أيدينا هو تجنيسنا يهود الجزائر دفعة واحدة بالجنسية الفرنسوية وإنما أذكر لكم ما يراه شهود عدول فى بلاد السنغال . ففى مقالات كثيرة نشرها الموسيو (كولان) أثبت لنا ما سيجره إلزام الامم نظما لا ترغب فيها من العواقب فقال : « إننا بحملنا المجتمع الزنجى على النظام قبل الاوان سنحصد حرباً طاحنة مستمرة يشترك فيها وثنيو الزنوج ومسلموهم ضدنا . »

ولا تكون الحرب مستمرة فى السنغال ومستعمراتنا الاخرى ما دمنا عظيمى القوة والجبروت ، وهذا لا يمنعنا من القول إننا نحن الذين نوقد نار الغيظ فى قلوب رعايانا فندفعهم الى الانتقاض مهما يكن شأنه .

وقال طبيب البحرية السابق الموسيو (پواتودوبليسى) — وقد أقام زمناً كبيراً فى مستعمراتنا — « ينشأ عن تطبيق طريقة الانتخاب فى المستعمرات قبل الاوان وتحويل جميع الوظائف الرئيسة الى وظائف انتخابية تسلم الزنوج السلطة وجعل إقامة البيض فى مستعمراتنا شيئاً مستحيلا . ثم لو بحثنا عن عدد ناخبى المستعمرات الذين يمثلهم نواب فى

برلماننا للاشتراك فى امورنا الاشـــتراعية لوجدنا أن للزنجى الذى ينتسب الى مستعمرة (الانتيل) شأن ثمانية فرنسويين فى تسيير دفة الوطن . »

٭
٭ ٭

تلك نتائج تطبيق نظمنا الاوربية على سكان المستعمرات . والان بقى على أن أبحث فى تأثير معتقداتنا الدينية :

ليس من الانصاف أن تتهم ولاة أمورنا الحاليين باتباع سياسة الدعوة والتبشير فقد مضى الزمن الذى ندافع فيه بقوة السلاح عن المبشرين الذين يزعجون بمواعظهم مبادىء الشرق الاجتماعية . ثم اننا تركنا أبناء مستعمراتنا أحراراً فى عباداتهم الدينيـــة . و إنى أدرس هذا الامر لأتم بيانى بأنه لا يمكن تطبيق عناصر احدى الحضارات الراقيـة على الشعوب المتأخرة .

تكفى بضعـة أرقام لاثبات تأثير معتقداتنا الدينيـة القليل فى الشرقيين . ولكن هذه الارقام لا تذكر بجانب اعتراف المبشرين أنفسهم بعجزهم عن تحويل الشرقيين الى ديننا .

فأما ما يختص بالعرب فقـد استشهدت بقصة أربعـة الالاف يتيم الذين تولى أمرهم الكردينال (لافيجيرى) . فعلى رغم تربية هؤلاء تربية مسيحية بعيدة من كل تأثيرعربى رجع اكثرهم الى الاسلام بعد أن بلغوا سن الرشد .

والتجارب فى الشرق ولا سيما فى الهند الانكليزية أوسع من تلك . ففى مؤتمر عقدته كنيسة الانغليكان اضطر القسيس القانونى (اسحق طيلر) الى التصريح بفشـل مبشرى الانكليز الذين لم يقدروا بعد نفقات عظيمة وسعى سنين كثيرة وحماية دولة قوية لهم إلا على تحويل عدد يسير من سفلة الناس الى دينهم . و يكون فشل المبشرين أعظم من ذلك فى بلاد الاسـلام حيث لا يأملون معونة من دولتهم . فمع أن المبشرين انفقـوا فى جزيرة العرب و بلاد فارس وفلسطين نصف مليون وأتوا بمجهودات استمرت عشر سنوات لم يستطيعوا أن ينصروا سوى قليل من أجرائهم وفتـاة ظهر أنها بلهاء مختلة الشعور . واذا أضفنا هذه الامثلة الى الامثلة الاخرى تبين لنا تعذر تأثيرنا فى الشرقيين بآرائنا ومبادئنا وحضارتنا .

ولا تقولن إنى عدو المبشرين . فانى من الذين يحترمون ثباتهم وخيالاتهم ومن الذين يقدرون خدماتهم العالية فى البلدان المتأخرة كسورية حيث ينشرون لغتنا بمـا يؤسسونه من المدارس فيها .

الفصل الرابع

أسباب عجز الحضارة الاوربية عن تحويل الشعوب المتأخرة

يدلنا البحث فى مختلف عناصر الحضارة ولا سيا فى الاناظم والمعتقدات والاداب واللغة والفنون على وجود تناسب بينهما و بين طرز التفكير والشعور فى الامة التى تعتنقها وعلى كونها لا تتحول الا اذا أخذ ذلك الطرز يتحول .

و بالتربية تتلخص نتائج الحضارة . وليست النظم والمعتقدات سوى عنوان لمناحى تلك الحضارة . فاذا لم يكن بين إحدى الحضارات و بين أفكار الامة ومشاعرها شيء من المطابقة بقيت التربية التى تتلخص بها نتائج تلك الحضارة غير مؤثرة فى الامة المذكورة وكذلك الانظمة التى تناسب بعض الاحتياجات لا تناسب ما يباينها .

وأقل مقايسة نأتى بها تثبت أن الفرق النفسى بين شعوب الشرق — ولاسيما المسلمون والهنود الصينيون — و بين شعوب الغرب بلغ من الاتساع مبلغاً لا تؤثر به أنظمة هذه فى تلك . تختلف شعوب الشرق عن شعوب الغرب من جميع الوجوه أى من حيث الافكار والمبادىء والمشاعر والمعتقدات . فبينما نرى شعوب الغرب تسعى كل يوم فى التحرر من ربقة المؤثرات الموروثة نرى شعوب الشرق تستمد حياتها من الماضى دون غيره . فلا عهد لاوربا الحديثة بما فى عادات الشرق من الثبات . فالشرق يحافظ باعتناء على المعتقدات التى خسرناها . ونظام العائلة الذى تضعضع عند أمم الغرب لا يزال سليما عند الشرقيين . وكذلك المبادىء التى أضاعت تأثيرها فينا ظلت محافظة على تأثيرها فى أبناء الشرق . ومع أن الشرقيين ذوو مثل أسمى قوى واحتياجات ضعيفة جداً دخل مثلنا الاعلى فى طور التقلب وأصبحت احتياجاتنا كبيرة الى الغاية . والخلاصة أن الديانة والعائلة والتقاليد والعادات وكل ما يتألف منه قوام المجتمعات القديمة حافظ على نفوذه فى الشرق محافظة لا ريب فيها مع أن أركانها تقوضت فى نفوس الغربيين الذين لم يفكروا فى إيجاد ما يسد مسدها بعد

وتتجلى الهوة العميقة بين الشرق والغرب فى الانظمة على الخصوص . فالانظمة السياسية والاجتماعية عند الشرقيين — عرباً كانوا أم هنوداً — تشتق من معتقداتهم الدينية . وأما فى الغرب فأشد الامم تديناً قد فصلت بين معتقداتها وأنظمتها السياسية منذ زمن بعيد .

شرائع الشرق دينية لا مدنية . ولا يقبل الناس فيه على البدع مهما يكن نوعها الا اذا كانت مستنبطة من تعاليم الدين . وقد أدرك الانكليز هذا السر فخافوا على نفوذهم فأحيوا — على رغم تمسكهم بالمذهب البروتستانى — معابد الهند وحافظوا على كهنة (فيشنو) و (سيفا) محترمين ديانة رعاياهم ونظمهم المشتقة منها غير متعرضين لشريعة (مانو) التى ظلت شريعة الهند الدينية والمدنية منذ ألفى سنة وللقرآن الذى بقى شريعة المسلمين الدينية والمدنية منذ أيام محمد (صلعم)

والفرق بين شعوب الشرق وشعوب الغرب لم يكن فى المزاج النفسى والنظم والمعتقدات فقط بل فى أدق أمور الحياة ولا سيما فى بساطة احتياجات شعوب الشرق بالنسبة الى احتياجاتنا المعقدة .

تستوقف رغبات الشرقى الضئيلة وقناعته بأحوال معاشية هى عنوان البؤس الشديد فى أوربا نظر جميع السياح . فالشرقى يكتفي بلحاف و وخ أو وخيمة وبعض النوامى، ومتى يتخرج على الطريقة الاوربية يكتسب بحكم الواقع شيئاً من احتياجاتنا . وبما أنه يتعذر عليه آنئذ أن ينال ما يقضى به هذه الاحتياجات يتحول الى رجل ساخط بائس متمرد . والامر فى بلاد الهند الانكليزية التى استفحلت التربية الاوربية فيها ذو معنى وعبرة . فالهندى المشبع من التربية الانكليزية والمنظور اليه بعين الرعاية ينال راتب ثلاثين فرنكا فى كل شهر . وعند ذلك يحاول أن يقلد النبيل الاوربى فينتعل أحذية فرنجية وينتمى الى ناد وطنى ويستعمل السيغار ويطالع الصحف . بيد أنه لا يمضى عليه زمن قصير حتى يرى نفسه سيء الطالع من قلة ذلك المبلغ الطفيف وإن كان يكفى لمعيشة عائلتين هنديتين محافظتين على العادات الهندية .

والمقايسة بين حاجات العربى الجزائرى وبين حاجات المستعمر الاوربى تكفى لاثبات درجة التباين فى رغائب شعبين متفاوتين فى سلم الحضارة . فأما العربى الجزائرى فرغباته تتجلى فى مؤونة قليلة من الحبوب تكفيه لطبخ أكلة المفتول (الكسكسو) وفى

شيء من الماء الخالص وخيمة و برنس . وأما المستعمر الاوربي — ولو كان من الطبقة الدنيا — فذو احتياجات معقدة . فهو يحتاج الى بيت ولحم وخمر وكثير من الثياب أي الى جميع ما تعوده فى البيئة الاوربية .

نستخرج من تلك الامور الكثيرة التي تشاهد فى كل مكان الناموس النفسى الاتى وهو : أن تطبيق التربية الاوربيـــة على أبناء المستعمرات يجعلهم بائسين فهو يلزمهم مبادىء جديدة وطريقة عيش رفيعة من غير أن يمن عليهم بوسائل التمتع بها . ومعنى هذا أنه يمحو وصايا ماضيهم الموروثة ملقياً إياهم فى قلق و بلبلة بال أمام الحال .

وهل تقربنا نظمنا وتربيتنا من الشرقيين الذين تفصلهم عنا هوة سحيقة ؟ الامثلة التى أوردناها لا تجعلنا نأمل ذلك . وقد جاءت النظريات فدعمت تلك الامثلة عندما دلتنا على أن أصعب شيء على الامة هو أن تبدل مشاعرها الموروثة . و بالمشاعر الموروثة يختلف الشرق عن الغرب اختلافاً تاماً .

ولما أثرت فى تلك المشاعر القوميـــة نظم واحدة ومعتقدات واحدة تأثيراً استمر قروناً كثيرة أصبح لا سلطان للتربيـة عليها . ثم ان المشاعر عنوان ماضى الامة ونتيجة تجارب عدد كبير من الاجيال وعنوان عوامل السير الارثية . وهى ذات سيطرة عظيمة . لان روح الامة مؤلفة منها

ولتلك الاخلاق القومية التى لا يجهلها أحد شأن كبير فى التاريخ . فالرومان استولوا على بلاد اليونان والانكليز يحكمون الهند فى هذه السنين بأخلاقهم القومية الراقية و بصبرهم ونشاطهم اكثر مما بسمو ذكائهم . وما من تربية تستطيع أن تردع بعض الاقوام كالزنوج مثلا عن الاندفاع وعدم التبصر والعجز عن الاستمرار فى السير والجهود .

و إذا نظرنا الى التعليم كفن لاستظهار عدد من النظريات المدرسية نرى الشعوب التى ينعتها تاريخ الانسان الطبيعى بالشعوب المتأخرة كالزنوج مثلا تستطيع أن تكتسب تربية كالاوربيين . فلقد قص أحد أساتذة الجامعة الموسيو (هيبو) عند عودته من أميركا أنه رأى فيها ناشئة الزنوج تستظهر أدلة هندسية وتترجم مختارات من كتب (توسيديد) ترجمة متقنة ثم قال : « لا شيء أدل على أن الزنوج والبيض أبناء رب واحد وأن الطبيعة لم تفرق بين الفريقين من ذلك الامر . »

ولا أدرى هل الزنوج والبيض أبناء رب واحد أو لا . و إنما الذى اعلمه ان الاستاذ المذكور ران على قلبه الوهم كما ران على قلوب كثير ممن يهتمون بأمر تهذيب الشعوب المتأخرة كالمبشرين مثلا . أقول إنه ران على قلوبهم للسبب الآتى وهو : إن التعليم فى المدارس يقوم على استظهار المباحث العلمية وكل شيء يملأ الذاكرة . فاذا أخذ ذكاء المرء فى النمو قدر على الانتفاع بتلك المحفوظات . و يكون الانتفاع بها على نسبة قابليته العقلية والخلقية الموروثة التى هى بالحقيقة خلاصة ما اكتسبه شعبه فى غضون القرون . واختلاف القابليات هو سر تفاوت الشعوب . ولا تقدر أية تربية على إزالة هذا التفاوت .

ينجح ابن الشعب المتأخر فى المدرسة كما ينجح الاوربى . وليس لذلك علة سوى أن الدروس المدرسية دروس استظهار جديرة بأدمغة الصبيان وأن التفاوت الذهنى بين الشعوب لا يبدو قبل سن الرشد . و بهذا نود أن نقول إن الصبى الاوربى يفقد كلما تقدم فى السن عقله الصبيانى مع أن عقل ابن الشعب المتأخر يقف بحكم نواميس الوراثة عند بعض الحدود وقوفاً يمنعه من الانتفاع بما اكتسبه فى المدرسة . وان كنتم فى ريب من ذلك فتعقبوا البيض والزنوج الذين كانوا متساوين فى عهد دراستهم لتروا الفروق التى تفصل بين العرقين فى معترك الحياة

أكرر قولى إن النتيجة النهائية للتربية الاوربية هى أنها تفسد صفات الزنوج والعرب والهنود الموروثة من غير أن تمنحهم صفات الاوربيين . نعم قد ينالون فى بعض الاحيان بصيصاً من المبادىء الاوربية الا أنهم لا ينتفعون به الا بعد أن ينظروا اليه من خلال تأملات شعوبهم المتأخرة ومشاعرها . وهكذا يتقاذفهم متباين الافكار ومتناقض المبادىء الخلقية وتتجاذبهم مصادفات الحياة دون أن يقدروا على تذليل واحدة منها . وهم يستمرون على هذه الحال حتى لا يكون لهم دليل غير اندفاعات الزمن .

إذاً لا يخدعنك الطلاء الضعيف الذى يكتسبه ابن المستعمرات من تربيتنا الاوربية . فهذا الطلاء يشبه ثياب الممثلين التى يلبسونها فى المسارح والتى يستحب أن لا ينظر اليها من قريب ، وقد حادثت اكثر من مئة مرة متعلمى الهند الذين تخرجوا على المدارس الانكليزية الهندية أو على الجامعات فى أوربا فشاهدت أن المسافة بين أفكارنا وأفكارهم ومنطقنا ومنطقهم عظيمة جداً .

وهل يعنى ذلك أن الشعوب المتأخرة لن تصـــل الى مستوى الحضارة الاوربية ؟ لا ريب فى أنها ستصل اليه فى أحد الايام . ولكن هذا الوصول لا يتيسر لها الا بعد أن تمر بالتدريج — لا بالطفرة — من جميع المراحل التى تفصلها عنه ، فأجدادنا أيضاً عانوا طور الهمجيــة . وقد تطلب خروجهم منـــه وانتفاعهم بكنوز الحضارة القـديمة مساعى استمرت ألف سنة على وجه التقريب . وليس أمر التبدلات التى أدخلوها فى عناصر تلك الحضارة أى فى لغتها وأناظيمها وفنونها ليلتثموا بها بالامر المجهول . فكأن حضارة رفيعة كتلك كانت لا تناسب عقولهم المتأخرة كما أن حضارتنا لا تلائم عقول الشعوب المتأخرة فى الوقت الحاضر .

سنن التطور الاجتماعي واجبة وجوب نواميس ذوات الحياة . فالبزرة لا تصير شجرة والطفل لا يصبح رجلا والحضارات لا تضحى رفيعـة الا بعد أن تنالها يد النمو التدريجى غير المحسوس . وليس من المتعذر أن نعكر على الامم أمر تطورها بمـا نأتى به من عنف كما أننا نقدر على الوقوف حيال نمو البزرة بكسرها إلا أننا لا نستطيع أن نبدل سنن ذلك التطور .

٭
٭ ٭

نعبر بالـكلمة الاتية عن أحد الاسـباب فى عجزنا عن إلزام الامم المتأخرة حضارتنا وهى : إن هذه الحضارة معقدة جداً بالنسبة الى تلك الامم . فالانظمة والمعتقدات والتربية التى تقدر على التأثير فى مزاجها النفسى هى التى لا تقلب طرق معايشها رأساً على عقب . وبهذا نفسر تأثير المسلمين فى الشرق . فالامم التى استولى عليهـا المسلمون هى فى الغالب أمم شرقية ذات مشاعر وحاجات وعادات مثـل ما عندهم أى ليس عليها أن تقاسى كثيراً فى اتخاذ عناصر الحضارة الاسلامية كما عليها أن تقاسيه فى اعتناق حضارتنا الغربية المعقدة .

ظن المؤرخون بعزوهم تفوق المسلمين الذهنى والمادى فى العالم الى قوتهم المادية أنهم أصابوا كبد الحقيقة ، فيرد عليهم بأن الحضارة الاسلامية استمرت على الانتشار زمناً طويلا بعـد زوال سلطان المسلمين وبأن عدد المؤمنين بالقرآن بلغ فى الصين عشرين مليوناً مع أنه لم يكن للمسلمين هيمنة على تلك البـلاد فى وقت من الاوقات وبأن عدد مسلمى الهند صار خمسين مليوناً أى اكثر منه أيام دولة المغول . ولا يزال عدد المؤمنين بالإسلام

يزيد زيادة مطردة ، فالعرب بعد الرومان هم الامة الوحيدة التى استطاعت أن تمدن مختلف الشعوب وأن تجعلها ترضى بكل عنصر من عناصر حضارتها أى بدينها ونظمها وفنونها . وهم بدلا من أن يتقلص نفوذهم بعد الذى طرأ على كيانهم السياسى تراه اكثر من ذى قبل و يبلغ مبلغاً لم يتفق لهم أيام دولتهم العظيمة النضرة ، وعلة ذلك أن القرآن والمبادىء التى تستنبط منه يلائم احتياجات الامم المبتدئة لبساطته .

يبذر المسلمون أينما مروا وحلوا ولو بصفتهم تجاراً أنظمتهم ومعتقداتهم ، وكلما أمعن السياح فى ارتياد مجاهل افريقية شاهدوا قبائل تنشر تعاليم الاسلام ، فالمسلمون يمدنون شعوب افريقية جهدهم ويبسطون سلطانهم الادبى عليها . وأما الاوربيون الذين يجوبون الشرق سواء كفاتحين أم كتجار لا يتركون فيه أثراً لنفوذهم الادبى .

* *
*

والخلاصة أن الاوربيين لا يقدرون على التأثير بتربيتهم وأنظمتهم ومعتقداتهم الدينية فى الشرقيين بسرعة . ولا يعترض على بتاريخ اليابان الحديث . فلما كان مجال هذا الكتاب لا يتسع لتفصيل أمر أمة بلغت درجة رفيعة فى سلم الحضارة اكتفى بالبيان الاتى وهو : ان اليابانى باقباله دفعة واحدة على مبتكرات الوقت الحاضر لم يغير قوانينه الاساسية ومعتقداته وأخلاقه . فمثله كمثل الامير الاقطاعى الذى نزل الى معترك الحياة فتعلم سوق القاطرات واستعمال المدافع دون أن يغير مزاجه العقلى . غير أن ما تيسر لليابانى من تغيير سطحى فى حياته الخارجية حجب عن أعين الاوربى ثبات حياته الباطنية .

ومهما كان الامر لم تكن البلاد التى نود استعمارها وقت افتتاحنا لها ذات حضارة كحضارة اليابان السابقة . ولذا نقول إن آمالنا فى إدغام أى شعب أو حمله على التفرنس عبارة عن أوهام خطرة . فلنترك لابناء المستعمرات عاداتهم ونظمهم وقوانينهم غير ساعين فى إلزامهم نظامنا الادارى المعقد ولنكتف بالوصاية عليهم . و يجب للوصول الى هذا الغرض أن نقلل عدد موظفينا فى المستعمرات وأن نطالب ما يبقى منهم بدرس طبائع أبناء المستعمرات وعاداتهم ولغتهم درساً دقيقاً وأن نجعلهم فى حال يقدرون بها على اكتساب ما يلزمهم من النفوذ .

اكتفيت بايجاز مبادىء الاصلاح المذكورة لاعتقادى أن تفصيلها لا يجدى نفعاً . فالرأى العام لا ينال الا بعد زمن طويل . وبما أنه يتألف من المبادىء السياسية الحاضرة المناقضة للمبادىء المذكورة جريان للرأى العام يصعب اقتحامها . والمشاعر لكونها تملى علينا سياسة الادغام التى نخسر فى سبيل تطبيقها كثيرا من المال والرجال لا تأثير للمنطق العقلى فى هذه السياسة . ولا يتم النصر للمنطق العقلى الا بعد عدد كبير من التجارب . فالمصائب وحدها هى التى تقدر على تنوير بصائر الناس المفعمة قلوبهم بالأوهام .

و إنا لنورد والحزن يملأ قلوبنا هذه الاسئلة وهى : هل من الصحيح أن نثابر على ضلالنا الخطر لتحقيق أحلام وهمية كالمعتقدات الدينية التى سفك أجدادنا من أجلها كثيراً من دمائهم ؟ وهل مما يقبله العقل أن يكون بين رجالنا السياسيين أناس يعتقدون صحة رسالتنا لمنح الشعوب أنواع السعادة على رغمها ؟ وهل من الصواب أن يرى كثير من علماء الاقتصاد إمكان تحويل مزاج الشعوب النفسى كمزاج العرب مثلا بتغيير نظامهم العائلى و إلغاء المشاع فى قراهم ومدنهم ؟

فلنفكر قليلا فيما جرته مبادئنا فى الانسانية علينا من الويلات . فباسمها أهرقنا كثيراً من دمائنا لتحرير الشعوب التى أصبحت اليوم عدوة لنا . وباسمها نود حمل أمم مطمئنة آمنة على التفرنس . وهل نلنا من جراء ذلك غير أحقاد مختلف الشعوب علينا ومناصبتها إيانا العداء ؟

يستولى دهش كبير على السائح الفرنسوى الذى يترك مستعمراتنا ليسيح فى المستعمرات الاوربيـــة الاخرى حيث لا تطبق سياسة كسياستنا فى مستعمراتنا . إذ يرى الانكليز يديرون مستعمرة الهند التى يسكنها ٢٥٠ مليوناً من البشر بألف موظف انكليزى وجنود لا يربى عددهم على ستين ألفاً و يراهم يفتحون فى الهند ترعاً و يسترونها بالسكك الحديدية وغيرها من الاعمال دون أن يطالبوا انكلترة بدانق واحد . نعم ان تلك الملايين من الهنود لا تعرف نظام الانتخابات العامة ولا عهد لها بالمجالس العامة و بأنظمتنا المعقدة وليس لها فى برلمان بريطانيا نواب يمثلونها . إلا أنها تدير نفسها بنفسها حسب عاداتها القديمة وتحت وصاية عدد قليل من موظفى الانكليز الذين لا يتدخلون فى شؤونها جهدهم .

وهل هؤلاء الهنود اكثر تعاسة من أبناء مستعمراتنا الذين ندير أمورهم على يد جحفل من الموظفين حسب قوانيننا وعاداتنا التى لم تسن لاجلهم ؟ ليزر من يعتقد ذلك قرانا

القليلة فى الهند كى يرى أنه يديرها مئات من الموظفين الفرنسويين الذين لا هم لهم سوى قلب النظم الهندية القديمة رأساً على عقب وأنه نشأ عن تطبيق أنظمتنا عليها قيام الفوضى والحروب الاهلية مقام السلم فيها . ثم ليذهب الى بلاد الهند ليرى أول وهلة أن الهندى ينظر الى أسياده الانكليز بعين التعظيم وأن الموظف الانكليزى قلما يتدخل فى أمور الهنود العامة والخاصة وأنه يحترم أنظمتهم وعاداتهم وأخلاقهم ممتعاً إياهم بحرية حقيقية لا وهمية كالتى يتمتع بها أبناء مستعمراتنا . ولو كنت قادراً على إلزام جميع الفرنسويين مثل هذه السياحة لما كان بينهم واحد لا يرى رأيى ولأقلعنا عن المبدإ القائل بحمل الشعوب الاجنبية على قوانينا .

ويجب أن لا نزدرى تلك المبادىء . فهى مظهر مثل أعلى جديد جاء ليحل محل أوهامنا الدينية التى أضعناها . وإنما علينا أن نعلم أن الشعوب القوية وحدها هى التى لها حق الحياة فى العراك الاقتصادى الذى يتدرج اليه العالم فى الوقت الحاضر وأن مستقبل وطننا لا يكون وطيداً بالاوهام وأننا سنخسر هذا المستقبل بالتجائنا الى حظيرة الوهم والخيال .



الفصل الخامس

طرق الاستعمار الحديثة

ترد طرق الاستعمار التى اتخذتها الامم فى مختلف أدوار التاريخ الى مبـــدأين . ولم يعرف الرومان فى بدء الامر سوى أسلوب واحد للاستعمار وهو تدويخ الشعوب بقوة السلاح وسلب كنوزها و بيع الاقوياء من أبنائها كارقاء . وأما البقية فكانت تتناسل ببطوء حتى تسد الفراغ السابق وتغتنى ، وحينئذ يعيد الرومان الكرة فيسلبون كنوزها ثانية وهكذا .

إلا أن الرومان أدركوا فى نهاية الامر أن تلك الطريقـة لا تفيدهم كثيراً فابتكروا فى أوائل العهد الامبراطورى طريقة أخرى قائمة على استثمار سكان البلاد المفتتحة بارهاقهم بالضرائب على أن يترك لهم ما يكفى لعيشهم .

ولم يطرأ على هذه الطريقة تغيير يذكر على مر القرون . وعلى ما توجبه عند تطبيقها بكياسة من علائق حسنة بين التابع والمتبوع تؤدى الى تعقيد كبير بسبب اضطرار الفاتح الى الدفاع عن البلدان المفتتحة ضـد جيوش الامم المزاحمة . ثم إنها تتطلب إدارة منظمة وحكمة ، فاذا كانت الادارة رديئـــة لا يجنى المستعمرون غير اشمئزاز أبناء المستعمرات و بغضائهم واستمرار قلاقلهم واضطراباتهم .

وقد أضاف الالمان الى تينك الطريقتين طريقة ثالثة لبقة الى الغاية وهى أن يكتفوا باقتطاف أثمار المستعمرات وأن يتركوا للاجانب أمر إدارتها والدفاع عنها . فبعد أن يترك الالمان أمر افتتاح المستعمرات للأمم الاخرى والمحافظة عليهـا يقيمون فيها و يستغلونهـا كما هو شأنهم الان فى مراكش ومعنى ذلك أنهم يحرزون اللؤلؤ و يتركون الصدف لواضعى اليد على المستعمرات .

تطبيق هذه الطريقة يتطلب بعض المزايا الخلقية وأفضلية فى الصناعة والتجارة تكفى لمضاربة جميع المزاحمين . فبفضل تربيـة الالمان الفنية اكتسب الالمان تلك الافضليـة وأصبحت مصارعتهم اليوم متعـذرة على وجه التقريب . وقد عدل الانكليز أنفسهم عن

مكالفتهم ، فأينما يحلوا يزد عددهم بالتدريج فيستولوا على الصناعة والتجارة ولا يلبثوا أن يصيروا سادة .

على هذه الصورة أضحوا فى أقل من عشرين سنة ذوى شأن مهم فى البقعة الساحلية المسماة (كوت دازور) والمشتهرة بما وقع فيها من حوادث التاريخ العظيمة . وينحصر شأنهم الان فى مئتى كيلو مترمنها و يزيد هذا الشأن كل يوم . فلقد أخذ الالمان أول الامر يستولون على صناعة الفنادق فى تلك البقعة حتى أصبحت بأيديهم . وقد بحثت سنة ١٩٠٦ عن الامر فى (مانتون) فوجدت فنادقها البالغ عددها اثنين وعشرين تحتوى على الف مستخدم منهم ٣٥٠ ألمانياً و ٥٠ فرنسوياً . وما صادفت فى (كوت دازور) فندقاً يديره فرنسويون حاشا بضعة منازل من الدرجة الواطئة .

ويرجع ذلك الاستيلاء الجرمانى الذى يلقى العجب فى قلوب الذين يقيسون بين حالة (كوت دازور) الان وبينها فى الماضى الى سبب إقتصادى اكثر منه الى مهارة الالمان فى أمور الفنادق : فالالمانى الذى كان قبل حرب ١٨٧٠ فقيراً أصبح الان موسراً بعد أن تقدم فى عالم الصناعة .

إذاً يجد الالمانى فيغتنى . وهو بعد شغل كبير يجيء الى (كوت دازور) ليستريح و يتلهى ثم ليبيع من وقت الى آخر شيئاً من مصنوعاته و يضارب بالاراضى الخ .

ولما كانت صناعة الفنادق ولا سيما التى يديرها الالمانى كبيرة الربح صاركل ما يحلم به مدير أحد الفنادق الالمانى أن يؤسس لنفسه فندقاً خاصاً . ومتى تثبت أهلية هذا المدير يقرضه أصحاب أحد المصارف فى (همبرغ) أو غيرها مالا ليؤسس به فندقاً .

تسلف المصارف الالمانية المصانع ما تحتاج اليه من المال مع أن أصحاب مصارفنا يسعون فى تحويل أنظار الجمهور عن مثل هذه المصانع ليسلف الدولة أموالا و يقبل على اشتراء الاوراق المالية الاجنبية . وتكون عمالة أرباب مصانعنا(١) كثيرة بنسبة وهى هذه الاوراق . ولا ترى أية دولة — كدولة فينزوئلا ودولة هايتى مثلا — صعوبة فى

---

(١) لقد عاد على المصارف الخمسة فى باريس التى عهد اليها فى ترويج القرض الروسى البالغ ١،٢٠٠ مليون فرنك ثمانية فى المئة من هذا المبلغ أى ٩٦ مليوناً ، وانا لنحزن على ذهاب الدراهم المذكورة التى نحتاج اليها لتجديد آلاتنا الصناعية الى الالمان . فالروس يشترون منهم ما يحتاجون اليه من العُدَد الحربية والآلات الصناعية والادوات البحرية

البحث عن مصارف فرنسوية مستعدة لترويج استقراضها ، وذلك لا يدل على أن أصحاب المصارف فى المانيا أعظم وطنية من أصحاب المصارف فى فرنسا وإنما يدلنا على أنهم اكثر معرفة بالمواضع التى يجب أن تسلف الاموال فيها . فقد رُوى لى أن أحد مديرى الفنادق فى (مونت كارلو) أدخر ٦٠٠٠ فرنك فعثر على صاحب مصرف أقرضه ٢٠٠,٠٠٠ فاشترى بهذا المبلغ فندقاً باعه بمليون فرنك بعد خمس سنوات .

ولقد اطلعت منذ بضع سنين على حسابات فندقين ألمانيين فى (مانتون) قريب احدهما من الاخر فرأيت أن الاول ربح فى موسم سنة ١٩٠٤ مبلغ ٣٩٧,٤٤٤ فرنكا وأن الثانى ربح فى ذلك الموسم مبلغ ١٦٧,١٥٣ فرنكا ، فمبالغ مثل هذه لا يأتى بها أى منجم ذهبى ، وما أعظم الخدم التى يمن بها علينا الرجل العبقرى الذى يعلمنا ما فى فرنسا من كنوز يستثمرها الاجانب بدلا من أن يحضنا على الهجرة الى الاصقاع البعيدة المقفرة الفقيرة المحمة (١) ! ولماذا لا نفكر فى الانتفاع بكنوز فرنسا قبل أن نسعى فى استعمار الكونغو أو مدغسكر ؟

*
* *

كان فى القطار الذى عدت فيه حديثاً الى باريس شيخ من شيوخ الفلسفة فى المانيا فذكرت له ملاحظاتى السابقة ودعوته الى بيان رأيه مجرداً من كل مسايرة ، وقد أخذت لألقى طمأنينة فى نفسه أتوجع من سوء حال الالمان الذين يقودهم قيصر مستبد ذو مطامع. هنالك ابتسم الفيلسوف فقال :

« يدلنا التاريخ على أن القياصرة كنابليون أو سيللا يظهرون فى زمن يأكل الانقسام فيه الامة . فلا تحزنوا علينا لعيشنا تحت ظل قياصرة خفيفى الاستبداد . بل احزنوا على أنفسكم لسيركم نحو دور قياصرة الانقراض الذين تلجأون اليهم لينقذوكم من الفوضى السائدة لكم ، وإننا لنفضل قيصراً جليلا محبوباً مثل قيصرنا على قياصرة المصادفات الذين سيظهرون فى بلادكم .

« وما لنا وللقياصرة ، فلنبحث فى الامور الاقتصادية التى استوقفت نظركم فى (كوت دازور) . لقد بلغت من العمر ما يجعلنى أقف على تطور المانيا منذ حرب السبعين ،

(١) أى تكثر فيها الحمى

فالتربية الفنية وبعض الصفات الخلقية هى كما لاحظتم سبب رقى ألمانيا فى عالم الصناعة والتجارة . وأما الذكاء وقلما يكون كثيراً بين أبناء وطنى فلا عمل له فى هذا الرقى . وقد غاب الالمانى الخيالى عن الوجود . فأنت لا تراه الان يقضى أوقاته بالمناقشات الفلسفية . وإنما تراه منكباً على تأسيس المصانع والمصارف والمرافىء وعلى جميع ما يوجب إيساره بسرعة . وما فاتنى الوقت الذى كان الالمانى فيه فقيراً معتبراً أكل اللحوم من الكماليات والذى كان فيه لا يسيح الا فى الدرجة الثالثة ولا يبيت الا فى الفنادق المنحطة ، وأما اليوم فأرى الالمانى موسعاً مرفهاً نفسه . وهو كجميع حديثى النعمة أصبح وقحاً فظا . وإنى أعترف بأن الحق فى جانب مستخدمى خطوطكم الحديدية لتذمرهم من غلظة الالمان الذين لا عهد لهم برقة حضارتكم المتقدمة

« هذه نقيصة لا ريب فيها ولكنها لا تعدم الالمانى شيئاً من مزاياه . فللالمانى المقام الاول بآلاته ونظامه وتربيته الفنية . وها هو الان يزاحمكم فى عقر داركم مزاحمة شديدة ويبتلع صناعاتكم واحدة بعد الاخرى كصناعة المنتجات الكيماوية وعدسات التصوير المرئية والموازين الدقيقة وأدوات الكهرباء الخ . وقد أخذ يقيم فى بلادكم مصانع دراً لحواجزكم الجمركية التى سوف لا تجدى نفعاً .

« وما ترونه فى (كوت دازور) ترون إذاً مثله فى أمكنة أخرى . والان نسعى فى استعمار مراكش كما استعمرنا أجمل بقعة فى سواحل البحر الابيض المتوسط . حقاً ان مسئلة مراكش التى لم تدرك صحفكم شيئاً من أمرها بسيطة الى الغاية . فنحن لا نرى أن نفتتح هذا القطر وننفق فى سبيل افتتاحه دراهم كثيرة بل تركنا لكم شرف ذلك مكتفين بردعكم عن منعنا من الاتجار معه . وليس على المانيا أن تخوض غمار حرب للوصول الى هذا الغرض بل كفاها لبلوغه تهديدكم ، وهى تنتظر اليوم الذى يتم فيه انحلال فكرة الوطن فيكم على يد رجالكم القائلين بالسلم وعدم التجنيد والتسليح لتشهر الحرب عليكم . وحينئذ لا تحتاج الا الى مجهود قليل كى تملى عليكم مطاليبها .

« لا نخشى انكلترة من الوجهة التجارية والوجهة الصناعية وانما هى التى تخشانا من هاتين الوجهتين . ولربما كانت محاربتنا لها أمراً لا مفر منه .

« نحن لا نود تدويخ قطر كمراكش . فلقد أصبحت (همبرغ) لا تسد حاجتنا وصرنا مضطرين الى مرفاء حربى تجارى كبير . وقد أدرنا الطرف يميناً وشمالا فلم نجد فى

جوارنا مرفأ غير مرفأ (أنفرس) حائزاً للوصف المذكور . ومع كثرة بيوتنا التجارية ومشاريعنا البحرية ومصارفنا فى (أنفرس) نرى أن ذلك لا يكفى فى مرفإ كهذا قريب من انكلترة بل يجب أن تقترن سلطتنا التجارية فيه بسلطتنا العسكرية . ويعرف البلجيكيون هذه المطامع فقد فصلها القطب السياسى الموسيو (أدمون بيكار) فى خطبة ألقاها فى البرلمان البلجيكى . ولا تنكر أن البلجيك تقدر باتحادها مع هولندا على تأخير زوالها . إلا أنه فاتها أنه لا يكون للامم الصغيرة مكان تحت الشمس فى آخر الامر .

« وسيقاوم الانكليز ذلك الاستيلاء بحكم الطبيعة فيشهرون علينا الحرب . ولا شك فى أنكم ستنضمون اليهم ، ولكن بما أنكم ستكونون آئئذ أضعف منكم اليوم سينحصر شأنكم فى تأدية نفقات تلك الحرب الطاحنة على ما يحتمل .

« وريثما تقع تلك الحرب نرى منازعاتكم الداخلية والسياسية تضنى قواكم ، وقد بلغتم درجة من عدم التسامح والميل الى الاضطهاد موجبة مقت جميع الامم الحرة لكم . ويظهر أن مشاعر الحقد والحسد هى التى بقيت فى الامم اللاتينية . وكأنى بكم تهبطون الى الدركة السفلى مع أنكم كنتم فى الدرجة الاولى . فقد أخذتم تكونون قوماً ضعافاً أثقلت كاهلهم الضرائب ولم يبق عندهم غير ما يستبقونه من المال :

« وأنتم لكى تحولوا دون انحداركم الى الانقراض يجب أن تعدلوا عن أحقادكم السياسية والدينية وأن تغيروا طرق تربيتكم وأن تتحلوا بروح التضامن . لقد بقيتم أرباب فن وفرسان بيان . فصفات مثل هذه وان كانت مفيدة فى الماضى أصبحت لا شأن كبير لها فى سير العلم والصناعة والاقتصاد فى الوقت الحاضر . والمناهج الفنية هى السائدة للعالم الحديث . وتتطلب هذه المناهج سواء فى أمور الحرب أم فى أمور الصناعة دقة لا تكتسب بغير العمل المنظم المستمر والثبات والصبر المديد . ويظهر أن عدم الضبط والدقة سيظل سائداً للامم اللاتينية . فانظروا الى صناعتكم النضرة لتروا كيف أقلعت عن النضال فى بضع سنوات عند ما صاقبتها صناعتنا ومناهجنا . وكذلك بحريتكم اختفت على وجه التقريب . ولا أدل على ذلك من هبوط أسعار أسهم شركاتكم البحرية فى وقت ترتفع فيه أسعار أسهم شركاتنا البحرية .

« وللبراهين الانسانية والسلمية شأن كبير فى خطبكم ، وعليها يقوم سلطان الاشتراكيين ، ولكن ما هو عملها فى مقتضيات الاقتصاد السائدة للعالم فى زماننا ؟ عملها

كعمل توسل أهالى نابولى الى بركان (فيزوف) كى يحولوا دون ثورانه ، فالبراكين لا تخمد بقراءة العزائم . وكذلك مقتضيات الاقتصاد المهيمنة على الأمم لا تحول مجراها بتأثير الخطب . وهذه المانيا شرعت تكون ذات ولد كثيرين مع أنكم قليلو الولد ، وهى تصنع منتجات كثيرة لا بد لها من أسواق تبيعها فيها . وسيستحيل عليها ذلك فى المستقبل القريب . فلقد صغر العالم ونزعت يدنا من الشرق الذى استولت عليه اليابان اقتصادياً . ومن أجل هذا ندير أبصارنا الى جيراننا ، فسنصدر اليكم ما يفيض من مصنوعاتنا وأبنائنا . واليوم ننتظر الوقت القريب الذى يتم فيه ضعفكم بما هو واقع عندكم من الانقسام والفوضى فيتعذر عليكم الدفاع ضدنا ، ولا تبديل لسنن التاريخ . فمصير الضعفاء زوالهم أمام الاقوياء ، فلم يحدث تقدم بغير ذلك . ولا طرأ شيء على كلمة (برينوس) التى قالها منذ ألفى سنة فأضحت مثلا وهى : ويل للمغلوب ! »

ذلك ما قاله الفيلسوف الالمانى . ويمكن أن نجيب عن مزاعمه . ولكن ماذا تنفع الاجوبة إزاء عقائد المرء التى لا تؤثر فيها الادلة ؟ دنونا من باريس وأنا أرى شيئاً من الحقيقة فى ما قاله الفيلسوف المشار اليه . وقد اكتفيت بهز كتفى مبتسما شاعراً بما يشعر به كل سائح مقترب من هوة مظلمة .



الباب السادس

تطور الفوضى ومصارعة الانحلال الاجتماعي

الفصل الاول

الفوضى الاجتماعية

لم يكن القنصل (مارسيوس سنسورينوس) سلمياً قائلا بالمذهب الانسانى ، بل كان ممن يعلمون نفسية الاعداء . فلما دنا من أبواب قرطاجه كانت أغنى مدن العالم القديم وأكثرها نضارة فى الفنون والتجارة ومحبي السلم . وبعد أن امتدح (سنسورينوس) لهؤلاء فوائد السلم ولعن فظائع الحرب قال لهم مستنتجاً : « ألقوا سلاحكم وسلموها إلى . فستأخذ روما على عاتقها أمر حمايتكم . » فأجابوه الى طلبه ، ثم قال لهم : « سلمونى سفنكم الحربية ، فهى كثيرة عظيمة النفقة لا فائدة منها بعد ان تعهدت روما بالدفاع عنكم ضد أعدائكم . » ففعل المسالمون ما أشار به عليهم ، وحينئذ قال لهم : « تحمدون على خضوعكم . ولم يبق على الا أن أطلب اليكم أن تقوموا بتضحية أخرى وهى أن روما — دفعاً لكل عصيان — أمرتنى بأن أهدم قرطاجه . فهى تسمح لكم بالاقامة فى أى مكان تختارونه فى الصحراء على أن يبعد ثمانين درجة من البحر . » هنالك أدرك القرطاجيون أخطار المذهب السلمى . وقد حاولوا عبثاً أن يدافعوا عن أنفسهم . فقرطاجه حرقت مع من فيها من السكان وغابت عن التاريخ .

تشتمل تلك القصة على كثير من العبر ، وأظن أنها خطرت على بال رئيس وزرائنا بعد اعتصاب موظفى البريد . أحدثت عندى هـــذا الظن خطبته التى ألقاها أمام تمثال

(غامبتا) : فقد جاء فيها : « أنه لا حق لغير الاقوياء ، وليس المستقبل لغير ذوى الجرأة والاقدام . وكل مجتمع يحابى عصاة الموظفين جدير بازدراء الناس أجمعين ، فقمع عصيانهم ضرورة تمليها سلامة الامة . »

ومن حسن الحظ أن هذه اللهجة تناقض لهجة ركن آخر لم ير لمعالجة تمرد الموظفين وعيد العمال واعتصابهم وهدمهم سوى الصيغ المبهمة الاتية وهى : « إنه يجب أن يحسب لما وقع حسابه وأن يكون الرجل ابن وقته وأن يعتمد على طبقة العمال » وقد ختم كلامه بمناشدته أولياء الامور الذين وصفهم بالسعداء بأن يعاملوا العمال والموظفين بكرم وسخاء . وهذه اللهجة هى من مظاهر الفلسفة الحديثة القائلة بحب الانسانية والتى هى أجدر بأن تسمى — حسب تعبير جورج صوريل — « فلسفة الجبن والنفاق »

ولا نجهل جواب العمال والموظفين عن هذا الكلام . فكلما شعروا بخوف أصحاب الامر منهم أمعنوا فى ازدرائهم وتهديدهم ، وهم لا يأتون عند أقل مقاومة يبديها أولو الامر سوى الاعتصاب والتخريب والحرق ، ومن دواعى الاسف أن الخوف هو المستولى على رجال الحكومة ، والخوف هو الذى كسر الجيوش وهيأ الثورات كما هو معلوم .

وكلمات رئيس الوزارء السابق الصائبة تؤثر تأثيراً كبيراً لو قالها أيام اعتصاب موظفى البريد لابعده . فالدفاع آنئذ كان سهلا . ولم يؤد الاذعان لهؤلاء المتمردين الى غير جعلهم يشعرون بقوتهم ويحتقرون رجال الحكومة . فالجماعات كما قال (ماكيافيلى) لا تكون شاكرة لمن تأخذ منه شيئاً بالقوة .

لم ينظر الى قول (ماكيافيلى) بعين الاعتبار لقدمه ، وقد اختير سبيل الاذعان فى بداءة الامر . فسرعان ما نشرت الجريدة الرسمية زيادة رواتب موظفى البريد . ولكن لما زادت مطاليبهم اضطرت الحكومة الى التصريح بأنها لا تستمر على الاذعان

ثم إن موظفى البريد لم يبدو رغباتهم الا بوقاحة مفرطة وبتهديدهم الحكومة بالاعتصاب تهديداً مكرراً . ولما رأى الموظفون الاخرون أن النجاح يكون حليف سياسة التهديد رفعوا عقيرتهم وأبدوا مطاليبهم . وقد وجب لتنفيذها مضاعفة الميزانية ومن ثم مضاعفة الضرائب .

لا جرم أن رجال البرلمان والوزراء لا يالون بنتائج ضعفهم الا قليلا فهم يعلمون أنهم لا يكونون قابضين على زمام الحكم عند ظهورها . ولكن لما أخذت الرغائب

والمطاليب تزيد بسرعة اضطروا الى إظهار شيء من المقاومة مداراة للرأى العام.

ولم يكن اعتصاب موظفى البريد الثانى خالياً من الفائدة ، فيجمل بالجمهور أن يقاسى اعتصابات البريد والسكك الحديدية ليدرك ماذا ينطوى تحت النظام النقابى ولينتصب أمام جميع الثوريين .

ينبغى أن نعلم كيف ندافع عن أنفسنا غير خائفين ، فالخوف سبب جميع الفتن الدامية وما ينشأ عنها من استبداد عسكرى ، وهل كان موظفو البريد والمعلمون يقولون مانشروه فى الجرائد لولم يكونوا واثقين بما توجبه خطبهم من هول ؟ وهل يجوز السماح لموظفى الدولة بأن ينشروا المبادىء اللا وطنية ويبذروا بين الناس المذهب القائل بنزع السلاح وعدم التجنيد أى بتقويض أركان المجتمع الذى يعيشون فيه ؟ وهل يصح السكوت عن كثير من المعلمين الذين يعبرون عما فى أنفسهم بمثل العبارة التى قالها أحد مفوضيهم فى مجلس عام وهى : « إنى أطالب لتحرير الصعاليك بانتساب المعلمين الى جمعية اتحاد العمال وبأن يطبع الحقد على الطبقة الوسطى على قلوب الاطفال » ؟

ومن العبث أن نجادل أناساً ضالين أعمى قلوبهم بعض الزعماء ، فأولئك الناس الذين يكثرون من التظلم ينتسبون بالحقيقة الى زمرة ممتازة بين أبناء الطبقة الوسطى . ومن أغرب ما سمعناه ادعاء رئيس اعتصاب موظفى البريد بأنه من الصعاليك مع أن راتبه السنوى بلغ ستة آلاف فرنك ومع أنه سينال راتب تقاعد مقداره ثلاثة آلاف فرنك على الاقل . فلو تم النصر للمذهب النقابى لاصبحت رواتب أمثال هذا الموظف كرواتب أصغر العمال .

لقد رأينا فى أثناء اعتصاب موظفى البريد عجباً وهو أن قسما من الحكومة تمرد على القسم الاخر . ومن أى شيء تتألف حكومة البلاد ؟ إنها لا تتألف فقط من البرلمان الذى يسن القوانين ولا من الوزارة التى تأمر بتنفيذها بل أيضاً من مليون من الموظفين الذين ينفذونها مباشرة والذين توزعت بينهم السلطة الحقيقية ، فاذا رفع هؤلاء الموظفون راية العصيان اضمحلت الدولة . واذا أمكن الاستغناء عن الوزراء فكيف يستغنى عن موظفى الحكومة البالغ عددهم مليوناً ؟ ليس من الصعب تبديلهم بآخرين . فاذا كان المرء يحتاج الى سعى سنوات كثيرة كى يكون ميكانيكياً أو حداداً فانه لا يضطر الا الى جهد بضعة أسابيع

كى يصبح رئيس ديوان أو موظف بريد أو جابياً وإذا كان بين جحفل الموظفين رجال — كموظفى البرق — يتطلب عملهم شيئاً من الوقوف على الميكانيك فقليل عديدهم .

*
* *

قال (إيكتيت) : « إن الاراء التى تدور حول الاشياء لا الاشياء نفسها هى التى تقلق الرجال . » و بمثل هذا القول يعبر عن أخطار الوقت الحاضر . فهذه الاخطار ليست فى الامور نفسها بل فى الاوهام والافكار التى تدور حول تلك الامور .

إن الاوهام هى التى تقيم الامم وتقعدها وقد أثبت لنا التاريخ أنه يقتضى لزعزعة مالبعض الاوهام من السلطان نشوب حروب تمتد قروناً كثيرة وسيل الدماء كالانهار .

وما صار نصيب العمال فى زمن أحسن منه فى هذا الزمن وما تذمر العمال فى وقت تذمرهم فى الوقت الحاضر . وليس من الصعب أن يوفق بين المصالح وإنما الذى يظل التوفيق بينه متعذراً هو الحقد والحسد اللذان بذرهما الساسة فى الجماعات . وقد أصبح الاستياء عاماً بفعل العدوى النفسية وصارت الاشتراكية والنقابية والفوضوية ترياقاً لجميع الامراض .

تتألف الجماعات المشبعة من هذه المذاهب من أخلاط الحراص المتهورين والمتعصبين المتحمسين وخريجى المدارس الساخطين ومحبى الانسانية المتنضحين وجيش من البلهاء الذين يتبعون كل ناعق .

والمعتقدات الحديثة كالاشتراكية والفوضوية والنقابية تقوم على الشكل الذى يرى به أتباعها المستقبل . فهذا الشكل على ما فيه من وهم هو عامل قوى فى السير والحركة .

وينشأ إقدام الاحزاب الثورية الزائد من جبن أولى الامر الذين ما أشأم مبدأهم فى الانسانية ، وقد أصبحت نتائج هذا الضعف بادية لكل ذى عينين ، ففى كتاب نشره الزعيم الاشتراكى الموسيو (جورج صوريل) وسماه « تأملات فى سياسة العنف » جاء ما يأتى : « إن أكبر عامل فى السياسة الاجتماعية هو ضعف الحكومة . وما احتاج زعماء النقابية الى زمن طويل كى يدركوا ذلك . فهؤلاء يعلمون العمال أن لا يطلبوا منحاً وهبات الى أبناء الطبقة الوسطى بل عليهم أن يفرضوا على الطبقة المذكورة مطاليبهم معتمدين على نذالتها ، وسياسة اجتماعية قائمة على نذالة الطبقة الوسطى التى تخضع إزاء

الوعيد والتهديد مؤدية لا محالة الى شيوع الرأى القائل إن هذه الطبقة محكوم عليها بالموت وأن زوالها إن لم يقع اليوم فغداً واقع . »

وكلما زاد شعور الاشتراكيين الثوريين بالخوف الذى يلقونه فى أولى الامر زاد وعيدهم . ويمكن الاستدلال على ذلك بالبرنامج الجديد الذى نشره « حزب اتحاد مقاطعة السين الاشتراكى » فقد جاء فيه : « أن الحزب يتخذ لدوام نضاله — الذى لن ينتهى إلا بالقضاء على المجتمع ونظام التمول وبقبض الصعاليك على مواد الانتاج وآلاته — جميع وسائل العمل من اشتراك فى المعارك الانتخابية وقيام بالاعتصابات العامة وتحريض على التمرد . »

ولا نطالب هؤلاء القساة المتعصبين بالاجابة عما ينشأ عن تحقيق أحلامهم من النتائج، فهم لا يرون أبعد من أنوفهم ولا يفكرون فى غير التخريب ، مع أن آلهة شريرة لو حققت جميع الامال الثورية دفعة واحدة وغيرت المجتمع حسب أهواء النقابيين لاصبح نصيب العامل عندئذ أسوأ منه الان .

لا يهتم الثوريون بالمستقبل البعيد وتنحصر عنايتهم فى تهييج العوام ، وكثيراً ما ينجحون فى ذلك ، ويخطىء الاشتراكيون الدستوريون فى ظنهم أنهم يستغلون ذلك ويضلون ضلالا كبيراً عندما يتصورون أنهم يهدئون ثائر الفوضويين بهبات لا يعبأ هؤلاء بها كابتياع السكك الحديدية وفرض ضريبة على الدخل ، وهل من شك فى الجهة التى تتجه اليها جموع العمال ، أنحو واضعى تلك الاصلاحات الباطلة أم نحو النقابات الثورية التى لا تقترح سوى هدم المجتمع بحرب أهلية ؟

يوجد عدا العوامل الاقتصادية التى لا أبحث فيها هنا عامل واضح فى اتجاه طبقات العمال نحو الثوريين ، فالجموع لا تتردد فى الاختيار بين ولاة الامور الخائفين الذين يذعنون أمام كل وعيد وبين أوتوقراطية جمعية اتحاد العمال أى إنها تتجه بغريزتها نحو الجهة التى تتجلى فيها السلطة القوية التى لا يزلزلها شىء .

ولا يسعنا إنكار ما للنقابية الثورية من قوة عظيمة . فالنقابية الثورية تسوس جموع العمال الرازحين تحت نيرها بطرق لا يتخذها أشد المستبدين ، ومع قلة كلام رجالها يعرفون كيف يطاعون من قبل اكثر الجموع تمرداً على النظام فى الظاهر . هم يتركون الخطب المطولة لضعفاء القلوب ولا يرون لهم غير السير والحركة دليلا ، ولهم لجنة عامة تصدر

التعليمات وتأمر بالاعتصابات وهي تبلغ العمال أمر الاعتصابات بواسطة مفوض غير مكلف ببيان الاسباب ، ومن يخالف من العمال أمر الاعتصاب يقتله زملاؤه . ومن منا يجهل قصة ذلك العريف الذى اجترأ فى (هير سيرانج) على البحث عن ثيابه بعد أن طردته النقابة فلم ينج من القتل الا على يد رجال الشرطة الذين أنقذوه من زملائه العمال فى حالة يرثى لها ؟ وما كان غير ذلك مصير أحد عمال التبغ الذى رضى براتب أعظم من الراتب الذى قررته النقابة .

تطاع أوامر اللجنة ولو كانت على جانب عظيم من الغباوة وقلة الصواب . فقد ظل العمال فى (هاز بروك) معتصبين شهوراً كثيرة كما أمرهم أحد مفوضى النقابة . وعلة هذا الاعتصاب هى أن أحد مديرى مصنع الحياكة أراد استبدال آلاته القديمة بآلات متقنة مستعملة فى أميركا منذ عشر سنوات . فلو لم يتم إيجاد الالات الحديدية فيما مضى لشككت فى إمكان إحداثها فى الوقت الحاضر حيث نفسية ولاة الامور وضعفهم كما رأيت .

وأمثلة مثل تلك ضرورية لمن يعتقدون أن الجموع قادرة على التعقل ، ولا ريب فى أن أفضلية زعماء اتحاد العمال فى إدراكهم أن الجموع لا تتعقل وأنها لا تطيع غير ذوى القوة أو النفوذ ، وهم اليوم يرفضون نظام الانتخاب العام و يطالبون بحقوق الاقليات أى بحقوقهم . وسوف لا يمضى زمن كبير حتى يتم أمر تلك الحقوق القليلة الديموقراطية والجماعات ترضى بها طائعة غير مكرهة .

*
* *

ليس خطر الحركات الثورية بما توجبه من العنف فقط . بل فى الفوضى النفسية التى تنتشر بفعل العدوى بين جميع الطبقات أيضاً فبالعدى اعتصب موظفو البريد واعتصب جلاوزة بلدية ليون وتمرد المعلمون وتأسست نقابات الموظفين الخ .

والحكومة لما كانت تخضع إزاء الوعيد جعلت العصاة يعتقدون أنه كاف لنيل الرغائب و بما أن المنافع المتناقضة تجاذبت المشترعين وصار هؤلاء يرون فى كل عاص ناخباً ضربوا بمقتضيات الاقتصاد عرض الحائط وأخذوا يسنون قوانين متباينة حسب رغائب المتمردين . فمع أن هؤلاء المشترعين يأسفون على نهب المصانع وقتل الجنود

وتقويض الصناعات يرون أن يعاملوا العصاة بالحلم والمسامحة أى بسن قوانين يظنونها كافية لرجوعهم الى العمل راضين مسالمين و بالعفو عمن قتلوا النفوس وحرقوا المعامل فى أثناء الاعتصاب .

وهكذا يطرأ على البرلمان والطبقة الوسطى حالة نفسية خطرة مؤدية الى ما نعانيه من الفوضى . وقد أشار الموسيو (ريمون بوانكاره) الى نتائج ذلك فى خطبة نفسية جاء فيها ما يأتى : « نظل جاحدين بالسراب الذى يقول الاشتراكيون إن تحقيقه يؤدى الى تمتع البشر بالمساواة التامة والراحة الكاملة . ولكن ألم نسهل عليهم عملهم من حيث لا نشعر؟ نعم اننا نهزأ بأوهامهم ونحتج على سياستهم المضلة ، إلا أننا نسعى فى تسكين ثائرهم بمنحهم أنواع الهبات . »

و إنا لنحزن على أن هذا القطب السياسى نفسه أتى بعمل يدل على سلطان تلك الحالة النفسية القاهر الذى أشار اليه فى خطبته ، فمع أن زملاءه فى مجلس الشيوخ اعتمدوا عليه فى إخفاق المشروع الخطر القائل بابتياع خطوط الغرب الحديدية خيب آمالهم فامتنع عن النضال .

من ذلك نشاهد تناقضاً بين أقوال أولياء الامور وبين سيرهم . وقد رأينا رئيس وزراء يحتج فى خطبة ألقاها على « هذر النقابات الجنائى » ثم علمنا « أنه لم يكف عن معاونتها بمال الامة وإن كانت تدعو الناس الى المبدإ القائل بعدم التجنيد . »

فمن أوصاف الامم اللاتينية فى الوقت الحاضر فقدان الارادة وانحطاط الخلق . و بانحطاط الخلق لا بانحطاط الذكاء غابت الامم العظيمة عن التاريخ كما هو معروف .

*
* *

للحوادث عدا عللها الظاهرة المباشرة علل خفية بعيدة . ويشبه ذلك ما فى البزور الظاهرة من أشجار خفية . فعلى ما فى الازمات السياسية الحاضرة من عنف جالب للنظر تنشأ عن عوامل أخرى أى إنها عنوان اختلال عميق فى النفوس .

ويكفى المرء أن يدير الطرف حوله ليعلم أن الانحلال فى الوقت الحاضر أصاب جميع القوى الادبية التى هى قوام الامة : أزمة فى العائلة التى تتفكك عراها ولا يكثر أفرادها

إلا ببطء وأزمة فى الاحتياجات التى تزيد مع نقص فى وسائل قضائها وأزمة فى السلطة التى لا يحترمها أحد ومبدأ فى المساواة منكر لجميع الافضليات وأزمة فى الاخلاق التى يوجب انحطاطها زيادة اقتراف الجرائم وأزمة فى الارادة التى تهن كل يوم وأزمة فى الموظفين الذين يتمردون وأزمة فى القضاة الذين لا يجرؤون على إقامة العدل وأزمة فى المعلمين الذين يعلمون الفوضى وأزمة فى النقابات التى تعمم السخط والاستياء وتقول بالحقد على الوطن والجيش ورأس المال والكفاءات الخ .

ولو نظرنا الى السلم الاجتماعى لرأينا النظام يزول ومبدأ السلطة يضمحل فى جميع درجاته ومن دواعى الاسف أن القادة لا يقابلون هذا السقوط بغير التسليم وأن أصحاب الامر والنهى فى الماضى لا يفكرون فى غير الانقياد والخضوع .

وقد أورد أستاذ التاريخ فى الصوربون الموسيو (أولار) مثالا جديداً على تلك الحالة الروحية . وأجدر بالموسيو (أولار) أن يستدل بهذا المثال على روح الجماعات أكثر مما بتلال الاوراق الباطلة التى جمعها للبحث فى الثورة الفرنسوية .

اضطر ذلك الاستاذ المغرم بفضائل الجماعات الى إيداع صندوقه فى إحدى محطات باريس الكبيرة على أن يطالب به فى اليوم الثانى . وعندما أتى لتسلمه كان فى محل الاستيداع أربعة نقلة يمشون ذهاباً وإياباً بهدوء . فقرأ هؤلاء الاربعة على سماه أنه ليس من السياحين الذين يرجى منهم حلوان فاستمروا على مشيهم غير مبالين به . ولما أخذته العزة شكا الامر الى رئيس النقلة فاعترف للاستاذ بأن الحق فى جانبه . وقد أضاف الى ذلك قائلا إنه لا سلطة على مرؤوسيه وإنه لا يقدر الا على تسليمه الصندوق بنفسه ونقله الى باب المحطة فقط . وبعد أن شعر النقلة بما تم سخطوا على رئيسهم لانه حرمهم حلواناً ضئيلا وأشبعوه سباً وشتماً منذرين إياه بترك الصندوق فى محله فخضع لهم معتذراً

أعلم أنه لا ينبغى أن يعتمد على ما يقوله أساتذة التاريخ الذين يقدرون على جمع الوثائق أكثر مما على شرحها واستخراج العبر منها . ولكن هذا لا يمنعنا من تصديق ذلك الحادث الذى لم يكذبه من يهمهم الامر والذى يقع كل يوم ما يماثله .

☆
☆ ☆

لا تظهر الفوضى الاجتماعية بين طبقات المجتمع الدنيا وحدها بل تظهر بفعل العدوى

النفسية بين المحافظين أيضاً . فلقد آخى مطران باريس أحد زعماء جمعية اتحاد العمال، وفى مؤتمر كاثوليكى دافع أحد القساوسة بحماسة عن حق الاعتصاب أى عن تمرد الموظفين. جاء فى جريدة الطان . « أن بين القساوسة من يدافعون عن أكثر المبادىء وقاحة وأشدها مقتاً للمجتمع وأعظمها فوضى . »

ولا فرق بين الاشتراكيين المتطرفين وبين المحافظين الذين يجب أن يكونوا حماة المجتمع فى الميل الى نيل حظوة دنيئة عند العوام . قالت تلك الجريدة : « يساعد المحافظون على تقويض النظام الاجتماعى الذى يستفيدون منه اكثر مما يستفيده غيرهم . ولو دققوا فى الامر لعلموا أنهم واهمون فى سعيهم على هذا الوجه وراء نفعهم السياسى فالنقابيون والثوريون هم الذين ينتفعون منهم دون أن يمنحوهم شيئاً . »

ويتجلى شيوع الفوضى عندنا بانتشار المبادىء اللاوطنية . ويتظاهر وزراؤنا فى خطبهم التى يمدحون بها المعلمين وأساتذة الجامعات بمظهر المعتقد أن دائرة انتشار المبادىء اللاوطنية القائلة بعدم التجنيد ونزع السلاح محدودة الى الغاية . وماذا يقصدون بالايهام وإخفاء الحقائق ؟ وهل الشفاء فى كتم المرض ؟

لم يتردد الموسيو (ريمون پوانكاره) على رغم حذره فى بيان تفاقم المرض فى خطبة ألقاها حديثاً ، فبعد أن ذكر أن أولئك اللاوطنيين الذين يأبون الدفاع عن فرنسا ضد الاجنبى يدعون الناس بحماسة الى إيقاد نار الحرب الاهلية كى يتم النصر لحزبهم قال :

« هل الموسيو (هيرفى) رجل شاذ فى طباعه غريب فى اتباع أهوائه ؟ استقصاؤنا فى مذاكرات بعض المؤتمرات يدلنا مع الاسف على أنه لم يكن وحيداً فى أفكاره وطرز بيانه وإننا لا نبالغ فى تأثيره ولكننا لا نرى أن نبيد هذا التأثير بانكاره.

« بينما ينتهك الموسيو (هيرفى) بمقالاته الحرمات ترون (بيبل) يقول فى الريشتاغ : « ثقوا بأنه إذا هوجمت ألمانيا فان جميع أبناء الوطن يتقلدون السلاح ويزحفون الى العدو . فالوطن وطننا . وإنى أقسم لكم أننا سندافع عنه حتى نبيد أو ننتصر . »

« وكيف لا تتذكر إزاء لهجة ذلك الاشتراكى الفرنسوى ولهجة هذا الاشتراكى الالمانى قول (إدغاركينى) : « إذا صارت فرنسا أممية تصبح مطية أهواء جميع الامم . »

« نعم يجب أن نحفظ هذه الكلمة . فليست اللاوطنية فى زماننا الذى نحن فيه وفى أوربا التى نعيش فيها سوى مبدإ غش وتدليس . وهى لا تليق الا بجزيرة وهمية

لا ماضى لها — كالتى حكى عنها (فالديك روصو) — واقعة فى وسط بحر محيط مجهول مخصبة إخصاباً يكفى لاعاشة ساكنيها فقيرة فقراً لا يحرك حرص أحد فيها . »

☆
☆ ☆

يدلنا التاريخ بأمثلته العديدة على مصير الامم التى وقعت فى الفوضى . غير أنه لايقص علينا سوى أمور ماضية قد لا تطبق على الحال . ولذا نبحث الان فى الشؤون الحاضرة فنقول : تحتوى أميركا الجنوبية على خمس وعشرين جمهورية إسبانية ، وعند النظر اليها نطلع على ما يؤول اليه أمر الامم التى تقع فى الفوضى بعد تجردها من سمو الاخلاق والامن والنظام . فلقد دنت تلك الجمهوريات من طور الهمجية ، ولو لم يقبض الاجانب على صناعتها وتجارتها لدخلت فيه دخولا تاماً . ففيها ترى عصابات مسلحة لا تفتأ تبذر بذور الشقاق والفساد كى تستولى على السلطة وتسلم مقاليدها الى رئيسها ، ولا يستمر سلطان هذا الرئيس طويلا . فسرعان ما تظهر عصابات مفسدة أخرى فتقتله ، وهكذا دواليك .

و بالخلاصة الاتية التى نشرها بعض الجرائد نستدل على ما وصلت اليه الحياة الاجتماعية فى تلك الجمهوريات :

« تدلنا البرقيات الاميركية على ان جمهورية (نيكاراغا) وقعت فى حال من الفوضى مبررة لتدخل الولايات المتحدة فى شؤونها ، فلقد ذكرت أن الجمهورية المذكورة ثائرة ضد رئيسها (زيلايا) وأن المظاهرات لا تزال مستمرة فى شوارع (ماناغا) وشوارع (كورنيتو) حيث يقتتل الناس بالبنادق وأنه يخشى أن يقتل المسجونون السياسيون الذين ضاقت بهم السجون ذرعاً وتركوا يموتون جوعاً وأن لجاناً تألفت لمنع رئيس الجمهورية من الفرار . وأن النصر حليف أنصار الرئيس فى (راما) حيث قتل الجنرال (فاسكيز) كثيراً من العصاة .

« وسوف تصر حكومة الولايات المتحدة على معاقبة الرئيس (زيلايا) الذى خرق قواعد الحقوق الدولية خرقاً جنائياً . وهي لن ترضى باشتراك حكومة المكسيك معها فى توطيد دعائم السلم هنالك الا بعد إنزال العقاب . »

نستغرب من حمل أولئك الناس على إيفاء عقودهم . فاحترام العقود يتطلب اتصافهم بما ليس فيهم من درجة رفيعة فى التمدن . و إنا لنرجو أن تبسط الولايات المتحدة يدها على تلك الجمهوريات لترفع مستوى أبنائها . فقد أثبتت الولايات المتحدة بتحويلها قطر (كوبا) فى بضع سنوات الى قطر سعيد بعد أن كان رازحاً تحت أثقال الفوضى الناشئة عن الحكم الاسبانى مافى النظام والامن من النعم

وعندنا أن الامم اللاتينية تحسن صنعاً إذا فكرت فى مثال (كوبا) وفى أنه ينحل فى اللاتين مالا بقاء لامة بدونه من الصفات الخلقية



الفصل الثاني

استفحال الجرائم

اوجب انتشار الفوضى الاجتماعية زيادة الجرائم . ولا تخلو مطالعة ما دار حديثا فى البرلمان من المناقشات حول الجرائم وعقوبة الاعدام من فائدة ، فهى ترشدنا الى السهولة التى يهذر بها أذكياء الخطباء عندما يتخذون السبل العاطفية دليلا لهم

لقد أتوا بأدلة مختلفة لحماية القتلة من عقوبة الاعدام . وانى أطرح من بينها أدلة احد النواب الاشتراكيين ، فالجرائم عنده لاتلبث أن تغيب « إذا وجد أبناء البلاد ما يعيشون به تحت سماء الشمس أحراراً غير مجور عليهم من نظام التمول الشديد الذى لم يتحرروا منه » ولو بحثنا عن قوة الاشتراكيين لرأيناها فى عدم ارتيابهم بمثل هذه الترهات .

واليك الادلة التى قيلت فى مجلس النواب ضد عقوبة الاعدام :

عقوبة الاعدام مضرة لانها لا تقى المجتمع وتجازى غير المسؤولين

عقوبة الاعدام لا تقوم الاخلاق ولا تصلح لان تكون عبرة

عقوبة الاعدام جناية اجتماعية . فالانسان لا يحق له أن ينزع حياة الاخر .

عقوبة الاعدام لا تفسر إلا بمبدإ الانتقام .

تبين أن كثيراً ممن أعدموا كانوا مجانين . فلما كانت آثار الجنون لا تعرف الا بعد الاعدام على العموم وجب إلغاء تلك العقوبة خوفاً من إعدام مجنون أو رجل غير مسؤول .

عقوبة الاعدام تشين من يطبقها اكثر من أن تشين من تطبق عليه

عقوبة الاعدام لم تؤثر فى سير الجرائم فى مختلف البلدان .

استعانوا بالاحصاءات لاثبات عدم تأثير عقوبة الاعدام فى سير الجرائم مع أن جرائم القتل بعد إلغاء هذه العقوبة عملياً زادت ثلاثين فى المئة والجرائم الاخرى تضاعفت فى خمس سنوات . واليك ما أورده الموسيو (بيرى) رئيس لجنة الاصلاح القضائى من الوثائق فى مجلس النواب :

« إننا إذا نظرنا الى الجرائم التى اقترفت لا إلى الجرائم التى حكم فيها نرى أنه اقترف ٧٩٥ جريمة سنة ١٩٠١ ، واقترف ١٫٣١٣ جريمة سنة ١٩٠٥ واقترف ١٫٤٣٤ جريمة سنة ١٩٠٧ .

« إذاً يكون الحق بجانبى إذا قلت إن عدد الجرائم يزيد كلما ألغينا عقوبة الاعدام عملياً ، فالقتلة بعد أن يعلموا أنهم لا يعاقبون بالاعدام لا يبالون باقتراف الجرائم . »

ولاشتداد الجرائم على هذا الوجه طلبت المجالس العامة — ما عدا ثلاثة — الى البرلمان أن لا يلغى عقوبة الاعدام والى السلطة التنفيذية أن تطبقها .

وقد استند ذلك الخطيب فى بيانه درجة الهول الذى يستحوذ على قلوب المجرمين من جراء عقوبة الاعدام الى اعتراف المجرمين القائل إنهم امتنعوا عن القتل خوفاً من المقصلة والى أقوال المحامين الذين أخذوا على عاتقهم أمر الدفاع عن المذنبين .

* * *

إن الباعث على تلك المناقشات هو مسئلة « التبعة » التى أثرت كثيراً فى سير العقوبات منذ خمسين سنة واتضح أمرها الان على وجه التقريب . فالتبعة لا تلحق المرء الا إذا كان مريداً مختاراً . والعلماء والفلاسفة لا يعتقدون اليوم وجود الارادة والاختيار فى الانسان فيرون الجانى غير مسؤول عن أفعاله .

الانسان غير مسؤول عن أفعاله من الوجهة الفلسفية . ولكنه مسؤول عنها اجتماعياً فالمجتمع لكيلا يرد مورد الهلاك مضطر الى الدفاع عن نفسه . وليس عليه أن يبالى بدقائق ما بعد الطبيعة فمع أن تجرد اللص القاتل من مزاج عقلى كمزاج (پاستور) ليس من عمله، تختلف معاملة المجتمع له عنها لباستور . وكذلك الضائن (١) مع أنه غير مسؤول عن اتصافه بالاوصاف المعروفة ، تحكم عليه أوصافه بالذبح من قبل الجزار .

احتاج الوقوف على الفرق بين التبعة الاجتماعية وعدم التبعة الفلسفية الى زمن غير قليل . وقد اتضح هذا الفرق فى المؤتمرات التى عقدت للبحث فيه ولا سيما فى المؤتمر الذى عقده أطباء المجانين سنة ١٩٠٧ فى جنيف . وانى أنقل هنا خلاصة الاراء التى قيلت فيه ونشرها (غورمون) :

---

(١) خلاف الماعز من الغنم

« يجب إنزال العقاب على المجانين وأشباههم إذا خرقوا حرمة القوانين الاجتماعية سواء مختارين كانوا أم غير مختارين. فاذا جاز ترك مبدإ التبعة الادبية لا يجوز ترك مبدإ التبعة الاجتماعية . واذا اقترف الجانى الجريمة ،شاعراً كان أم غير شاعر فهو خطر يقتضى نفيه من المجتمع . فلولا التبعة الاجتماعية لما قامت حضارة ما .

وليس الاطباء وعلماء العقوبات وحدهم هم الذين يدافعون عن هذه النظريات ، فاليك ما قاله المسيو (فاغيه) : « هل سوليان مسؤول من الوجهة الادبية ؟ كلا ، إذ لا فرق بينه و بين أنواع الحيوان من حيث البهيمية وعدم وخز الضمير وفقدان المبالاة . والمرء لكى يفعل مثل ما فعله (سوليان) يجب أن يكون ذا نخاع شاذ مثل نخاعه . ونخاع (سوليان) لشذوذه يقتضى قطعه .

« أرى عقوبة الاعدام أمراً ملائماً ، فهى تنفع للقضاء على الوحش الضارى الذى هو كناية عن خطر مستمر ولتهويل بقية الوحوش الضارية . و إنى من القائلين بانزال أشد العقاب على الجناة ولا سيما على ذوى المرض منهم ، فهؤلاء أعظم الناس خطراً وتشفى مجازاتهم كثيراً من المرضى . »

ومما لا مراء فيه أن أكثر المنحلين وأشباه المجانين والكحوليين ومختلى الشعور يخافون العقاب وأنهم كلما زاد العقاب زادوا فزعاً . وهنالك فريق من الاوباش يجب أن لا يتفلتوا من ساطور المقصلة أبداً . وأعنى بالاوباش أولئك الوحوش الذين يقتلون الناس فى الضواحى للقتل نفسه . فهؤلاء الذين يحكم عليهم بالحبس بضعة أشهر لا يلبثون أن يعودوا إلى ما كانوا عليه بعد إطلاق سراحهم .

والحاجة الى القتل للقتل نفسه تنمو و يشتد أمرها إذا لم يقض عليها بعنف . فهى ثمالة موروثة مستعدة للظهور فى كل حين . والمتمدنون وأشباههم يقضونها بالصيد الذى لم يكن بالحقيقة سوى مظهر من مظاهر الاحتياج الى القتل . وقد وصف أحد أكابر القضاة — وهو من الصيادين — نفسية الصياد التى لا تختلف عن نفسية الاوباش القتلة إلا بتطبيقها على أنواع الحيوان بما يأتى :

« الصياد يصمى الطريدة غير راحم ، وهو يزيد لذة كلما أمعن فى قتل تلك الحيوانات الساحرة والطيور الجميلة اللطيفة . ولو أراد أن يردع نفسه عن سفك دمائها لما استطاع فياللتعاسة والشقاء ! »

والوبش كالصياد يجد لذة كبيرة فى القتـل ولا يستطيع أن يزجر نفسه عنـه ، فلنقض عليه قبل أن يقضى علينا .

و إنا لنلاحظ أن آراء الاطباء وعلماء الجزاء فى الموضوع تغيرت فى بضع سنين تغيرا كبيراً ، فقد كان الجناة منذ زمن غير بعيد معدودين من المجانين غير المسؤولين . وأما اليوم و إن كانوا يعتبرون من مختلى الشعور يعدون مسؤولين جديرين بأن يطبق عليهم أشـد العقاب . والا فلا يفيد اعتقالهم . لانهم بعد أن يمر عليهم زمن قليل فى المعتقل يطلق سراحهم فيعودون الى ما اعتقلوا من أجله .

أشاطر دعاة المذهب الجديد رأيهم فى ضرورة معاقبة الجناة خصوصاً معتادى الاجرام عقاباً شـديداً ، وانى أذكر ما كتبته قبل إزهار هـذا المذهب فى « المجلة الفلسفية » حيث قلت « إن الجناة جميعهم مسؤولون » وتوصلت الى النتيجة القائلة بضرورة معاقبة الجناة انتهازاً عقاباً جثمانياً صارماً والجناة اعتياداً بالنفى إلى بلد بعيد نظراً لتعـــذر إصلاحهم وبينت أنه يمكن إدماج معتادى الاجرام فى كتائب التأديب الملزمة تعبيـــد الطرق ومد الخطوط الحديدية فى وسط أفريقية .

*
* *

تطبيقنا القليل لعقوبة الاعدام يجعلها ذات تأثير ضئيل . فاقتراف الجنايات يزيد كل يوم . ولا يؤدى تقليلنا تطبيقها الى نقص فى ارتكاب الجرائم الاخرى . فيجدر بنا أن نعلم كيف نكافح هذه الجرائم : إننا نجازى مرتكبيها فى زماننا بعقوبات غير مجدية أى بالاشغال الشاقة و بالسجن . فأما عقوبة الاشغال الشاقة فتحولت بفضـل مبادئنا فى الانسانية الى نزهة وأما السجون فأصبحت مساكن مزينة وقد بين لى نائب عام فى إحدى المحاكم العليا أن السجون الحديثـة تفوق مساكن كثير من متوسطى الحال لما فيها من وسـائل الراحة كالتنوير بالكهرباء والتدفئة بالانابيب والماء الحار والماء البارد وغرف الاستحمام وحدائق النزهـة الخ . ثم ذكر لى أنه رأى أناساً يرتكبون جنحاً ليسجنوا فى أشهر الشتاء الستة فى تلك السجون حيث يجدون جميع وسائل الرفاهة ما عدا الحرية .

ومع أن العقوبات فى انكلترة قصـيرة المدة تطبق على المجرمين تطبيقاً شديداً مؤثراً فى نفوسهم . فهم يكرهون على الشغل الشاق و يجلدون بسياط ذات تسعة أذناب .

قللت هذه الطريقة عدد الجرائم فى انكلترة وصارت لندن التى كانت تسكنها — كما بين الموسيو (لا كاسان) — عصابة من الاو باش لا تعرف هذه العصابة بعد أن جلد من قبض عليه من أفرادها وتشتتت .

قال الموسيو (لا كاسان) : « نعلم أن باريس تتبع نظاماً آخر بفضل تساهل قضاتها و نيابتها العامة . ولكن أى النظامين أفضل ؟ أنظام العقوبات الجثمانية أم نظام الافراط فى المسامحة ؟ لا ريب فى أن العقوبات الجثمانية هى أكثر تأثيراً فى معتادى الاجرام .

« لقد سن نظام الجلد فى الدانيمارك سنة ١٩٠٥ عندما كثرت فيها الاعتداءات على الناس . وإنا لنرجو أن يدخل مشترعونا نظام العقوبات الجثمانية الى فرنسا بعد أن أثبتت التجارب تأثيره الحسن فى انكلترة ودلت على أنه خير من اللبث فى السجن شهوراً وسنوات . »

لا جرم أن تخفيفنا للعقوبات وعجز قضاتنا يؤديان الى زيادة الجرائم . ومما يساعد على تكاثر عدد المجرمين قوانين العمل فى المصانع . فهذه القوانين لا توجب كما بينت فى فصل آخر غير بطالة ألوف من الفتيان الذين يرضون بمهنة الاشقياء حينما يرون أنفسهم عاطلين من العمل . وكذلك العناية التى يعامل بها المسجونون والمنفيون تزيد الجرائم انتشاراً وجنايات القتل شيوعاً .

وفى اجتماع عقده مجلس بلدية باريس حديثاً أعرب أحد الاعضاء عن استيائه من كثرة الاعتداءات الليلية فى باريس فأجاب والى باريس المسيو (ليبين) أنها ناشئة عن ضعف القضاة وعن العفو المستمر عن المجرمين . ثم ذكر « أن البلاد تحصد اليوم ما زرعته منذ بضع سنين من بذور المذهب الانسانى الرحيم . »

وتفاقم المرض يسبب العلاج . فمتى تفاقم يلجأ ذوو الاذهان الثقيلة التى استحوذت عليها العواطف الى دروس التجربة . ومتى يكثر سفك الدماء فى أحياء المدن الكبيرة وحينما تعيث عصابات الاشقياء فى الارياف والحقول فساداً و يتعذر على المرء أن يطوف فى باريس ليلا من دون أن يتقلد سلاحاً يفكر ولاة الامور فى اتخاذ تدابير كافية للمدافعة عن أرواح الناس .

ولكن حينما يقع ذلك فى وقت لا يكون فيه ما يكفى من قوانين العقوبات الشافية

و يكون كل امرىء مكرهاً على الدفاع عن نفسه يصول الشعب — كما صرح مقرر اللجنة القضائية فى مجلس النواب — صولة شديدة فيشرع فى قتل الجناة من غير محاكمة .

قال المقرر المذكور : « إن قضاء الجماعات قضاء متهور شرس قاطع قاصم ، فمن المنكر أن يترك أصحاب الامر والنهى لأناس غير مسؤولين حق المجتمع فى تطبيق عقوبة الاعدام دفاعاً عن الناس ومن المنكر أن تدع السلطات العامة الناس يأخذون حقوقهم بأيديهم و ينتقمون لانفسهم بأنفسهم لعدم ثقتهم بحماية القوانين . »

ومن العوامل فى زيادة الجرائم جبن قضاتنا الذين يخشون انتقام الجناة ولا يشتدون إلا على النساء المذنبات ذنوباً طفيفة . وقد أشار أحد القضاة الى ذلك فى محادثة نقتطف منها ما يأتى : « تبحثون فى طريقة المرافعات دون العقوبات . أفلا تعلمون أن العقوبات هبطت الى نصف ما كانت عليه منذ خمسين سنة بفعل التسريح المقيد و إلغاء السجن الاحتياطى ؟ تريدون تطبيق الطرق الانكليزية . فذلك يستدعى اتخاذ عقوبات الانكليز من جلد وأشغال شاقة واضطهاد كل من يقترف جنحاً وجنايات مضعفة للسلطة وجعل رجال الامن فى حال لايمسون فيها . رجال الشرطة فى لندن لايتقلدون سيفاً ولا مسدساً و يمشون منفردين فى أحياء لا يمشى فى مثلها رجال شرطتنا الا مجتمعين شاكين سلاحاً . فوقتما تقضون على إيقاع الجنايات بعقوبات قاطعة شافية ومتى يصبح حال رجال شرطتنا مثل حال رجال الشرطة فى انكلترة نبحث فى طريقة المرافعات . »

حقاً إن تهويل الجناة بأشد العقوبات هو — كما أشار (ماكسويل) فى كتابه « الجرم والمجتمع » — الدواء الوحيد لاستفحال الجرائم . فالمجنون أيضاً يتأثر من وعيد القصاص .



إن الوصول الى فرض مايلزم من العقوبات يتطلب شفاء الجمهور من مرض الانسانية والقضاة من الخوف . ولدينا بضعة دلائل تجعلنا نرجو هذا الشفاء . فاليك ماقاله رئيس المجلس البلدى عند دفن جاواز قتله أحد الاو باش : « إن الذى يهمنا على الخصوص هو أن لا نجعل للمبادىء المزعوم أنها إنسانية سبيلا الينا ، فهي لا تؤدى إلى غير إضعاف النجدة والمروءة فينا . وهى أكثر ضرراً وفساداً من الاو باش أنفسهم . »

أشاطر هذا الرأى مشاطرة مطلقة. فدعاة المذهب الانسانى أشد خطراً من اللصوص.

وريثما تشيع هـذه الحقائق نرى المذهب الانسانى مستمراً على انتشاره. ونعد من مظاهره المشؤومة إدخال معتادى الاجرام فى سلك الجيش. ولا يسع المرء إلا أن يسأل عن دماغ الرئيس السخيف الذى نبت فيه مبدأ إدماج معتادى الاجرام فى الثكنات. فقد اشتملت بعض الكتائب جيناً من الزمن على مئة وبش محكوم عليهم بأنواع الجرائم فاوجب وجودهم فيها وقوع الحادثات الاتية التى ذكرتها جريدة (الجورنال) فى عددها الصادر فى ٢٨ كانون الثانى سنة ١٩٠٩ وهى :

« منذ شهر تشرين الاول الاخير سلب وقت الظهر رجلان على طريقة البطح التى لا عهد لاهالى (مونتارجى) بها وسرق بيت القائد حسب قواعد صنعة السرقة، وجرح أحد السكان بين كتفيه من قبل جنديين لم يعرفهما. ووجدت منذ ثمانية أيام جثة أحد الجنود ملقاة فى الترعة. فما عليه أولئك الجنود الاوباش من سير يجعلنا نعزو هذه الوقائع اليهم. »

فاذا لم يرفع الرأى العام راية العصيان على ذلك القانون المشؤوم ويوجب الغاءه يتم القائلون بمذهب الانسانية انحلال الجيش.

وقد أثبت نائب الجيروند الموسيو (شومه) أنه ذو إصابة فى الرأى عندما بين ضرورة العقوبات الجثمانية لتقليل الجرائم فى العبارات الاتية :

«أستميح ذوى النفوس الحساسة عذراً إذا أوقعت شكوكا فى قلوبهم : إننى من المطالبين بجازاة الاشقياء الذين يعتدون على الناس بعقوبات جثمانية. فالانسان قبل أن يتفلسف يحتاج الى الحياة. وليست المعضلة فى معرفة مسؤولية الجناة أو عدمها بل فى خطرهم. لا يمر يوم من غير أن نرى أوباشاً يقتلون أناساً أبرياء للقتل نفسه. فلو دققنا فيهم تدقيقاً نفسياً لرأيناهم من الكسالى المتهتكين الذين يفضلون أن يكونوا عالة على البنات على أن يشتغلوا فى المعامل والمصانع.

« الوبش يقتل ليسرق وفى الغالب للقتل نفسه، فما أكثر ما يراهن وبش زملاءه على قتل أول رجل يمر من أبناء الطبقة الوسطى. إذاً وجب علينا أن ندافع عن أنفسنا ضد الاوباش ناظرين الى ما هم عليه من الاخلاق. ومن فوائد العقوبات الجثمانية أنها تذل

من تطبق عليه أكثر من أن تؤلمه . فالوبش الذى يفتخر بالسجن حتى بالشنق لا يفتخر بانه جلد عشرين جلدة مثلا . »

وبينما نسن تلك العقوبات يكثر حماة الوبش . فقد نشرت احدى الجرائد بياناً دبجه يراع سيدة دكتورة قالت فيه انها اعتنقت « المذهب الوبشى » بتأثير وبش علمها « أن الصدق والصلاح لا ينفعان لغير المحافظة على الاغنياء وأن مهنة الاوباش حافلة بالملاذ المفاجئة . » ثم ختمت بيانها بقولها : « لا بأس من وجود بضعة أوباش فى جيشنا الثورى . » فيالها من مثال بارز على ما يوجبه التعلم من اضطراب فى ذوى النفوس المريضة !

والتجربة وحدها هى التى تستطيع أن تدلنا على نتائج مبادئنا فى الانسانية . فعندما يشتد الخطر ويقر عدد كاف من محبى الانسانية تزول عاطفة الحنو من قلوبنا ونبحث عن أشد التدابير شفاء فنكتشف العقوبات الجثمانيـــة . وحينما يرى الاوباش — وقد بلغ عددهم ثلاثين ألفاً فى باريس — أن حدائق (كاليدونيا) الجديدة والسجون المشتملة على أسباب الراحة استبدلت بالجلد والاشغال الشاقة والمقصلة يفضلون العمل فى المصانع على السرقة والقتل . وآنئذ تتخلص باريس من أوباشها فى بضعة أسابيع ويعترف مشترعونا أن المذهب الانسانى أشأم المذاهب على الافراد والمجتمعات وأنه أشد العوامل فى الانحطاط

الفصل الثالث

القتل السياسي

إن القتل السياسي — وقد كثر وقوعه فى هذه الايام — مظهر من مظاهر الفوضى الاجتماعية الحاضرة وعنوان لاختلال نفسى عظيم .

وأكبر انطباع يوجبه القتل السياسي فى الجمهور عدم تأديته الى نتيجة عملية . فسواء أقيصر روسيا كان المقتول أم ملك إيطاليا أم إمبراطورة النمسا أم رئيس جمهورية فرنسا أم ملك البرتغال يدل الواقع على أنه ينصب فى الحال مكانه رجل آخر من دون أن يبدل شيء فى النظام الذى يمثله المقتول . وكثيراً ما يؤدى القتل السياسى الى ردفعل مؤيد للنظام المذكور .

ويلوح لنا أن مثل هذه الحقائق توجب بلبلة فى مباحث علم النفس المزاول القائلة إن مصدر الجنايات هو المنفعة الشخصية كالانتقام والطمع الخ .

فالجرائم السياسية تنشأ إذاً عن عوامل بعيدة من المنفعة الشخصية والمصلحة العامة فكيف يستطيع علم النفس الحالى تفسير هذه الجرائم ؟

يقتضى للوصول الى ذلك أن نبحث فى انتشار بعض المعتقدات وسلطانها على النفوس: ضرورة الخضوع لمعتقد — دينياً كان أم سياسياً أم اجتماعياً — هى غريزة متجبرة على كثير من النفوس . فهؤلاء يحتاجون الى معتقد يدير حياتهم آلياً ويكفيهم عناء التفكير . ومعنى ذلك أنهم يصبون الى الاستعباد الفكرى لا إلى حرية الفكر .

ولا تأثير للعقل فى المعتقدات القوية . فلو نظرت الى الحقيقة لما رأيت معتقداً من المعتقدات الكبيرة التى دان لها البشر وقامت عليها أعظم الديانات وأمتن الدول نشأ عن العقل . فالمعتقدات من عمل عدد قليل من المتهوسين . وهى لم تنتشر الا بفضل

أتباعها المشبعين من إيمان قوى كاف لتحويل الاباطيل الظاهرة الى حقائق ناصعة ولاستعباد النفوس .

شدة الايمان فى هؤلاء الاتباع تجعلهم يسيرون حسبما يوحيه اليهم إيمانهم غير مبالين بمنفعتهم الشخصية . ولما كان الايمان ينومهم لا يتأخرون عن التضحية بكل شيء فى سبيل نصره . فلذا مثلوا دوراً عظيما فى التاريخ .

هم — كما بينت فى كتابى روح الاشتراكية — أناس متصفون بغريزة دينية نامية يحتاجون بها الى الاذعان لموجود أو أى شعار دينى يضحون فى سبيله بكل ما لديهم . وكل فريق منهم يعلل نفسه بمجتمع فردوسى قريب من جنات الاخرة التى كان يحلم بها أجدادنا . ومن بينهم نعد العدميين والفوضويين أمثلة جديرة بانعام النظر . ففى أدمغة هؤلاء الابتدائية التى استحوذ عليها خلق التدين الموروث ولا يؤثر فيها العقل والمنطق تجلى إيمان الاجداد على شكل جنات دنيوية تدير أمورها حكومة قادرة على إزالة الحيف متصفة بما للالهة القديمة من قدرة لا حد لها .

والرسول شديد الخطر لعجزه عن التعقل واحتياجه الى نشر معتقده وجهله حقائق الامور وتأثيره فى جماعات عاجزة عن التعقل ذات آراء لا تنالها الا بفعل العدوى . ومن الاباطيل الكبيرة السائدة للجيل الحاضر الاعتقاد القائل إن الجماعات تؤخذ بالعقل والمنطق مع أنها لا تستمد إيمانها الا من التوكيد والتكرار والنفوذ والعدوى كما بينت غير مرة . ولا تبالى الجماعات بمناقضة إيمانها لاوضح منافعها ولانصع الحقائق . فالناس عندما يؤمنون بالمعتقدات يتخذونها دليلا لسيرهم وحركتهم . وكثيراً ما قلب العالم بفعل أشد المعتقدات مخالفة للعقل والصواب وسيكون شأن المعتقدات فى المستقبل مثله فى الماضى من هذه الجهة .

وبمثل هذه الحقائق نفسر القتل السياسى ، والقتل السياسى وان كان يغيظنا لايدهشنا ، فاكثر مايقصده الرسول المؤمن أن يجعل الناس يشاطرونه معتقده وأن يقضى على كل من يحول دون ذلك مهما يكلفه الامر . وهو يشعر باحتياج شديد الى نشر إيمانه وأن يذيع فى العالم ذلك الخبر الطيب الذى سيخرج البشر من ظلمات الشقاء :

الحاجة الى التخريب من مقومات مزاج الرسول النفسى ، وهل ظهرت رسالة بغير قتل

بعض النفوس وهدم بعض الاشياء ؟ فالرسول لكى يقضى على أعداء إيمانه لا يتأخر عن قتل ألوف من الابرياء وقذف كثير من القنابل فى أحد المسارح المكتظة بالحضور أو أحد الشورع المأهولة. وما أهمية هذه الملاحم ما دام الرسول يسعى لتجديد البشر وتوطيد دعائم الحقائق وهدم الاباطيل !

ولا يكون هؤلاء الرسل القتلة من طبقات الشعب الدنيا مبدئياً بل هم فى الغالب من المتعلمين الذين درسوا فى الجامعات درساً لا يلائم مزاجهم النفسى البسيط . وقد يكونون أحياناً من ذوى الحلم الذين ران على قلوبهم المبدأ القائل بتجديد المجتمع . فلقد عد توركادا و رافاياك ومارا وروبسبير أنفسهم من محبى النوع البشرى وممن لا يحلمون إلا بسعادته والتضحية بأنفسهم فى سبيله .

قال (لومبروزو) : « ظهر المجانين والمهيجون فى كل زمان حتى فى عصور الهمجية وكانوا يرون عيشهم فى الاديان، وأما الان فقد صاروا أحزاباً سياسية وعصابات فوضوية، كانوا مجاهدين فى الحروب الصليبية ثم أصبحوا عصاة متمردين فأفاقين فضحايا الايمان والزندقة .

« وإذا ظهر فى هذه الايام — عند الامم اللاتينية خاصة — واحد من أولئك المتعصبين فانه لا يرى مرتعاً لحرصه فى سوى ميدان المجتمع .

« لان هذا الميدان حافل بالمبادىء غير الثابتة التى تترك الباب مفتوحاً على مصراعيه لحماسة المتعصبين . ها أنتم تجدون مئة زعيم من زعماء التعصب يجتمعون على مسئلة فى علم اللاهوت أو ما بعد الطبيعة . وذلك خلافاً لقضية هندسية مثلا . فكلما كان المبدأ غريباً يجر وراءه وعلى نسبة غرابته عدداً من المجانين أو المصابين بالصرع ولا سيما إذا كان سياسياً حيث يصبح كل فوز شخصى إنكساراً عاماً أو ظفراً عاماً بحسب الاحوال . وهذا المبدأ يلازم أشياعه المتعصبين حتى الموت ويكون لهم أجراً على حياتهم التى يخسرونها أو العذاب الذى يقاسونه فى سبيله . »

تزيد المبادىء الفوضوية عدد ضحايا القتل السياسى . فكل يعلم قتل حاجب وزير الهند من قبل طالب هندى مشبع من مبادىء إحدى الجرائد التى جاء فيها ما يأتى : ن القتل السياسى ليس جناية وان كان ذلك يحرمنا عطف أصدقائنا واحترامهم.فجميع

الاشخاص الذين تحرروا من ربقة الاوهام والاباطيل يعدون القاتل قتلا سياسياً غير مجرم بل منتقما للانسانية . » ولقد وقع في البنغال ٣٢٩ جناية سياسية فى سنة واحدة

أصبح عدد جنايات القتل التى اقترفها الفوضويون والعدميون وغيرهم من الرسل فى الثلاثين سنة الاخيرة كثيرا جداً . ولا شيء يدل على أنه سيقل . بل الدلائل كلها تجعلنا نعتقد أنه سيزيد . فلقد حول المتهوسون الخطرون الذين استولت عليهم الاديان فى الماضى وجهتهم الى عالم السياسة فى الوقت الحاضر . ومن العبث مناقشتهم . فاما أن نقضى عليهم وإما أن يقضوا علينا .

الفصل الرابع

الاضطهاد الديني

الاحقاد الدينيـة أحد العوامل فى انتشار الفوضى الاجتماعية فى فرنسا . والحكومة لما أغراها أناس متعصبون كثيرو الشغب والضجيج دخلت فى طور الاضطهادات الدينية دخولا موجباً للغم والحزن . وقد دلت بذلك على جهلها علم النفس والتاريخ جهلا تاماً .

تجلت الاضطهادات الدينية على الخصوص فى فصل الكنيسة عن الدولة وفى قانون نزع أموال المحافل الدينية . والحقد يعمى القلوب على الدوام ، فيظهر أن عمى البصائر كان شديداً حتى سن قانون الفصل الذى لم يقصد به سوى تجريد رجال الاكليروس عن رواتب متوسطة يعيشون منها .

لاشيء أشد خطراً على النظام الجمهورى من ذلك القانون . وقد أخطأ رجال الاكليروس فى توجعهم منه بعد أن أطلق قيودهم وفتح لهم باباً لنيل سلطة لم يسلم بها أشد ملوكنا كثلكة . وهل يتصور الانسان قانوناً طائشاً أكثر من قانون يحرر الاكليروس من السلطة الزمنية ويترك البابا يعين الاساقفة الذين كانت الحكومة تختارهم فتجعلهم فى قبضتها ؟

وكذلك لاشيء أخرق من اضطهاد رجال الاكليروس وطردهم من بيوتهم وحرمانهم وسائل عيشهم . وقد دل ساسة ألمانيا على سعة نظرهم بحمايتهم رجال الدين فى الالزاس واحترامهم وزيادة رواتبهم تمهيداً لافتتاح هذا البلد من الوجهة الادبية

وقد كان على الحكومة أن تأتى بقليل من الجهود لتكسب قلوب رجال الاكليروس وتجعلهم من أنصار الجمهورية . فرجال الاكليروس ليس لهم مبدأ سياسى يدافعون عنه . ولكن ماذا نفعل بالتعصب الذى أغشى على أبصارنا فجعلنا نقرر ما يباين أكثر منافعنا وضوحاً جاهلين أن القوى الادبية لا تقاتل بالعنف والقسر .

وليست القوانين القائلة بنزع أموال المحافل الدينيـة طائشة فقط بل هى تنم على ظلم وحشى وتدل على عجز عن فهم بعض قواعد الانصاف . وقد أثبتت درجة ما توجبه القوانين المفسدة للاخلاق من فساد فى أخلاق الذين يطبقونها .

نعلم أن الباعث على سن تلك القوانين هو حب القبض على مليار فرنك كان يظن انه يعود على المحافل الدينية ثم توزيع قسم منه على العمال كرواتب تقاعد طمعاً فى أصواتهم أيام الانتخابات ، وقد كانت نتيجة ذلك أن المليار غاب عن الابصار و زاد العمال حقداً على المجتمع ، اذ لم تسفر تصفية أموال المحافل الدينية عن غير اثنى عشر مليوناً من الفرنكات . وقد زاد الامر ضرراً نزع المعاهد والمؤسسات التى كانت المحافل الدينيـة تقوم بها من يد هذه المحافل وتحميل الدولة واجب الانفاق عليها من بيت المال .

والاشخاص الذين استفادوا من تطبيق القوانين المذكورة هم مأمورو التصفية والمضاربون . فلقـد اغتنى هؤلاء حتى اضطر واضع تلك القوانين الموسيو (كومب) الى الاعتراف بأن تنفيذها أمر لصوصى .

وقد عرض الموسيو (ريجيسمانسه) تقريراً على مجلس الشيوخ فدعمه بأرقام موجبة للحزن . إذ ذكر أن بعض المحاكم منحت مأمورى التصفية مئة الف فرنك أجرة على تصفية ستمئة الف فرنك وأن أحد مأمورى التصفيـة نال عشرة آلاف فرنك أجرة على تصفية ٢٥٫٠٠٠ فرنك وأن مأموراً آخر منح فى (نيس) ١٦٫٠٠٠ فرنك دون أن يقوم بعمل وهلم جراً .

غير أن هذه المبالغ التى ابتلعها مأمورو التصفية وحماتهم لا تعد شيئاً بجانب الارباح التى نالها أرباب الصناعات من المزايدات التى لم تقع علناً فقد ذكر الموسيو (دوفيلين) فى جلسة عقدها المجلس فى ١٤ كانون الثانى سنة ١٩٠٩ أمثلة بارزة صحيحة على ذلك ،ومنها أن رجلا اشترى دير (بوا) بـ ٢٫٦٠٠٫٠٠٠ فرنك فباعه على الفور بربح ثمانية ملايين فرنك . وأن رجلا آخر ابتاع دير (وازو) بثمن دون ثمنه الحقيقى ثلاث مرات . »

ولا نجهل المواطآت التى أقامت مجلس النواب وأقعدته فجعلته يقول لوزير العدلية إنه يتخلل نظامنا القضائى شىء من الاكلة والدعارة . فبالمواطآت قضت المحاكم لصديق من أصدقاء مأمورى التصفية بأن يدفع نصف مليون فرنك ثمناً لمصنع (شارتروز) وعلامته التجارية مع أن ثمنهما قدر رسمياً بثمانيـة ملايين فرنك . وكذلك لا نجهـل أن أحد أعضاء عصابة التصفية سجن لاختلاسه خمسة ملايين فرنك .

وأما الذين نزعت أموالهم فلم يفكر أحد فى أمرهم . فوقع أكثرهم فى بؤس شـديد . وقد انتظر بعضهم خمس سنوات انجاز الاعانات التى وعدهم بهـا رجال الدولة فلم يظفروا

بطائل . نستدل على ذلك من العبارة الاتية التى اقتطفناها من كتاب أرسله رئيس الوزراء فى شهر تموز سنة ١٩٠٨ الى وزير المعارف العامة وهى : « اسمح بأن أقول لك إننى لا أستطيع أن أتحمل حتى آخر السنة تبعة ترك النساء اللواتى يرين أنهن حرمن التعويض الذى وعدهن به القانون فى أشد دركات الفاقة . »

وقد ذكرت فى مجلس النواب أمور صحيحة كتلك . وهل يجد أولو الامر والنهى مؤرخين يعطفون عليهم فيبكون سوء طالعهم لو تم النصر للاشتراكية فنزعت أموالهم؟ أرجو أن لا يجدوا مؤرخاً يحنو عليهم . فالذى يخاف صراخ بعض المتعصبين المشاغبين فيرضى بسلب أموال الناس لا يستحق الرحمة والشفقة .

جاء فى خطبة ألقيت فى مجلس النواب ونشرتها الجريدة الرسمية ما يأتى : « أسأل رئيس الوزراء : من الذى سيطعم رجال الدين الذين جردهم موظفو التصفية من أموالهم وكيف ترون أن تقضوا حاجاتهم ؟

« هم لا يمنحون رواتب تقاعد وليس لديهم شىء من وسائل العيش . واليوم لما أصبح مدير (ستانيسلاس) — وهو قسيس بلغ الستين من عمره — لا يملك كسرة خبز اضطر الى مزاولة مهنة التعليم ليعيش . وقد طلبت ست مرات منحه راتب تقاعد . ولا سيما هو مدير مؤسسة اختلس منها مليوناً فرنك .

« ومن الذى سيطعم مديرى المدارس المسيحية الذين سلبت أموالهم . وبهذه الاموال كانوا يعيشون ويعلمون أولاد الامة ؟ اليوم نعرف أن مليارات المحافل الدينية استعملت لطرد البنات القديسات وكثير من رجال الدين الذين كانوا لا هم لهم سوى عمل الخير وإغاثة البائسين وحماية الاولاد

« على تلك الصورة أتيتم بضروب الطرد والسلب والهدم فأوجبتم امتلاء بعض الجيوب من الدراهم . آه ياسادتى ما أشقانا وما أكبر مسؤوليتكم ! »

ولا أنقل هنا ما قيل فى نزع أموال المحافل الدينية الجائر من مقالات السخط والغيظ فى مختلف أقطار الارض . وإنما أكتفى بنقل عبارات رجل كبير مرشح لرآسة جمهورية بلاده عن إحدى الجرائد البرازيلية التى ليست اكليروسية واليكها :

« نرى فرنسا التي ثقل عليها طيف الاكليروس ترجع القهقرى فتأتي بأنواع الظلم والاضطهاد . وهي على رغم طلاء حريتها الخارجي تعود في القرن العشرين الى نظام استبدادي رهيب كالذي طرد به رجال المحافل الدينية من البلاد .

« وها أن طريدي الاضطهاد الذي وقع خلف البحار يتضامون في حضن أميركا حيث المحافل الدينية تنتشر آمنة مطمئنة سعيدة وحيث تجلس حاشية الحبر الاعظم وجماعة الكرادلة أمام خوان البر وتستاني روزفلت »

ولا يسع أي رجل حر الضمير أن ينكر حيدان الدولة عن طريق العدل وسلوكها سبيلا مفسداً للاخلاق بنزعها أملاكا خاصة بالافراد كمصنع (شارتروز) الذي أنشأه أناس بأموالهم وعملهم الشخصي . فنزع أموال الافراد لمخالفة مبادئهم الدينية مبادىء أولياء الامور عمل وحشي مخل بالادب وقواعد الانصاف .

وعلى أي أساس يقوم المجتمع بعد أن بلغ فيه ازدراء الحقوق هذا المبلغ ؟ لذلك يرجع المجتمع الى عصور الهمجية حيث لا حق لغير القوي .

وقد أخذ بعض نواب اليسار يستنكرون الاضطهاد الديني الذي يعيدنا الى القرون الوسطى . فأسمع كيف يخاطب الموسيو (لابوري) — وهو أحدهم — مجلس النواب :

« لا تعني السياسة اللا إكليروسية الحاضرة دفاعاً ضد تطاول رجال الاكليروس كما يظن الناس . بل يراد ازدراء كل من له إيمان أو رأي فلسفي آخر . ولذا أناهض أولئك المنافقين الذين يودون القضاء على الاديان مع أنهم يحافظون على طقوسهم الدينية الخاصة بهم . وليس على الدولة أن تسعى في إيجاد وحدة أدبية في الامة أي دعوة الناس الى زندقة رسمية لا يحترمها أولو الامر أنفسهم . فكفاها ما كابدته فرنسا أيام أراد لويس الرابع عشر أن يجمع الناس على المذهب الكاثوليكي . »

ولا ريب في أن الاجيال القادمة ستحكم على الاضطهاد الديني الذي يقع في الوقت الحاضر — كنزع أموال الاكليروس والمحافل الدينية — بمثل الاحكام التي نحكم بها على محكمة التفتيش وإلغاء مرسوم نانت . فأولو الامر يبدون اليوم حججاً كالتي أبداها لويس الرابع عشر لالغاء ذلك المرسوم وهي إيجاد وحدة أدبية ووحدة سياسية في البلاد

☆
☆ ☆

قد يحتج بسبب على ظاهرى لا لتبرير نزع أموال المحافل الدينية بل لايضاح العلة في طردها . وهو أن المحافل الدينية لما كانت تعلم النشء تعاليم دينية مختلة صار من الصواب أن يحل محلها أساتذة تخرجوا على الكتب المدرسية العلمية .

فأفكار مثل هذه جديرة بالفطريين الذين لا علم لهم بتطور علم النفس الحديث ، وقد أثبت هذا العلم أن المعتقدات بما توحيه من الاعمال لا بقيمتها العقلية .

إذاً لا يهم أن تكون المعتقدات مختلة أم صائبة ، وانما الذى يهم هو تحريضها الناس على السير والحركة ، ففى الولايات المتحدة يظهر من وقت الى آخر دين جديد خليق بالاحترام لحثه الناس على العمل . ومن هذه الاديان دين (المورمون) الذى أفاد أميركا لتأديته إلى إقامة كثير من المدن الكبيرة الزاهرة فى بقاع كانت بلقعاً .

أحرار الفكر الذين يحملون على المعتقدات لا يفقهون شيئاً من تأثير الديانات . فمع أن الديانات لا تشتمل إلا على قليل من الحقيقة من الوجهة العقلية دلنا التاريخ على أن أهم الحضارات قامت عليها وأنها زينت حياة ملايين من الرجال بما لا تقدرُ على فعله مذاهب الفلسفة من زهد و إخلاص و إنكار الذات ومحبة الغير . فالديانات عبارة عن قوى يجب الانتفاع بها لا هدمها ، ولا يجوز أن يضطهد رجال الدين الا إذا أرادوا أن يضطهدوا المعتقدات الاخرى

الديانات — وهى التى تورث النفوس آمالا كبيرة وتدعم الضعفاء والمحرومين طيب العيش — ملجأ البائسين فى كل وقت . فلنعد الخياليين الذين أوجدوا الالهة وعبادتها من المحسنين الى البشر ، والعلم الذى عرفهم أخذ يعدل عن مقالتهم و يعترف بشأنهم الكبير . فقد كانوا فى الماضى عوامل فى ثبات الامم الخلقى . وهم و إن كانوا سيتحولون فى المستقبل لن يزولوا ما دام البشر يحتاج الى الامل .

الفصل الخامس

النزاع الاجتماعى

عدت (استوكهلم) من المدن الحافلة بالاسرار لوقوعها على بقعة كثيرة الضباب كان الناس فى الماضى يعتبرونهـا أقصى حدود الدنيا . يزعم الادلاء أنها تذكر المرء بالبندقية . ولكن السياح لا يرون وجه شبه بين المدينتين . وهم بعد أن يمتعوا عيونهم بمحالها المهمة لا يقيمون فيهـا أبداً ، وقد رأى السائحون الذين قصدوها اتفاقاً منظراً قد نراه فى المستقبل ولكن لم ير أحد مثله حتى الان .

والحكاية أن تلك العاصمة أصبحت فى أحد الايام عالما قلبت فيه المراتب الاجتماعية رأساً على عقب ، فالبناء أصبح فيها ذا دخل والأمير الاقطاعى صار بناء والمهندسون أضحوا يسوقون العربات والمتمولون صاروا يكنسون الشوارع والطلاب أصبحوا يوسقون السفن والقضاة أضحوا من كاسحى البلاليع

وعن أية قوة سحرية نشأ ذلك الانقلاب ؟ فهل هو من عمل الشياطين الذين يسكنون السماء والارض والبحر كما جاء فى أساطير (اسكنديناڤيا) ؟ لا شك لا . فالشياطين — حتى الاله (أودين) — ليسوا من النفوذ بحيث يقلبون أفكارنا فيجعلوننا نسير ذلك السير .

وقد كفت لقلب المراتب الاجتماعية وطرق المعايش بغتة قدرة خفية أقوى من قدرة أولئك وهى ضرورة الدفاع الاجتماعى . فهـذه الضرورة قدرت على تحويل النفوس و إلزامها أشق المهن دفعة واحدة .

شهرت نقابة العمال الأممية فى السويد الحرب على المجتمع باعلانها أمر الاضراب العام معتمدة على قوتها الكبيرة وعلى إطاعة العمال إياها إطاعة عمياء . فشعر آنئذ كل فرد من أفراد المجتمع بأن الوطن فى خطر وبأنه يجب الدفاع ضد مطالب البرابرة الجدد .

أجل ، كان يمكن الحكومة أن تذعن لمطاليب النقابة ولو أنها عقيمة كما أذعن

رئيس وزارة فرنسا فى اعتصاب موظفى البريد الاول . ولكن ذلك لا يؤدى الى غير زيادة الحالة خطراً أى إلى كثرة الاعتصابات المقوضة أركان التجارة والصناعة والموجبة قيام سفلة الناس مقام عليتهم . وخوفاً من حدوث هذا كله اضطر أبناء الطبقة الوسطى الى الدفاع فحلوا من تلقاء أنفسهم محل العمال فى المصانع والمعاهد غير طالبين الى الحكومة شيئاً .

وبعد ثلاثة أشهر مضت فى نزاع قضى على الاعتصاب الهائل مع ما بذلته النقابة من الجهود العظيمة لاذلال المجتمع ووضعه تحت نيرها .

وقد أسدت (السويد) بذلك الدفاع المجيد أعظم خدمة الى الحضارة . إذ علمت الطبقات القائدة كيف تدافع عن نفسها .

وللاعتصاب المذكور فائدة أخرى . فقد كشف لذوى الاحلام الضيقة من محبى الانسانية القناع عن أخطار الاشتراكية التى تهددنا . جاء فى إحدى الصحف السويدية المهمة : « أن أحسن نتيجة أوجبها ذلك الاعتصاب جمعه جميع العناصر غير الاشتراكية أى خمسة أسداس سكان البلاد تحت راية واحدة وتصويبها ضد الخطر الاشتراكى . »

ثم إن هذا الدفاع لم يستقم أمره الا باتحاد نقابات أرباب العمل وعطف الرأى العام ، ولم يكن مجدياً إلا لأن اكثر أبناء الطبقة الوسطى يتدربون هنالك على الاعمال اليدوية كالسحل والنجر والصقل واللحم والمطل الخ .

ومما يجب ملاحظته أن الطبقة الوسطى فى (السويد) لا تتضف كزميلتها فى فرنسا بصفة التسليم والخضوع ، فاذا لم تفكر طبقتنا الوسطى فى الاتحاد لتدافع عن نفسها يقع تجريدها من أموالها وزوالها فى أقرب وقت .

☆
☆ ☆

قد يلوح لنا أن الاعتصاب العام وتمرد الموظفين من الامور المشتقة من علل مختلفة ، ولكن إنعام النظر يدلنا على أنها بالحقيقة حوادث متماثلة ناشئة عن ناموس نفسى واحد مشترك بين جميع الامم وهو أنه عندما تشعر احدى طبقات المجتمع بزيادة نفوذها تصبو فى الحال الى استعباد الطبقات الاخرى .

زيادة النفوذ التى هي مقدمة الابتلاع تقع عندما يزول التوازن بين عناصر المجتمع ،

وحياة الامة كحياة الافراد لا تدوم الا بتوازن قواها المتقابلة . فاذا اختل التوازن وقع المرض و إذا استمر الاختلال وقع الموت .

وأقل نظرة الى التاريخ تدلنا على أن نفوذ إحدى الطبقات الاجتماعية عندما يزيد تميل الى السيطرة على الطبقات الاخرى . فبعد أن استولت روما فى العهد الامبراطورى على العالم بواسطة جيوشها و زال التوازن بين مجلس شيوخها و بين الجيوش المذكورة أصبحت هذه الجيوش سيدة لها ، وقد زادت تلك السيادة حتى صارت الجيوش وحدها تعين الامبراطرة وتخلعهم .

وحادثة الابتلاع وقعت بعد زمن من قبل كثير من العناصر الاجتماعية كالامراء الاقطاعيين والاكليروس والملوك الخ . فعندما كان التوازن يزول بين هذه الطبقات فتبتلع احداها الطبقات الاخرى كان الاضمحلال يصيب الطبقة المتغلبة أيضاً . فلما جهلت الملكية فى فرنسا قيمة التوازن غابت عن الوجود .

إذاً المبدأ القائل بالمحافظة على التوازن بين عناصر المجتمع و بعدم ترويج عنصر على حساب العناصر الاخرى مبدأ سياسى أساسى . و إذا غابت الملكية عن الوجود لانكارها هذا الناموس فان جمهوريتنا ستغيب أيضاً إذا تركت جمعية اتحاد العمال ونقابات الموظفين تزيد نفوذاً .

يظهر مصداق الناموس المذكور فى كل وقت . وقد أتت بلاد اليونان بدليل بارز عليه عندما تغلبت عليها إحدى الطبقات الرسمية فأوجب ذلك حكمها بنظام عسكرى مطلق .

*
* *

أضحت المناقشات الكلامية والخضوع عند الفتن أموراً لا تجدى نفعاً . فنحن اليوم إزاء أعداء ذوى برنامج واضح فى التخريب . فاذا تم لهم النصر لا ينجو من شرهم أحد . قال أحد كتابهم : « النقابية الثورية هى ضد الجيش والوطن » وحرض نائب اشتراكى فى خطبة ألقاها حديثاً — « شباننا الذين دعوا الى الانتظام فى سلك الجندية على الاقتداء بعمال برشلونة الذين رفضوا التجند وتمردوا على السلطة العسكرية » .

تلك هى الحرب التى يشهرها على النظام الاجتماعى زعماء طبقة العمال الذين ينضوى اليهم بعض النواب وكثير من الموظفين والمعلمين . ومن يحالفهم — كما يفعل بعض

الأغنياء — رجاء استمالتهم يدل على جهله قواعد النفس . فحرب مثل تلك إما أن تؤدى الى نصر أحد الطرفين أو إلى هلاكه ولا وسط ، ولا تجتنب الهزيمة بالمحالفة ، ففضلا عما ينشأ عن المحالفة من خراب فى آخر الامر توجب عاراً فى الحال واحتقار الاعقاب فى المستقبل .

إذاً لا تنفع تورية الخوف بخطب كاذبة فى الانسانية لا يثق بها أحد من القائلين والسامعين . ولا شىء أبسط من طريقة الاشتراكيين الثوريين فى الوقت الحاضر . فهى عبارة عن الوعيد ونيل الرغائب بالوعيد . وقد بينت فى فصل آخر أن ما تمليه من الخوف هو أكبر العوامل فى مقررات البرلمان .

سينتج عن التدابير التى يمللها الاشتراكيون انهيار ماليتنا . ولكن من الذى يبالى بهذا الانهيار الذى نراه قريباً و يرونه بعيداً ؟

على أننا نشاهد كل يوم نتائج القوانين التى وضعت بتأثير الفوضويين والاشتراكيين، فقد نشأ عن ابتياع سكك الغرب الحديدية الذى وقع على رغم اعتراض غرف التجارة إثقال كاهل ميزانية الدولة بدلا من النجاح الذى كان يطمح فيه مقترحوه . وقد بين المسيو (دومر) أن عجز تلك السكك ٣١ مليون فرنك سنة ١٩٠٩ وسيكون ٥٠ مليوناً سنة ١٩١٠ ، وما كان مصير جميع المشاريع التى تقوم بها الدولة غير ذلك لفقدان التبعة عند الموظفين ولعدم مبالاتهم فى إدارتها كما يجب .

تزيد خسارة بيت المال التى يوجبها ذوو الاوهام من أصحاب العلوم النظرية . ولم يفعل ابتياع سكك الغرب الحديدية سوى إثباته شأنهم المشؤوم . فالحكومة طمعاً فى تسكين تعصب بعضهم وجهلا منها أن هذا الابتياع لا ينفع أحداً أخذت على عاتقها نفقة خمسين مليون فرنك فى كل سنة وستصبح هذه النفقة مليار فرنك بعد عشر سنوات كما بين أحد أعضاء مجلس الشيوخ الموسيو (بودنوت) .

ولكن ذلك لم يكن غير فاتحة الامر . فسوف تزيد هوة العجز فى الميزانية عمقاً بفعل المبادىء التى تقود البرلمان . ولا نقول شيئاً عن القوانين التى لم تسن بعد كلائحة احتكار التعليم الذى سيحمل الميزانية مئة وخمسين مليوناً من الفرنكات .

ومتى سلكت سبيل نزع الاموال سلوكا استبدادياً فانه لا يوقف عند حد ، فقد كثرت

القوانين الحديثة المؤدية الى نزع الاموال على رغم وضعها باسم الانسانيـة ، ولا يسع أى قانونى أن لا يصف بتلك الصفة القانون الذى يكره شركات الخطوط الحديدية على زيادة رواتب تقاعد العمال مع أنهـا كانت تمنحهم قبله رواتب تقاعد كبيرة . وكيف لا يسعه ذلك وهو يرى زيادة نفقات سكة حديد (باريس — ليون — مرسيليا) وحدها صارت عشرة ملايين كل سنة .

ولا يتطلب سن مثل هـذا القانون الا أن يهدد النقابيون البرلمان بالاعتصاب ، وبما أن البرلمان يذعن أمام الوعيد صار من السذاجة أن يعول عليه فى الدفاع الاجتماعى .

رأى عمال السكك الحديدية درجة خضوع البرلمان لهم فاجتمعوا لوضع لائحـة يطلبون فيها زيادة أجورهم . وستبلغ هـــذه الزيادة ثمانين مليوناً من الفرنكات حسب تقديرهم . ومن المفيـد أن نبحث فى ما تكلفه ، فلو نظرنا الى شركة (باريس — ليون — مرسيليا) لرأيناها تكلفها نفقة خمسة وعشرين مليوناً من الفرنكات كل سنة ، ولو قسمنا هذا المبلغ بين أسهمها البالغ عددها ثمانمئـــة الف لاصاب كل واحد منها ٣١ فرنكا و ٢٥ سنتيما فتأمل .

إذاً صاحب السهم الذى يربح اليوم ٥٦ فرنكا لا يربح فى المستقبل غير ٢٤ فرنكا و ٧٥ سنتيما أى أقل من نصف دخله السنوى . ومن العبث أن يعتمد على ضمان الدولة للفائدة ، فهذا الضمان سيزول سنة ١٩١٤ .

ومن الطبيعى أن يفرح الاشتراكيون بما يصيب أرباب الأسهم من الخسارة ولو بحثوا فى الامر لعلموا أن بعض هؤلاء الارباب من العمال وصغار الموظفين الذين وفروا شيئاً من المال فى سنوات كثيرة لابتياع بضعة أسهم .

فليعلم أصحاب الاسهم المذكورون كيف يدافعون عن أنفسهم . وليسعوا فى إيجاد رأى عام بما يعقدونه من الاجتماعات العامة وبما يراجعون به ذوى النفوذ من النواب الذين يأخذون على أنفسهم أمر الدفاع عن دخلهم المهدد .

*
* *

إن أعمالنا الظاهرة فى الغالب نتيجة قوى خفية لا نعرفها عادة الا بآثارها . وهى لا تملى علينا أعمالنا فقط بل تملى أيضاً الادلة الضرورية لايضاح هذه الاعمال .

و إذا دققنا فى عوامل السير التى تقود أولى الامر منذ ثلاثين سنة فاننا نراها ترد الى ثلاثة وهى: أولا : الخوف الشديد من الناخبين ، ثانياً : اضطهاد الاقليات لنيل الحظوة عند الناخبين ، ثالثاً : تأثير المبادىء الاشتراكية ، فلنبحث فى فعل هذه العوامل الثلاثة .

فأما الخوف فقد بحثت فيه فى فصل سابق ، وأظن أنه لا يختلف فى تأثيره العظيم اثنان . فقد تجلى شأنه بأجلى مظهر منذ اعتصاب موظفى البريد الاول حيث رأينا الوزراء والبرلمان يخضعون صاغرين لمطاليب عصاة الموظفين .

وكذلك عامل الاضطهاد لا أحد يجادل فيه ، فاليه استند أكثر الوزراء فى دوام سلطانهم ، جاء فى إحدى الصحف الكبيرة : « استمر حكم (فالديك روصو) ثلاث سنوات بفضل القانون المضاد للمحافل الدينية ، واستمر حكم الموسيو (كومب) ثلاث سنوات بفضل القانون القائل باغلاق المدارس الدينية وطرد الرهبان ، و بقى الموسيو (روفيه) قابضاً على زمام الحكم بفضل قانون فصل الكنيسة عن الحكومة . »

و يمثل العامل الثالث وأعنى به النفوذ الاشتراكى دوراً عظيما ، فلقد تألفت من نظريات الاشتراكية — بفعل التلقين والتكرار والعدوى — ديانة ذات تعاليم أقل تسامحاً من المعتقدات القديمة ، وصار الناس حتى الذين لا يؤمنون بها مشبعين منها بدليل أنهم لا يجرؤون على مقاتلتها ، فكاننا اليوم فى دور مشابه لقرون المسيحية الاولى حين لم يتم لها النصر مع كثرة انتشارها .

أوجب نفوذ الاشتراكية سن كثير من القوانين الخطرة ، ومنها القانون القائل باشتراء خطوط الغرب الحديدية ، وقد أدخل كثير من الراديكاليين مبدأ ابتياع تلك الخطوط فى برنامجهم تملقاً للاشتراكيين ، ولما جاء وقت الاقتراع لم يتأخر الراديكاليون عن الاقتراع له غير مبالين بنتائجه السيئة التى أخبرعنها علماء الاقتصاد .

ونشأ كذلك عن مبادىء الاشتراكية كثير من القوانين التى أوجبت انحلال معتقداتنا الادبية وتجارتنا و بحريتنا وصناعتنا . ومنها قانون العمل فى المصانع الذى ألغى التخرج فحول كثيراً من التلاميذ الى أو باش .

ستستمر تلك العوامل على عملها ما دامت الطبقات القائدة مثابرة على خمودها وعدم مبالاتها ، وسيكون للعوامل المذكورة تأثيرها فى قانون ضريبة الدخل القائم تطبيقه على

مبدإ التفتيش ، وقد اقترع له مجلس النواب ، وهو الان فى مجلس الشيوخ تحت المناقشة . فعلى سنه أو رفضه يتوقف دوام النظام الجمهورى . ففرنسا وان تحملت كثيراً من الاستبداد لا تتحمل قانوناً كثير الجور كهذا القانون زمناً طويلا .

لا أحد يجهل أن تطبيق ذلك القانون ينكد حياة الافراد ، و إذا كان الامر كذلك فما هى الاسباب التى جعلت البرلمان يقترع لقانون مؤد الى زعزعة ماليتنا ؟ لقد أجبنا عن هذا السؤال سابقاً ، ولا يخلو تكرار ما سبق من فائدة .

لاستحسان ذلك القانون أسباب نفسية كثيرة : أولها وعيد لجان الانتخاب التى تصورت لجهلها سنن الاقتصاد إمكان فرض الضرائب على طبقة دون الاخرى ، ثم إن طريقة التفتيش الاميرى التى لا يطبق القانون المذكور بغيرها من أسباب وضعه ، ومن أسباب وضعه ميل الاشتراكيين الى الاطلاع على ثروات الناس كى يتسنى لهم عندما تكون الأكثرية فى جانبهم أن ينزعوا أموال المتمولين بقانون كالذى نزعت به أموال المحافل الدينية .

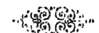
* * *

يتوقف مصيرنا على ما ستفكر فيه الشبيبة وتقوله وتفعله . ولقد وصلت هذه الشبيبة الى ميدان الحياة الاجتماعية فرأت أمامها معتقدات الماضى منحلة ودعائم المجتمع متداعية ، وهى لما لم تجد مثلا أعلى تدافع عنه وشاهدت سلسلة المراتب ونظم العائلة والملكية والوطن والجيش منثلمة اعتقدت أن كل مجهود عقيم . واعتقاد مثل هذا سيقضى على الاخلاق التى صبر بها الناس على الاضطهاد والعنف .

وقد حركت هذه الحالة شهوات الثور بين الذين لا تقاليد لهم والذين لا يفكرون فى سوى الساعة الحاضرة ولا يرون لهم مدار عيش فى غير نهب الثروات التى اكتسبها الاخرون بكد وعناء ، فسرعان ما يصبح التعصب للشر قوياً عند ما لا يقاومه التعصب للخير

ومع هذا كله لم تزل شبيبة الطبقة الوسطى خيرة أبناء الامة لقبضها على زمام العلم والصناعة والاداب والفنون . بيد أن الخيرة لا تبقى خيرة اذا فقدت أخلاقها . فلما أضاع خواص الأمة الرومانية فى العهد الاخير أخلاقهم المتينة لم يقدروا على مقاومة مطامع البرابرة المتصفين بعزم قوى فضاع سلطانهم

وعلى رغم ظواهر الامور لا تكون منازعات المستقبل عبارة عن منازعات اقتصادية فقط بل ستكون منازعات بين المبادىء وان شئت فقل بين المشاعر الناشئة عن هذه المبادىء أيضاً ، ومع أن المشاعر التى تتألف من مجموعها أخلاق الأمة لا تتبدل الا ببطء شوهد أنها تطورت فى غضون الاجيال عدة مرات . على هذا الوجه توصلت التربية الى تحويل ألمانيا فى أقل من قرن واحد . نعم إن معلمى المدارس لا يكسبون الحروب كما يقال أحياناً ، الا أنهم يقدرون على تكوين نفسية موجبة للهزيمة فيها .



الفصل السادس

المقادير الحديثة وتبديد المقادير

يستدل على مقادير الجيل بالبحث فى مبادئه الناظمة التى تسير عزائمه وتعين وجهته ، وأين نجد هذه المبادىء ؟ لا نجدها فى الجماعات والجماعات ذات شهوات لا مبادىء ، وهل يظفر بها فى أرباب القلم الذين يؤلفون الكتب ويلقون الخطب ؟ هؤلاء لا يعبرون فى الغالب عن غير المبادىء المسلم بها لاستهواء سامعى خطبهم وقارئى كتبهم

وعلى رغم صعوبة استنباط المبادىء السائدة لأحد الادوار قد يلم بها إلماماً تقريبياً عند الاطلاع على تعاليم الأساتذة المسموعى الكلمة ، فخطب أمثال الموسيو (لافيس) والموسيو (بيارلوتى) تنم على مايهتم به أدلاء الشبيبة فى الوقت الحاضر

لا شيء فى هــــذه الخطب يشجع أو يفرج الغم . فقد أوحت بها روح مشبعة من التطير ، ومما يرى فيها على الخصوص الأعتقاد بعدم فائدة المجهود وضرورة التسليم أمام الحوادث والقول بعجز العلم عن إماطة اللثام عن اسرار الكون المحيطة بنا ، ويظهر أن مذهباً مظلماً فى القضاء والقدر ران على قلوب أولئك المفكرين فى أواخر أيامهم مع أنهم كانوا مشبعين من أطيب الامال فى ريعان شبابهم .

وما يأتى به هؤلاء الاساتذة وأعضاء المجمع العلمى من نغمات فى القضاء والقدر يأتى بمثله أقطاب السياسة فى الوقت الحاضر ، ففى محادثة وقعت حديثاً قال رئيس الجمهورية السابق الموسيو (لوبه) : « إن سير الامور المقدر فوق عزيمة الرجال ، فهنالك منطق خفى حافل بالاسرار يقودنا . » وسنرى من أى العناصر يتألف سير الامور المقدر وذلك المنطق الحافل بالاسرار .

والموسيو (بيارلوتى) هو أكبر عضو فى المجمع العلمى استحوذ عليه الحزن ، فكأنه يكرر بلسان منسجم أنين سفر سليمان الخالد ، واكثر ما يعيب الموسيو (لوتى) به العلم هو عجزه عن ايضــاح الامور وتفسيرها ، ولا يعتقد هـذا الكاتب الشهير قدرة الانسان

على الدفاع عن نفسه أمام نوائب الدهر وحدثانه . فقد قال : « يتعذر الوقوف أمام التيار الجارف الذى يرمى الى خفض كل شىء حتى يصبح الجميع فى مستوى واحد . »

لست من القائلين بوقوع هذه المساواة ، فعندى أن الحضارة كلما تقدمت زاد التفاوت بين الناس فى مراتبهم الاجتماعية ، وقد بينت فى كتاب آخر أسباب هذا التفاوت التدريجى فذكرت أن المسافة بين افكار العالم وافكار الجاهل و بين عقل المهندس وعقل الصانع تزيد كل يوم . وما يقع من التسوية فبين الظواهر لا بين الرجال ، و إلا فكيف يستوى الربان الذى يقرأ فى النجوم الاتجاه الذى يجب على سفينته أن تتبعه خوفاً من الغرق والملاح الذى لا محالة غارق إذا ترك وحـــده ؟ فالتفاوت النفسى هو من المقادير المهيمنة التى لا يقضى عليها بأى استبداد

وماكان الموسيو (لافيس) أقل من الموسيو (لوتى) تطيراً وقولا بالقضاء والقدر فلما تناول الموسيو (ريمون پوانكاره) أنبه على تفاؤله قائلا : « يغيظنى أن أراكم معتقدين أن بضعة مبادىء قديمة بسيطة تكفى لقيادة الناس فى الوقت الحاضر . »

وأى المبادىء الجديدة يعنى الموسيو (لافيس) ؟ إنه لم يشر اليها لجهله إياها ، وقد بدا له منها طيف بعيد نخافه فقال : « إن الدولة والمجتمع فى خطر ، وقد أصبحت الديموقراطية مزيجاً من الغرائز والشهوات والخيالات لا تعلم ماذا تريد ولا تعرف كيف يكون حال المجتمع فى المستقبل ، وهى لما ضاق صدرها وحرك ساكنها بما يحدث من القوانين والنظم والعادات أخذت تدك معالم المجتمع الحاضر حتى آل كل شىء فيه الى السقوط ، وهكذا قرب الوقت الذى تقوم فيه الدول بالنفقات الحربيـة والنفقات الاجتماعيـة معاً وهنالك ضحى النهار . »

ألا يعلم هذا النبى الفاضل أن فى مخاوفه شيئاً من الباطل ؟ وهل نسى أنه وقع نظير تلك المعضلات فى جميع الأمم كأثينـا وروما وفلورنسا ؟ فلما تكررت المعضلات المذكورة عندها على وجه واحد أدت الى نتائج متماثلة فيها ، نعم إن البربرية بدلت اسمها فى أغلب الاوقات ، ولكن تجب مقاتلتهـا فى الداخل والخارج ثم إن هـذه المقاتلة من عوامل الرقى ، ولا تكون خطرة إلا إذا كان حماة النظام الاجتماعى يتوقعون الهزيمة سلفاً ، ولما كانوا يصيرون حينئذ الى الانكسار لا محالة فانهم يستحقون الهلاك .

قد يتم اتفاق مسالمى اللاتين واشتراكييهم وخربجى جامعاتهم فى بلاد « ضحى النهار » التى تخيلها الموسيو (لافيس) ولكن معنى ذلك استعباد اللاتين ونهب أموالهم من قبل الامم المجاورة الطامعة فى قبض المليارات و القضاء على مزاحمة المغلوبين.

تستند هذه الحقائق المؤلمة الى مطامع لا تحول دونها أحلام الخياليين، فهى التى حكمت العالم حتى اليوم وستحكمه الى الابد.

ولا تشاهد مناحى التطير و التسليم فى اولئك الناس وحدهم بل تناولت تعليمنا المدرسى أيضاً، فعندما لا يكون الاستاذ مسلماً قائلا بالقضاء والقدر ينضوى الى جماعة العصاة، على هذه الصورة أصبح كثير من الاساتذة فى الوقت الحاضر على رأس الاشتراكية الثورية

*
* *

مذهب القضاء والقدر تراث الماضى القديم و قد خلدته الفلسفة والاديان، فهو الذى بنى عليه كثير من الفرق البروتستانية وقام عليه مذهب (جانسينوس) القائل إن الله اختار من الازل أناساً للاحراق وآخرين للنجاة، و إذا كان المذهب الجبرى القائم على العلم الحديث يبرر فى الظاهر مذهب الاجداد فى القضاء والقدر فلالتباس بين المذهبين، فالجبرية العلمية تقول إن الحادثة بنت علل سابقة و إنه كلما عادت هذه العلل ظهرت تلك الحادثة من غير أن يكون لموجود علوى فعل فى ذلك، وقد عزا القدماء جميع القوى الطبيعية الى موجود علوى جهلا منهم ارتباط تلك القوى بعضها ببعض وطمعاً فى تغيير مجراها بأقامة الصلوات وقراءة العزائم.

ولنترك لعلماء مابعد الطبيعة أمر البحث فى نظرية الارادة لتعذر حلها، ولننظر الى الامر من الوجهة العلمية حيث ثبت أن مصدر القدر جهلنا الحقائق وأنه يتبدد عندما نعرف كيف نحلل العناصر التى يتألف منها.

*
* *

للمقادير ثلاثة أنواع : النوع الاول هو المقادير الطبيعية الثابتة كالهرم وحوادث الجو وسير الكواكب، فنحن و إن كنا لا نقدر على تبديلها نستطيع أن نعين سننها ونخبر عنها قبل وقوعها ونحافظ على أنفسنا إزاءها محافظة جزئية، والنوع الثانى هو المقادير

المتبدلة كالاوبئة والمجاعات التى كانت تودى بحياة ملايين من البشر ، فهذه المقادير تتبدد كلما تقدم العلم فحلل عناصرها وهاجم كل واحد من تلك العناصر على انفراد . والنوع الثالث هو المقادير المصنوعة . فالتاريخ حافل بهذه المقادير . وبما أن العلة بعد أن تكون تأتى بنتائجها بحكم الضرورة كان من الصعب مقاتلة المقادير المصنوعة . ويجب للسيطرة عليها مقاومتها بمقادير مصنوعة أخرى لا تقل عنا قوة . وهذا مايفعله أعاظم الرجال

يدلنا البحث فى تأثير العلم فى الحوادث — التى عدت سابقاً مقادير ثابتة — على الصورة التى تنحل بها بعض المقادير وتزول . فمنذ أربعين سنة كان كل امرىء يبتر عضوه فى مستشفيات باريس يرد مورد الهلاك فى بضعة أيام . وكان سكان مختلف البقاع يذهبون ضحايا الحمى الصفراء . وأما اليوم حين انحلت عرى هذه المقادير فقد ظهر أن المبتورين كانوا يهلكون بفعل بعض المكروبات وأنهم ما كانوا ليهلكوا لو كانت دوافع التعفن مستعملة ، وما قيل فى البتر يقال مثله فى الحمى الصفراء والطاعون .

وأمور مثل تلك كثيرة الى الغاية . فقداستطاع الهولنديون أن يتخلصوا من الطوفان بما بذلوه من الجهود الكبيرة ، وقد حولت بروسيا رمال (پوميرانيا) وتربة(براندبرغ) النفطية الى غابات جميلة وحقول خصبة .

٭
٭ ٭

يطبق ما قلناه فى بعض المقادير الطبيعية على المقادير التاريخية . فهذه المقادير على ما هى عليه من استعصاء عند اشتقاقها من روح الشعب وماضيه السياسى لا تتفلت من حكم الناموس القائل إن المقادير تتبدد بتحليل عناصرها .

وكل صفحة من صفحات تاريخنا تؤيد ذلك . فلو نظرنا الى حرب سنة ١٨٧٠ وحللنا جميع عواملها النفسية لرأينا أن هزيمتنا فيها كانت أمراً لا مفر منه وأنه كان يمكن أناساً من ذوى المدارك السامية أن يبددوا العناصر التى تألفت منها الهزيمة واحداً بعد الاخر قبل أن تصبح فى مجموعها ثقيلة ساحقة .

والأغلاط النفسية — وكذلك العجز عن التنبؤ بالمستقبل — مصدر المقادير المهلكة الثقيلة الوطأة على كثير من الاجيال . فقد نشأ عن أغلاط كتلك ومنها فقدان روح

التأمل والملاحظة وجهل مزاج اليابانيين النفسى انكسار روسيا ومايتبعه من نتائج ستحول مصير أوربا على ما يحتمل .

والمقادير المصنوعة — كمعاقرة الخمرة مثلا — كثيرة الى الغاية . ومع أن معاقرة الخمر عمت بيننا ولم يجند ربع المطلوبين للخدمة العسكرية بسبب عيوب هذا الربع التى انتقلت اليه بالارث عن آباء مدمنين ترانا عاجزين عن التأثير فى قدر المعاقرة تأثيراً شافياً . ثم إن الدولة مضطرة الى تشجيع الناس على تعاطى الخمر خوفاً من إحداث عجز كبير فى ميزانيتها

لاتلبث المقادير التى نوجدها أن تصبح من الاستعصاء بحيث يستحيل تذليلها. وقد أتى الموسيو (كروبى) وزير التجارة السابق بمثال مفيد على ذلك فبين فى كتابه الذى نشره حديثاً ما فى الخدم الادارية من الفوضى وأنه حاول تسيير أمورها كما يجب وأنه لم ينجح فى مسعاه لما بين الموظفين من خصام مستمر ولما فى التبعات من اختلاط وتشويش ولما فى القيادة من فقدان الوحدة الخ

لم يتوصل الموسيو (كروبى) على رغم السنتين اللتين ظل فيهما وزيراً للتجارة الى تبديل ذى بال . ومن يطالع كتابه ير أنه لم يقف على أسباب عجزه وقوفاً تاماً بدليل اقتراحه لمعالجة الحالة « تبديل مناحى الديموقراطية باصلاح نظام الانتخاب »

ولربما كانت المقادير العاطفية أشد المقادير خطراً من حيث نتائجها . فمن أجلها أصبح المذهب الانسانى الذى هو أحد مظاهر النصرانية المنحطة من أعظم ما بليت به فرنسا فى الزمن الحاضر ، فهذا المذهب هو الذى يأكل دعائم بنيانها الاجتماعى بما يوجبه من سن قوانين مؤدية إلى نشوب ثورات عنيفة وهو الذى جعل أولياء الامور يقررون دخول الاوباش فى سلك الجندية ولوكان دخولهم فيها مفككا لعرى الجيش وهو الذى يدفعنا الى المحافظة على مجرمى الاوباش فى سجون مشتملة على وسائل الراحة الحديثة .

يكثر عدد القتلة بفعل أنصار المذهب الانسانى حتى أصبح ثلاثة أضعاف ما كان عليه قبل بضع سنين ، وما كان القتلة الذين حرقوا ضحاياهم ليعدموا لولم يقع انفجار سخط فى الرأى العام . ولا شىء اكثر بلاء على الامة من فريق محبى الانسانية ، فمحب الانسانية ليس رجل تقدم بل هو رجل هادم لكل نشاط مانع لكل تقدم .

*
* *

اظن أن فائدة الاطلاع على علم النفس فى تذليل الاقدار أخذت تبدو . ففى حديث دار بينى وبين الموسيو (هانوتو) أحد وزراء خارجيتنا الافاضل صرح لى بأنه لا يرى شيئاً أكثر ضرورة من علم النفس للرجل السياسى فى أثناء قيامه بأمور وظيفته .

لا يعلم علم النفس أولى الامر كيف يحاربون الاقدار التى تقيد حياة الامم فقط ، بل يعلمهم أيضاً كيف يسيرون الحوادث . فقد استطاع أقطاب السياسة مثل ريشيليو وكافور وبسمارك والملك ادوارد أن يقودوا مجرى الامور وأن يذللوا مقادير التاريخ بفضل وقوفهم على أحوال النفس واطلاعهم على شأن مقتضيات الدين والاجتماع والاقتصاد .

ومع مافى الانسان من عجز عن تذليل المقادير الناشئة عن أحوال لا سلطان له عليها ينتفع بها الرجل المحنك كما ينتفع الربان بالريح على رغم اتجاهه . على هذا الوجه استطاع الالمان الذين رأوا زيادة الانتاج والمزاحمة الخطرة من الامور التى لامفر منها أن يوجدوا نقابات إنتاج ليحولوا بها دون وقوعهم فى الازمات الاقتصادية . وأما نحن فلعدم إدراكنا ضرورة التجمع الصناعى ترانا نقاتل بقوانين جائرة نقابات الانتاج التى يساعدها امبراطور المانيا .

وإذا لم ينتفع بالمقادير الصادرة عن سنن الطبيعة بل يحاول مناهضتها فانه تقع نكبات عظيمة تعانى الاجيال القادمة نتائجها زمناً كبيراً .

أشرنا الى حرب ١٨٧٠ آنفا وما كان عدد الفرنسويين الذين نسوا أمرها قليلا ، فقد بين أحد أساتذة دار المعلمين العالية فى جريدة الطان أن بعض الطلاب يجهلونها مع أنها لا تزال ذات تأثير فى أوربا ولا نزال نؤدى ٤٥٠ مليون فرنك فائدة على المليارات البالغ عددها خمسة عشر والتى اضطررنا الى إنفاقها فيها . ومن نتائج انكسارنا فى تلك الحرب إنفاقنا ثلاثة وخمسين ملياراً من الفرنكات إتقاء لشر هجمات ما فتىء جيراننا المنصورون يهددوننا بها منذ أربعين سنة .

ترى ما يوجبه رجال السياسة الغافلون الاغرار من بلايا ومقدار احتياج البلاد الى أعاظم الرجال الذين يعرفون كيف يقرأون المستقبل من ثنايا الحال ويذللون المقادير .

يعتبر كثير من الساسة فى دورنا النيابى أن السياسة فن الخطابة. ولو دقق هؤلاء فى الامر لرأوا أن النجاح القائم على الصيغ الطنانة لا يكون إلا مؤقتاً. فالخطابة المستندة الى الكلام بظرافة وطلاوة لا تتطلب معرفة الرجال والاشياء معرفة لازمة لاتخاذ المقررات الصائبة الفعالة السريعة كما أنها لا تطلب الى صاحبها جهوداً مستمرة ضرورية لدوام النجاح.

ولا يبصر الساسة الحاليون نتائج أعمالهم. فاذا كانت انكلترة تقاسى اليوم مصاعب جمة فى زيادة الضرائب التى لا بد منها لتقوية أسطولها إزاء الخطر الالمانى فلعجز ساستها عن كشف المستقبل. إذ رفض هؤلاء أن يوافقونا بعد الحرب الفرنسوية الالمانية على عقد مؤتمر يحدد مطاليب ألمانيا و يغير سير المستقبل. وقد كان (بسمارك) يرى انعقاد مثل هذا المؤتمر كابوساً فكان يفكر فى أمره صباح مساء كما قال فى مذكراته، لانه كان يعلم أنه « يحرمه ثمرة انتصاراته »، ولو تم انعقاد ذلك المؤتمر لادى الى نتائج كنتائج مؤتمر برلين الذى عقد بعد بضع سنوات فأكره الروس المنصورين على الترك على التخلى عن البقاع الطامعين فيها، حقاً ما كان المؤتمر المذكور لو عقد ليترك دولة تخل بالتوازن الاوربى على رغم انكسارنا. وهل كان من مصلحة انكلترة والنمسا و روسيا أن تقوم دولة عظيمة فى وسط أوربا ؟.

أصبح مصير الامم اللاتينية مشكوكا فيه بسبب المدد القصيرة التى يقبض فيها رجال السياسة على زمام الامور والتى تجعل هؤلاء لا يفكرون فى سوى الساعة الحاضرة غير مبالين بالمستقبل، فسياسة لا تبالى بغير الحال هى سياسة منحطة موجبة لاسوإ العوارض.

ولا يكون النجاح فى عالم السياسة الا ببعد النظر والتطلع الى المستقبل. و إنا نتخذ تأسيس البلجيك لمستعمرة الكونغو مثالا بارزاً على بعد النظر : كانت حالة أفريقيا مجهولة منذ أربعين سنة فأخذ عدد من الرواد الجسورين يكتشفونها. وقد كان على رأس البلجيك آنئذ ملك ذو بصيرة واسعة فأدرك أن آسيا ستتخلص من ربقة الاوربيين وأن مستقبل هؤلاء فى أفريقية فشرع فى تأسيس أمبراطورية فى أواسطها لم تلبث أن صارت مساحتها لا تقل عن مساحة نصف روسيا وأضحت عاملا كبيراً فى غنى البلجيك.

☆

☆ ☆

أرجو أن يكون القارىء اكتسب من مطالعة ما تقدم فكراً فى المقادير غيرما أخذه عن الكتب ، فما نشأ منها عن إهمال الاجداد يمكن تذليله بفضل العزم والارادة . ومن دواعى الاسف أننا لا نزال نخلق مقادير مصنوعة سيكابد أولادنا نتائجها السيئة . وإلا فهل فى دعوة الناس الى المبادىء اللاوطنية والمبـادىء القائلة بالفوضى وعدم التجنيد وصبرنا على عصاة الموظفين وتكديسنا قوانين مضرة بالصناعة ومنح أساتذة المدارس طلابهم تربية منحطة مادة ومعنى — هل فى هذه كلها غيرما يؤدى الى أسوإ النتائج ؟ وهل يذهب سدى حقد الشبان على الافضليات التى بها عظمة الامة وعدم المبالاة بجلائل الامور والتسليم الاعمى وروح الازدراء والوقيعة وفقدان الادب الناظم للعزائم ؟ من أجل ذلك كله نتحدر وترتفع ألمانيا التى تسلك سبلا غير سبلنا .

ومما هو شديد الخطرأن يتبع شعبنا طريقاً لحمته الثورات وسداه الفوضى . فقد انحصر شأن زعمائنا الان فى حماية العجز وقلة النظام ومطاردة صفوة الناس مطاردة عمياء والسعى وراء المساواة فى البؤس وضنك العيش والاستيلاء على الثروات التى هى عماد العمل وإيقاد نار الحسد والشهوات فى القلوب .

وفى أثناء تجمع هذه العلل فى الانقراض ترانا نتغاضى عن نمو جيش من الثوريين المتعصبين الذين لم يتصفوا بشىء من التقاليد والمبادىء وحسن الضمير والذين لا يسعون فى غير قضاء شهواتهم وتنفيذ رغباتهم فى الهدم والتخريب . ولا نقابلهم بغير شكوكنا الشاحبة وعدم اكتراثنا وتسليمنا المزرى ، وكلما زادوا وعيداً زدنا خضوعاً . وهكذا قرب الوقت الذى لا يرتج فيه ميزان القوى .

☆
☆ ☆

وإذا قدرت بهذا الكتاب أن أثقف بعض النفوس فالجهود الكبيرة التى بذلتها فى وضعه لم تذهب عبثاً . على أنى لم أذكر فيه فى الغالب سوى حقائق بسيطة يقدر كل واحد على استنباطها بعد إنعام الفكر وحسن التأمل . وقد أخذت الامم التى كانت خلفنا فى الماضى فسبقتنا فى الحال تطلع عليها بدليل ما يجىء فى بيانات قادتها . ويمكن الوقوف عليها فى خطبة القاها فى كلية (الصوربون) فى ٢٤ نيسان سنة ١٩١٠ المستر(روزفلت) أحد مشاهير رؤساء جمهورية الولايات المتحدة . فهو أيضاً بين خرق مبادىء المساواة

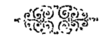
وخطر المذاهب الاشتراكية وأفضلية الخلق على الذكاء فى الحياة وحقائق أخرى غيرها .
واليك بعض ما جاء فى خطبته :

« يجب أن لا ننسى أن حدة الذكاء مهما كثرت والثقافة مهما سمت والرشاقة مهما علت لا تسد فراغاً يقع فى صفات الخلق الاساسية . والصفات الخلقية التى تقوم عليها سيادة الامة هى ضبط النفس والرزانة وتحمل التبعات والميل الى الاتحاد والحزم والشجاعة . فاذا ضعفت هذه الصفات عجزت الامة عن سياسة نفسها وعن منع الامم الاجنبية عن التدخل فى شؤونها .

« ولا نبالغ اذا قلنا إن الاشتراكية مؤدية الى الهدم والتخريب والى عدد غير يسير من الشرور والظلم وفساد الاخلاق . وعلينا أن لا نكذب فنقول إن الناس متساوون بعد ان علمنا أن المساواة لا وجود لها .

« لقد تأسس فى الماضى كثير من الجمهوريات ثم انقرضت بفعل انقسام أبنائها الى فقراء وأغنياء وسعى كل من الفريقين فى القبض على زمام المصير . وكلما كان يمعن أحدهما فى بغض الاخر والاخلاص للنظام الجمهورى فقط كان أجل هذا النظام يدنو »

هذه حقائق ما فتئت أبينها منذ سنوات كثيرة ، فيجب تكرارها لترسخ فى النفوس . إذ قلما تسيغ النفوس المبادىء لمجرد بيان صحتها وانما تهيمن عليها بعد أن تدخل بفعل التكرار فى أعماقها حيث تنضج بواعث السير والحركة .



الفصل السابع

الدفاع الاجتماعى

تشاهد الفوضى والمنازعات الاجتماعية فى الامم التى تحاول أن تقطع صلاتها بالماضى ففقدت بذلك قرار مزاجها النفسى

نعلم أن روح الامة تتألف من شبكة من التقاليد والمعتقدات والمشاعر العامة والاساطير التى ثبت أمرها بفعل الوراثة. فهذه هى الروح التى تعين على شكل غير شعورى وجهة أفكارنا واتجاه سيرنا وبفضلها تفكر الامم تفكيراً متماثلا وتسير سيراً متشابهاً فى طرق معاشها الاساسية.

ولا يستطيع المجتمع البقاء مالم يكن ثابت الاركان بثبوت ما يقوم عليه من روح قومية، ولا تلبث الامة التى ظلت متبربرة حتى اكتسبت روحاً قومية أن ترجع الى طور الهمجية عندما تنحل هذه الروح فيها، فلما فقدت روما روحها الوطنية فقدت نفسها، وقد احتاج الفاتحون الذين أقاموا سلطانهم على انقاضها الى قرون كثيرة لاكتساب روح وطنية يخرجون بها من ظلمات التوحش

واليوم ترانا فى أحد أدوار التاريخ الخطرة حيث تزول بالتدريج المعتقدات الدينية والسياسية والخلقية التى تتعين بها وجهة أفكارنا وسيرنا من غير أن يتكون ما يقوم مقامها بعد، ومن الامور الرهيبة أن تتلاشى آلهة الامة. فأذا أمكن أن يكون قليل من الناس لا أدريين يتعذر ذلك على الجماعات التى تحتاج على الدوام الى مثل أعلى يفعم قلوبها بالامال

نعم قد تتبدل الالهة أحياناً ولكنها لا تموت أبداً، إذ لا يمر وقت قصير حتى يحل معتقد جديد محل المعتقد الذى بلى بفعل الدهور، واليوم أوشكت تعاليم الاشتراكية أن تقوم مقام التعاليم الدينية، وهى تستمد قوتها من قدرتها على الاتصال بسهولة بالمعتقدات الموروثة، فالحكومة المهيمنة من مظاهر الالهة القديمة التى كان يؤمن بها أجدادنا، وإلا

فهل من فرق بين الجنة التى يحلم بها الاشتراكيون وبين الجنة التى ورد ذكرها فى أساطير الاولين ؟

لا فرق بين الجنتين ، فالامم المؤثلة لا تكون ذات معتقدات غير التى ورثتها وإن اختلفت أسماء هذه المعتقدات ، والمشاعر التى اقتضى ثباتها فى النفوس أجيالا كثيرة لا تزول فجأة .

لتلك العلة نرى الديانة الاشتراكية التى هى وارثة الديانة النصرانية تدخل فى نفوس الجماعات وتملأ قلوب البسطاء بما لا تمنحهم إياه الالهة الشائخة من أمل وما لا يقول به العلم من وهم وخيال .

ويحمل رسل الاشتراكية حقداً شديداً على المذاهب القديمة . فرجال الاكليروس والاشتراكيون والفوضويون الخ مظاهر متقاربة لمنزع واحد . وترزح روحهم تحت أثقال أوهام متماثلة ، وهم لما بين مزاجهم النفسى من وحدة يعبدون موجودات واحدة او يقضون حاجات واحدة بوسائل قليلة الاختلاف .

ولو كان ناشرو الديانة الاشتراكية يكتفون بنشر تعاليمهم سلمياً لما كانوا شديدى الخطر ، ولكن ما العمل وهم يشاطرون جميع الرسل أسلوبهم فى إكراه الناس بالقوة على اعتناق مثلهم الاعلى الذى يعتقدون أنه سيجدد البشر

والحقد الذى يوحى به المجتمع الى النفوس التى استحوذ عليها خلق التدين الموروث ينتشر بين العمال بسرعة ، ومع أن هؤلاء هم اليوم أسعد حظاً منهم فى الماضى يصبون اللعنات على النظام الحاضر كما كان يصبها النصارى الاولون على العالم القديم الذى قضوا عليه فى آخر الامر

٭
٭ ٭

ومع ما فى الهجوم على المجتمع من شدة نرى الدفاع عنه ضعيفا كالدفاع الذى دافع به عبدة الاصنام ضد الديانة المسيحية أيام انتشارها ، فاليوم لا يعتقد الخواص — كما كانوا لا يعتقدون وقتئذ — متانة المبادىء القائم عليها نظام المجتمع ، وهم لضجرهم من المؤثرات الموروثة ومن مقتضيات الزمن الحاضر يظهرون بمظهر المجرد من عزم قوى

والمهيأ للعمل بآراء العامة . ولما كانت هذه الاراء متحولة الى الغاية تحدث أقل الحوادث فيها انفجارات سخط وغضب وحماسة .

و بما أن أولياء الامور لا يتصفون بمبادىء تحول دون تذبذبهم النفسى و ليس لديهم مصباح يتخذونه دليلا على سيرهم يسيرون وراء الجماعات بدلا من أن يسيروها . وهكذا يفقد خواص الامة نفوذهم بالتدريج حتى لا يبقى لهم منه شىء .

والذى ينشر المبادىء المعـــبرة عن غرائز العوام والتى ترمى الى خراب المجتمع هم أشباه المجانين الذين نعتهم بالزعماء والرسل . فهؤلاء على العموم قليلو العقل ولكنهم كثيرو العناد مستعدون للتضحية بمنافعهم الشخصية فى سبيل نصر المبدإ الاسمى الذى ران على قلوبهم . وهم لو عدهم الجوع جنات ساطعـة ذو وتأثير كبير فى روحها ، فالجنـات هى الامل والامل اكبر باعث للحركة على الدوام

والرسل لما نومتهم خيالاتهم ينومون الجماعات و يدفعونها الى اقتحام جميع المصاعب بسرعة ، و لم يتغير مزاج الجماعات النفسى فى غضون القرون ، فالذكاء و إن قـدر على التحول لا يقدر على تبديل المشاعر والاهواء التى هى أدلاء الناس الحقيقية .

ومن بواعث الحزن أن الرسل لا يفلهم غير الرسل و أن رسل الفوضى كثيرون مع ان رسل النظام قليلو العدد ، فالوهم يستهوى الافئدة وأما الحقائق الباردة فلا توقد نار الحمية فى أحد ، ثم إن بذر الاوهام فى النفوس أسهل من بذر الحقائق فيها ، فأذا قلتم للعمال إن رب العمل سارق جدير بأن يحرق مصنعه فسرعان ما يصدقونكم ، ولكن إذا بينتم لهم انه مكره على خفض الاجور لان أبناء النوع الاصفر فى آسيا يصنعون مثل منتجاتكم بثمن أرخص منها لا يسمعون

فالاوهام هى التى قلبت العالم حتى الان ، وقد زال كثير من الدول العظيمة بفعل بعض المبادىء العاطفية التى تبدو لنا اليوم تامة البطلان ، فلا نأمل أن يكون للعقل فى المستقبل شأن أكبر من شأنه فى الماضى ولنهيء نفوسنا لمعاناة سلطان الاوهام القاهر ، فالاوهام بعد أن ترسخ فى النفوس شيئاً فشيئاً يستمر رسوخهـا زمناً طويلا ولا أحد يقدر على التنبؤ بمدى تخريبها .

✩
✩ ✩

بينت فى فصل سابق ان مظالم الثورة الفرنسوية نشأت عن بعض المبادىء الفلسفية التى جعلت الشعب يعتبر غريزة البربرية الاولى الراقدة فى أعماق قلوب أفراده أساساً لحقوق جديدة ، وقد ظن الناس فى أيامها انهم يسيرون بنور العقل مع أن الواقع يدل على انهم حاربوا العقل وأن غرائزهم الموروثة لما تحررت من كل رادع أصبحت دليلا لهم ، و إنا لنعد دور الهول عنوانا لاحط الغرائز ، فالهول كناية عن هيمنة الغريزى على العقلى لا عبارة عن سيطرة العقلى كما تصور رجاله ومؤرخوه

ولم يكن الانتصار على الغرائز الموروثة إلا حديث العهد فى التاريخ ، فما كانت مساعى المجتمعات الا لردع الغرائز الطبيعية الحيوانية بقوة التقاليد والعادات والقوانين ، ومن الممكن أن نسيطر على هذه الغرائز ولكن من غير أن نقضى عليها ، ومن السهل أن تظهر ثانية بفعل بعض المحرضات كالاشتراكية مثلا .

حقاً ليست حركات الشعب الكبيرة بنت العقل بل هي فى الغالب عبارة عن نضال ضد العقل . ومن يحاول أن يوضح بالمنطق العقلى ما صدر عن منطق الغرائز يحكم على نفسه بأن لا تفقه شيئاً من التاريخ . وما كانت الحركة الثورية فى الوقت الحاضر سوى عودة الى حكم الغرائز الوحشية التى تميل الى تقويض دعائم المجتمع ، فما عده ذوو النفوس التى أعمتها الاوهام من الرقى إن هو إلا رجوع الى طرق المعايش المنحطة .

وتستلزم كل حضارة شيئاً من الضغط والقسر . ولا تكون الامة متمدنة الا إذا عامت كيف تتحمل هذا الضغط والقسر . فلولا الروادع الاجتماعية القوية لما خرجت الامم من طور الهمجية . وهى تعود الى ذلك الطور عندما تضعف تلك الروادع .

ولا تبقى الروابط الاجتماعية التى هى وليدة الحضارة الا بجهد مستمر . ومن عوامل الانقراض الكبيرة أن يعدل أبناء الامة عن الاستمرار فى الجهد ، وقد فشا هذا العجز بين طبقات الامة المتعلمة ، فهى تلقى سلاحها أمام المصائب الاجتماعية كما كان يلقى أمام الاوبئة التى تغلب عليها العلم فى آخر الامر .

والشك الذى هو علة ضعفنا لم يتطرق الى الرسل الثوريين ، فاعتمادهم على نجاحهم هو من عوامل قوتهم ، ومع أن العمال صاروا على شىء من السعادة والهناء جعلهم المتمذهبون يعتقدون بفعل التكرار أنهم سيئو الطالع ، ولما أخذ مزاج العمال النفسى يعود بالتدريج الى حظيرة الغرائز الاولى أوشك هذا المزاج أن يصبح كمزاج الهمج النفسى

ولا يسهل إرجاع العامل الى طور الحضارة ، فيجب لذلك إثبات قيمة الذكاء ورأس المال والعمل له وجعله يرى شقاءه فى النظام الاجتماعى الجديد الذى رسم له ، ولكن أين السادة القادرون على إرشاده الى هذه الامور ؟

*
* *

يجب على أبناء الطبقة الوسطى أن يتوكلوا على أنفسهم لا على الجامعة العارية من المبادىء الناظمة ولا على الحكومة التى لا قوة لها وأن ينظموا صفوفهم كما وقع فى بلاد السويد للدفاع ضد تمرد طبقة العمال . وقد حنكت التجارب حكومة السويد فعلمتها أن حق الاعتصاب الذى يسمح لاقلية عاصية بأن تقف جميع مصالح البلاد العامة وأن تبذر بذور الفوضى بين الناس لا يلائم تقدم الحضارة وجعلتها تعرض على البرلمان لائحة قانون العقود المشتركة ومجازاة كل اعتصاب يكون كارثة على البلاد بأشد العقوبات وتأسيس محكمة تحكيم لتفصل كل اختلاف يقع بين العمال وأرباب العمل . فلوكان لنا نظير هذا القانون ما وقع عندنا إضراب موظفى البريد وإضراب الملاحين الذى أوشك أن يقضى على بحريتنا التجارية .

وقد أخذت التجارب تجعل أولياء الامور فى فرنسا يفكرون فى القيام بمثل تلك الحركة . ولكن ينبغى أن يطرأ بعض التعديل على مزاجنا النفسى قبل أن يسن مثل القانون المذكور ، ولا ننكر أن تردد طبقتنا الوسطى ولدونتها يمنعانها من التفكير فى الدفاع عن نفسها ، غير أن شدة مهاجمتها قد تحملها على ذلك ، قال الموسيو (جورج صوريل) : « عندما يرى أرباب رؤوس الاموال أنهم لا يكسبون شيئاً من سلوكهم سبيل السلم الاجتماعى والديموقراطية ويعلمون أنه لم تحسن نصيحتهم يلتجئون الى ما كان لهم فى الماضى من همة ونشاط ، فطبقة العمال وحدها هى التى تلجىء طبقة المتمولين الى الشدة فى النزاع الصناعى . »

ومن يود أن يعيش فليبق قوياً ، ففى الطور الذى دخل العالم فيه حديثاً لا يستطيع أحد أن يحافظ على شىء لا يعرف كيف يدافع عنه وعلى طبقتنا الوسطى أن تتحلى ببعض الفضائل وأن تعدل عن بعض النقائص إذا أرادت الظفر فى المنازعات التى يتفاقم أمرها .

فالافراط فى التلذذ بالنفائس والكماليات التى يعتقد العامل أنها من جنى عمله تورثه حقداً لا يورث مثله جميع الخطب الاشتراكية .

وإذا قايسنا بين طبقتنا الوسطى وبين طبقة الارستوقراطيين الانكليزية فى الحال وطبقة الارستوقراطيين الفرنسوية القديمة رأينا طبقتنا الوسطى تشيخ بسرعة وأنها لا تظل باقية الا بفضل ما تتقوى به من العناصر التى تستمدها من الطبقة الدنيا . ولا نعجب من ذلك كثيراً ، فالطبقات الارستوقراطية القديمة لم تدم الا بفضل حقوقها الموروثة التى لا تحتاج الى اتصاف صاحبها بأية أفضلية ، وهى بعكس أرستوقراطية الذكاء التى لا يستقيم أمرها إلا بأفضلية فى عقل أفرادها . ولما كانت نواميس الوراثة ترجع ذرية خواص الامة الى المثال المتوسط — كما بينت ذلك فى كتاب « سر تطور الامم » — تضطر طبقة الخواص الى الاستعانة بالطبقة التى تليها .

إذاً فالطبيعة مسوية أحياناً . ولكن لا كما يحلم الاشتراكيون . فالطبيعة تعيد ذرية صفوة الناس الى حظيرة المساواة فى المستقبل ، وأما الاشتراكيون فيودون التسوية بين الناس فى الحال .

☆

☆ ☆

يظهر أن روح الدفاع لا تتكون اليوم فى الصفوف العالية من الطبقة الوسطى بل فى صفوفها الدنيا كأصحاب الدكاكين وصغار الباعة . فقد أدرك هؤلاء الذين كثر تهديدهم وقل الدفاع عنهم ضرورة اعتمادهم على أنفسهم فأخذوا ينظمون شؤونهم للقيام بأعباء النزاع ، وهم الان ينتسبون الى النقابات ويؤلفون الجمعيات ويعزمون على تأسيس كتائب لتحميهم مقتدين بالمثال الذى ضربته بلاد السويد .

ولا يختص ذلك بغير الدفاع المباشر ضد المظالم . ويكون أكثر أهمية لو كان قائماً على بعض المبادىء الثابتة القادرة على تسييرنا وإنارة السبل لنا وسط الفوضى التى تأكلنا وعلى دفعنا الى المناضلة ضد القوى التى تقوض بالتدريج أركان البنيان الاجتماعى .

ومبادىء ثابتة كتلك هى التى تعوزنا . ومن يطالع الصحف يطلع فيها على حوادث هى عنوان لاحوال نفسية ستلقى العجب فى رجال المستقبل ، فما أسخف ماقام به المتظاهرون

الذين حالوا مع نائبهم دون سير قطار (فيلنوف لروا) السريع طمعاً فى إكراه الشركة على إنشاء محطة لهم !

☆
☆ ☆

وحينما يصبح ازدراء القوانين أمراً عاماً و يزول مبدأ السلطة و يضمحل النظام الذى عليه تقوم الحضارة يدنو الوقت الذى يدك فيه المجتمع من أساسه . ولا شىء جدير اليوم بالاحترام غير القوة ، فالموظف غطريس أمام رؤسائه والملاح أمام ربانه والعامل أمام مستصنعه . وكذلك السلطات القديمة تفقد كل يوم مكانتها ، فالقضاة لا يقضون بالعدل ويحمون ذوى الثراء من اللصوص والحكومة لا تحافظ على أبناء الوطن ضد ذوى العنف والقسوة وهى لا تظهر نشاطاً فى سوى اضطهاد الرهبان ونزع أموالهم من أيديهم

تلك حضارة تتداعى وماض مجيد ينطفىء . وقد ظهر نظير تلك الحوادث فى أواخر عهد (الديركتوار) بعد فوضى استمرت عشر سنوات ، نعم قد كفت يد نابليون الحديدية لاعادة النظام ، ولكن تلقاء كثير من الضحايا ، وهل نحن فى حال يمكننا أن نعود فيها الى القيام بمثل تلك التجارب ؟

إذاً أين الوازع ؟ وشطر من نولى وجهتنا ؟ لنولها شطر أنفسنا لا شطر رجال الحكومة والمشترعين ، وماذا يفعل هؤلاء الحكام والمشترعون الذين أضاعوا حريتهم ومنزلتهم وقوتهم ؟ إنهم لا يفكرون فى غير إطاعة رغائب اللجان إطاعة العبد لمولاه .

وقد بين الموسيو (ريمون بوانكاره) حديثاً أن النائب الذى يكون فى بعض الاحيان متكبراً أمام البرلمان ليس سوى سمسار « لا يخطو خطوة من دون أن يسمع خشخشة قيود استعباده » ولا يتأخر طرفة عين عن « الركوع أمام سلطان لجان الانتخابات . »

وعلى ذلك فالنائب الذى انتخب فأصبح لا يبالى بغير تجديد انتخابه وصار لهذا الغرض ينقاد لاحط غرائز الجموع هو بالحقيقة خطر على المجتمع .

☆
☆ ☆

ومن اللغو أن لا نعترف بأن العوام هم الذين بيدهم مقاليد الامور ، والعوام لما كانوا

يجهلون منافعهم الذاتية وقد استحوذ عليهم الحسد لا يحلمون بغير الاستيلاء على الثروات التي هي بنت الذكاء و إلغاء جميع الافضليات، وقد بلغ بهم الامر مبلغاً جعلهم يطلبون نزع رؤوس الاموال التي لا تترقى أية صناعة بدونهـا ، وها أن ماليتنا تتقهقر بتأثيرهم كل يوم الى الافلاس . وسيكون التاريخ قاسي الحكم على الارقاء الذين يتبعون مثل أولئك السادة من غير أن يسعوا فى تنوير بصائرهم .

يظن عباد الحكومة الشعبيـة أنهم يجددون المجتمعات بالقوانين و يؤسسون المساواة و ينزعون الاموال من يد أصحابهـا . وقد بينا بطلان هذه النزعات التي يسعى اليها مشترعونا بلا مال ، فمساعينا فى تبديل السنن الطبيعية المقـــدرة و إقامة المساواة مع أن الطبيعة تفرض التفاوت علينا هي فى ضررها كسعي رب المصنع الذى يود أن يخرق نواميس الحكمة الطبيعية والميكانيك .

☆
☆ ☆

والبحث هنا فى القواعد الادبية التي ســتدير مجتمعات المستقبل لا يجدى نفعاً ، فالواجب يقضى علينا بأن نهتم على الخصوص بدرس القواعد السائدة لنا و وسائل دوامها و كيفية الوقوف حيال الفوضى .

ليس من الضرورى أن تكون المبادىء الناظمة القادرة على قيادة الشعب كثيرة العدد إذا كانت متينة محترمة . فقد ظلت عبادة روما التي كانت مثل الرومان الاعلى سر عظمة روما حتى اليوم الذى وهنت فيه هذه العبادة .

ونحن كذلك يجب ان نبذل جهودنا فى الدفاع عن المبدإ الوطنى الذى هو عنوان نظامنا الخلقى ، وقد أخذ هذا المبدأ فى فرنسا يدك بفعل أكثر الاشتراكيين الذين يعلمون أنه — وهو قطب البنيان الاجتماعى — إذا انهار فانه ينهار البنيان الاجتماعى دفعة واحدة .

و يتفرع من المبدإ المذكور كثير من المبادىء ولا سيما المبدأ القائل إن الامة لا تعيش من غير جيش وسلسلة مراتب واحترام للسلطة وتهذيب نفسى ، وليس لدينا حزب ينكر هـذه المقومات حاشا حزب الثوريين . فالاحزاب جميعها تبتغى دوام البلد الذى تعيش فيه .

إن حب الوطن هو الملاط الاجتماعى الحقيقى الذى لا قوة للامة بغيره . والوطن هو عنوان تراث القرون السالفة . ولما كنا لا نقدر على العيش بدونه فلنعش لاجله . وما حبب زعماء الانقلاب التركى الحديث انفسهم الى الناس الا لدعوة الناس الى عبادة الوطن . جاء فى أحد بياناتهم : « أن الوطن عند كل إنسان له ضمير حتى أقدس من الابوين وأعز من كل شيء فى العالم . »

ومن دواعى الاسف أن عبادة الوطن التى قامت عليها عظمة روما وتساعد ألمانيا على الضرب بسهم كبير فى الرقى أخذت تضعف فى بلادنا ، وهى تنتشر بين الطبقات المتعلمة فى ألمانيا وفى اميركا بواسطة الجامعات وبين طبقات العامة بواسطة صغار المعلمين ، فهل نعتمد فى فرنسا على الاساتذة والمعلمين ليأتوا فيها بمثل هذا ؟ ذلك ما لا نراه .

وإذا كان المعلمون ينضمون الى النقابات التى تدعو الناس الى الحقد على الجيش ومقت الوطن فماذا ننتظر من الاجيال التى تم تهذيبها على يدهم ؟ ومتى يجحد الناس وطنهم ويعصون قوانينه فالى أى الدعائم يستند المجتمع ليبقى حياً ؟

تلك هى الحقيقة ، ولا يصبنا تعب من تكرارها ، فالاشتراكيون يكررون بيان مبادئهم التى تكفر برأس المال والنظام الحاضر ، وقد استطاعوا بفعل التكرار أن يقنعوا الجماعات بصحة نظرياتهم ، حقاً لا ترسخ الحقيقة فى القلوب الا إذا كررت كثيراً ، فلو كان المدافعون عن المجتمع الحاضر مشبعين من إيمان متأجج كايمان الثوريين وكانوا ينشرونه بهمة كهمة هؤلاء لانكسر هؤلاء بسرعة .

ولقد دنت الساعة التى يجب على كل واحد من حماة المجتمع الحاضر أن يصير فيها رسول دفاع عن البيان الاجتماعى ضد بربرية الاشتراكيين المخربة ، فلسوف يؤدى انتصار هؤلاء الى الافلاس العام والحروب الاهلية وغزو الاجنبى البلاد ، وقد أصبح الدفاع عن الوطن ومحاربة الفوضى وظيفة يجب أن لا يتملص منها أحد .

وتكفى القواعد الادبية التى تشتق من مبدإ الوطن لاقامة بنيان الامة الاجتماعى ، وتتوقف قوتها على درجة تأثيرها فى النفوس ، فأذا اقتصر استنادها الى القوانين وحدها كانت ضعيفة

وليست الدساتير والنظم والاساطيل والجيوش هى التى توجب التحاماً بين أجزاء

الامة وتمنحها عظمة . فقوة الامة الحقيقية فى مثلها الاعلى ، فالمثل الاعلى مع خفائه هو الذى يوجد الاشياء المنظورة و يقود النفوس ، والامة لكى تنال مثلا أعلى تجد قروناً كثيرة وتقع فى طور الهمجية عند ما تفقد ذلك المثل

* * *

وأشد عوامل الانقراض تأثيراً فينا هو انحطاط الاخلاق . وقد كثر اليوم عدد الخواص الذين ضعف خلق النشاط فيهم على رغم احتياجهم الكبير اليه فأصبح التردد والتنعم سائدين لهم .

وأما الثوريون المتعصبون الذين منحهم تعصبهم نشاطاً فشديدو الخطر ، وتنحنى العزائم الضعيفة أمام عزمهم القوى ، ولم يبلغ خطرهم المبلغ الذى سيناله فى المستقبل ، فالمجتمع الذى يسعون كل يوم فى تقويض أركانه لا يزال قائماً بفضل التقاليد الاجتماعية المنتقلة عن الماضى

ويظهر أن الاموات وحدهم أصحاب التأثير فينا ، ولن تدوم معونتهم لنا ، فسلطان الماضى لا يبقى الا إذ رآى له فى الحال معيناً ثانياً

* * *

نرى بعد بياننا الطويل أن نطرق باب الاستنتاج ، وسنفعل ذلك بايضاحنا أن الحوادث الطبيعية والحيوية والاجتماعية تابعة لضرورة مهيمنة .

إن عالم المعرفة اتسع أفقه منذ نصف قرن ، وقد أضيفت الى الاكتشافات التى وقعت فى أثناء هذه المدة نظريات لتفسيرها ، ثم إن العلم الحديث يعدل عن اكتشاف عنصر ثابت فى العالم وعلامة لاتتبدل بتعاقب العصور ، فكل شىء يتلاشى فى نظره حتى إن المادة التى ظن أنها خالدة خسرت أبديتها ، وهكذا يقوم التقلب مقام الرسوخ والقرار

ومن المتعذر اطلاعنا على علة علل الاشياء ، وانما الذى نستطيع معرفته هو ارتباط الحوادث بعضها ببعض ، وقد هدت التجارب (بوانكاره) الى النتيجة الاتية البعيدة الغور وهى : « أن كل حقيقة فى عالمنا النسبي كذب و إفك . »

والعلم بتركه الشروح البسيطة أقام مقام السنن العامة الكبيرة عللا صغيرة كثيرة الى الغاية ، وقد علمنا أن العالم الطبيعى والعالم الحيوى والعالم الاجتماعى من صنع ذاتيات صغيرة وأن هذه الذاتيات لا عمل لها مادامت منفردة وتكون شديدة القوة عند انضمام بعضها الى بعض ، على هذا الوجه قامت البلدان وتشكلت الامصار وطلع النبات وبقيت الحياة وشاد البشر صرح المدنيات .

والعلم ببيانه شأن كثرة العلل وانضمام بعضها الى بعض فى تكوين الحوادث وتطورها أثبت أيضاً أن الذاتيات المختلفة من ذرات طبيعية وخليات حيوية تبقى لاتأثير لها إذا لم تؤلف قوى ناظمة بين أعمالها

وفى نظرنا الى عناصر الدائرة الطبيعية أو الى عناصر الدائرة الحيوية أو الى عناصر الدائرة الاجتماعية نرى القوى الناظمة ضرورية لتعيين وجهتها ، ومتى لاتؤثر هذه القوى فى تلك العناصر تصبح العناصر المذكورة غباراً لا اهمية له ، فالقوة الناظمة لخليات ذوات الاعضاء هى الحياة ، وحينما تقف الحياة يجيء الموت ، والامر كذلك فى أفراد المجتمع

والقوى الناظمة للدائرة البشرية هى المعتقدات والمثل الاعلى الخ ، فهذه القوى وإن استطاعت أن تغير اسمها لاتموت ، وقد احتاجت كل أمة فى أدوار التاريخ جميعها الى المعتقد والسيف والعلم والخيال ، فأذا حرمت احدى هذه القوى الناظمة وخضعت لقوى مذبذبة ذات أهواء وردت مورد الهلاك

ويشبه شأن ولاة الامور فى سياسة الامم شأن العالم فى سير الحوادث . فولى الامر كالعالم لا يقدر على غير إرادة مالا يستطيع إيجاده من القوى الطبيعية ومحاربة هذه القوى بقوى طبيعية مخالفة لها .

☆
☆ ☆

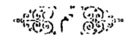
نذكر الارادة من بين مختلف القوى التى يتمتع بها الانسان لمقاتلة القوى المحدقة به ، فالارادة هى التى أخرجت من العدم عجائب العلوم والفنون وكل ماتزهو به الحضارات .

ولو دققنا فى سلسلة التاريخ وبحثنا عن الكيفية التى بلغت بها بعض الامم أعلى العز والعظمة وعن الصورة التى أكره بها قادة الفكر العالم على التسليم بأسرارهم ومضمراتهم

لوجدنا ذلك كله تم بفعل إرادة متينة ، ثم لو بحثنا عن السبب فى هلاك كثير من الامم وفى خضوع روما التى كانت ملكة العالم لحكم البرابرة فى اخر الامر لعلمنا أن ذلك نشأ عن ضعف الارادة .

إذاً الارادة سيدة الافراد والشعوب ، فلتكن غاية التربية تقويتها لا إضعافها ، وليست الصعوبة فى كسب الارادة الموقتة بل فى كسب الارادة المستمرة ، ولا تورث الارادة القوية النفوس يأساً وقنوطاً ، فبها ينسف الانسان الجبال ويبتدع كل شىء .

وإذا كان التاريخ الحديث يدلنا على أمم ترتفع وأمم تقف وأخرى تنحط فان انعام النظر يدلنا على أن ذلك كله ناشىء عن تفاوت فى إرادة تلك الامم ، فالارادة لا القدر هى المهيمنة على العالم



فهرس

الباب الأول

المقصد والطريقة

الفصل الاول — روح السياسة ٣
» الثانى — مقتضيات الاقتصاد ونظريات السياسة ١١
» الثالث — طرق البحث فى روح السياسة ١٩

الباب الثانى

العوامل النفسية فى عالم السياسة

الفصل الاول — مصدر القوانين والاوهام الاشتراعية ٢٧
» الثانى — مساوىء القوانين ٣٤
» الثالث — شأن الخوف فى عالم السياسة ٤١
» الرابع — تطور الحقوق الالهية فى الوقت الحاضر . الحكومية ٤٧
» الخامس — العوامل النفسية فى المعارك الحربية ٥٥
» السادس — العوامل النفسية فى المعارك الاقتصادية . . . ٦٣
» السابع — التأثير النفسي لتعلم الجامعات ٦٦

الباب الثالث

الحكومة الشعبية

الفصل الاول — صفوة الرجال والجماعات ٧٥
« الثانى — الاقناع ٨٤
« الثالث — مزاج العمال النفسى ٩٠
« الرابع — الاشكال الحديثة لرغائب السعب ٩٧
« الخامس — المزايدة الانتخابية ومقت النظام النيابى ١٠٤
« السادس — تفاقم الاستبداد ١١٣

الباب الرابع

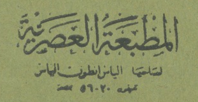
الأوهام الاشتراكية والاوهام النقابية

الفصل الاول — الاوهام الاشتراكية ١٢٠
« الثانى — الأوهام النقابية ١٣٠
« الثالث — تطور النقابية الفوضوى ١٣٨

الباب الخامس

أغلاط روح السياسة فى مادة الاستعمار

الفصل الاول — مبادئنا الاستعمارية ١٤٥
« الثاني — نتائج تطبيق التربية الاوربية علي الشعوب المتأخرة . ١٥٧


المطبعة العصرية
لصاحبها الياس انطون الياس
تلفون ٥٦٠٢٠